حافظ ابراهيم

دراسة تحليلية لسيرته وشعره



دكتور
السعيد محمود عبد الله

حافظ إبراهيم

دراسة تحليلية لسيرته وشعره

دكتور
السعيد محمود عبد الله


بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى زوجتي وابنتي...

عرفاناً لجهودهما في إعداد هذا البحث.

مُقدِّمة

تألق نجم شاعر النيل حافظ إبراهيم وسط كوكبة من أعلام الأدب فـى عصـره. نال من الشهرة وذيوع الصّيت ما عوّضه عما لقى فى حياته من عنت، ثم رحل مخلّفـا وراءه سيرةً مليئة بالمفارقات والطرائف لا تقل شهرة عمّا خلّف من شعر.

فى عصره تفتحت نوافذ كثيرة للثقافة، وأقبل مُحبّو الأدب على موارده المختلفة عربية وغربية، ينهلون منها قدر استطاعتهم، يعينهم على ذلك نشاط حركـة الترجمـة، ونشر الكثير من ذخائر التراث، وقلّة ما يتلهّوْن به فى أوقات فراغهم. وفى هذا العصر نبغ رجال كثيرون فى نواحٍ عديدة، أثروها علمـا وفنـا، وكـانوا روّادا مهّـدوا السبل لأجيال بعدهم.

سطع نجم حافظ فى تلك الظروف، وصار شاعر النيل علـى رقّـة حالـه قسيما فـى الشـهرة لأمـير الشـعراء، يلقـى الاهتمـام فـى أنديـة الأدب، والـترحيب مـن ذوى الجـاه وأصحاب السلطان. وكان استمرار شهرته دليلا على أن إبداعه يحوى الكثـير مـن عنـاصر التفوق، وعلى أنه لم يكتسب هذه الشهرة – كما يذهـب بعضهـم – بفضـل تزكيـة ذوى الجاه له، فقد ظل نجمه عاليا بعد رحيل أولئك الذين نُسب إليهم الفضل فى ذيوع اسمه.

وكان ظهور حافظ وشوقى فى عصر زدات فيه معرفـة شباب النقـاد بـالأدب، ماهيته ورسالته، سببا فى أن تعرّضا لكثير من النقد. لكن كثيرا من هـذا النقـد انصـب على شخصيهما لا على إبداعهما، وكان الأوْلى أن ينظـر أولئـك النقـاد إلى إبداعهمـا فى ضوء معايير موضوعية تميز الخبيث من الطيب. وبعد رحيل الشاعرين عاد من بقى حيا من أولئك النقاد ليصوّب ما سلف له من نظر فى أمرهما، وليعلـن بعضهـم أسـفه على ما صاحب نقده من حدة الشباب واندفاعه.

ولم يحظ حافظ بدراسات تكافىء مكانته وشهرته، ولا يُذكَر ما دار حوله منها، إذا قُوبل بما جرى حول شوقي، حياته وشعره. وأرى أن ذلك لأمرين:

فأما الأول، فهو أن صلّة شوقي بالقصر كانت تستفز خصومه وأشياعه للكتابة عنها. وأما الثاني، فهو أن إبداع شوقي أوسع رقعة وأكثر تنوّعا من إبداع حافظ، وهذا يساعد على ظهور بحوث شتى ودراسات متنوعة، لا يسمح بها إبداع حافظ.

ومع هذا لا تزال حياة حافظ وشعره في حاجة إلى نظرات جديدة لا تتأثر كثيرا بما كتبه معاصروه، لئلا تكون صدى لحديثهم ورجعا لآرائهم. ولو تأملنا أشهر الدراسات التي جرت حول حافظ وشوقي، لوجدنا أنها قد خرجت من بين دفتي "حافظ وشوقي" للدكتور طه حسين، لا تكاد تخالفه في رأى انتهى إليه. ونحن لا ندعو إلى المخالفة، ولكن ندعو إلى تحرير العقل في النظر إلى الأشياء، وطه حسين نفسه إمام هذا الاتجاه في تاريخ أدبنا العربي الحديث. ومن يتأمل كتاب الدكتور طه حسين يجد أن الحديث فيه أقرب إلى روح التنظير، بمعنى أنه كان يَضع نظريات عامة في قضايا مختلفة تتعلق بالشاعرين، وهذه النظريات تستمد كثيرا مما انطبع في نفسه عنهما من خلال المعاصرة. ولاشك في أن كل نظرة عامة أو نظرية تحتاج إلى تحديد وبراهين تؤكد صحتها وصوابها.

وبعد تأمل طويل في شعر حافظ، وقراءة ما كُتب عنه، ازددت يقينا بأن في حياة هذا الشاعر وفنه ما يحتاج إلى طرح جديد ومعالجة أخرى، ولهذا عقدت هذه الفصول الخمسة، راجيا أن أكون قد وُفّقت في التوصل إلى رأى معقول وكلمة مقبولة.

والله الموفق

المؤلف

الفصل الأول

حـــــيـــاتـــه

نشأته :

في جنوب مصر وعلى سطح ذهبية ترسو فوق صفحة النيل ، كان مولد حافظ إبراهيم . كان محمود باشا سليمان رجلاً واسع الثراء عظيم الجاه . وكانت أراضيه الواسعة التي تشغل مساحات كبيرة من صعيد مصر في حاجة إلى ماء وفير لاستنباتها واستخراج كنوزها . وهو أمر يتطلب عناية خاصة من القائمين على توزيع حصص المياه . وهذا ما حدا بالرجل الثرى إلى استمالة إبراهيم أفندى فهمى أحد المشرفين على الرى بقناطر ديروط التي تضخ الماء في أوردة الأرض العطشى، بأن أغدق عليه ، وأسكنه هذه الذهبية التي شهدت مولد شاعر النيل[١].

أسمته أمه (محمد حافظ) , لكنه لم يكن يعرف إلا بـ(حافظ) ، وبـ(شاعر النيل)، اللقب الذى بقى له واشتهر به من بين ألقاب أخرى خُلِعت عليه[٢].

ولا توجد وثائق رسمية تحدد تاريخ مولد حافظ ، لكنه يصرّ على تأكيد مولده في فبراير ١٨٧٢م ، ولا يلقى إصراره هذا موافقة المقربين منه ، إذ يرون أنه كان أكبر سنًا مما يذكر ، ويقدّمون على ذلك أدلّة منطقية يمكن الأخذ بها ، والتعويل عليها[٣].

لم يُقدّر للطفل أن ينعم طويلاً بعطف أبيه وحُسن رعايته ، إذ تُوفى والده وهو في الرابعة من عمره ، فاضطربت حياة الأسرة لرحيل ربِّها وعائلها . ومما زاد من هموم الأم أن رُزقت قبيل رحيل زوجها بطفلة ضاعفت إحساسها بفداحة الخطب ، وعظم المسئولية . ووجدت هذه الأم نفسها مضطرة إلى مغادرة (الذهبية) ، عش الزوجية الحالم، لتعيش بالقاهرة في كنف أخيها المهندس محمد نيازى .

ويبسط الأخ لأخته يد العون ، ويحوط ولَديْها بما يقدر عليه من رعاية . لكنّ ما قدر عليه لم يكن سياجًا كافيًا لحماية الناشئ الصغير وحُسن تعهّده في هذه السن المبكرة ، التي يحتاج فيها الأطفال حدب الآباء ورعايتهم المستمرة . ولعل هذا القصور كان أهم الأسباب التي أدت إلى إخفاق الصبى في تعليمه ، فهو يتنقل بين المدارس بخطوات سريعة لا يصبر على تلقى العلم بواحدة منها ، أهلية كانت أم

حكومية ، ولا يروق له من الدروس المتنوعة التى كانت تقدّم إليـه فـى هـذه المدارس غير دروس اللغة العربية ، وبخاصة الإنشاء وإنشاد الشعر(٤).

وفى الشارع قضى الصبى من الوقت أكثر مما قضاه فى المدرسـة . ولأنـه كـان محبًا للأدب ، ولوعًا بحفظ الشعر ، سعى إلى حوانيت الورّاقين بحى الأزهر يفتـش عـن دواوين الشعر العربى وينكبّ عليها يستوعب ويحفظ ، غير مبالٍ بالمدرسـة وبمـا كـان يُؤَمّل له فيها من مستقبل ينعم فيه برزق مضمون فى أحد دواوين الحكومة(٥) .

وتنتقل الأسرة إلى مدينة (طنطا) وراء عائلها . ويـترك محمـد نيـازى ابـن أختـه هَمَلاً يجوب الشوارع بعد أن يئس من إصلاحه ، باللين تارة وبالشدة تـارة أخـرى(٦). ولعل الفتى قد فرح بهذا الإهمال الذى يتيح لـه أن يقـرأ مـا يحـب مـن كتـب الأدب ودواويـن الشـعر ، وأن يتخـذ مـن الأصدقـاء مـن يشـاركه هوايتـه ، فيجلـس إليهـم يطارحهم الشعر ويسمعهم بواكير نظمه . ولأنه حلو النادرة ، حاضر البديهة ، التف حوله كثير من طلاب المعهد الأحمدى ، يأنسون بعذوبة كلامه وشعره وطرائفه ، وهو مغتبط بما يلقى من اهتمـامهم . ويدفعـه هـذا إلى زيـادة التنقيـب والاطـلاع ، فـيزداد حفظًا وعلمًا يومًا بعد يوم . يصف الشيخ عبد الوهاب النجار حافظًا فى هذه المرحلة الدقيقة من حياته ، وقد تعرّف إليه فى عام ١٨٨٨م حين كـان يطلـب العلـم بـالمعهد الأحمدى بطنطا ، وكانت سن حافظ آنذاك نحو ستة عشر عامًا، يصفه بقوله:

" عندما عدت من (القرشية) إلى طنطا فى شعبان من تلك السنة رأيت إخوانـى وأصدقائى يلوذون بفتى غض الإهاب ، جديد الشـباب ، وقـد أسـرعوا بتقديمـى إليـه وتقديمه إلىّ باسم الأديب الشاعر (محمد حافظ إبراهيـم) . ولم تمـر عشـيّة أو ضحاهـا حتى أحسست من نفسى ميلاً إليه بجاذب من الأدب الذى كان نُهمة نفسـى ، حتـى آل ذلك إلى غرام بأدبه وما يشتمل عليه من ظرف ولطف محاضرة ، وبديهـة مطاوعـة وسرعة خاطر وحضور نادرة... وقد قضينـا رمضـان مـن هـذه السـنة نصلـى المغـرب والعشاء والتراويح معًا ، ثم نلبث فى سمر ممتع ومطارحـة للشـعر ومذاكـرة فـى نـوادر

الأدب وما كان يطرفنى به مما يقف عليه من جيد القريض إلى أن يأتى وقت السحور، ثم نعود بعد السحور إلى ما كنّا فيه إلى انبشاق الفجر ، فنؤديه ثم نخرج بغلس إلى خارج المدينة ، ثم نعود وقد آذنت الشمس بالطلوع ، فيذهب كل منا إلى بيته " (٧).

هذا حديث واحد من أصدقاء حافظ فى غضاضة عمره . وهذه الصورة التى رسمها لمجلس حافظ ولرفقته فى ذلك الطور المبكر من عمره ، لم تتغير طوال حياته ، وإن طرأت عليها ملامح جديدة بحكم تبدّل البيئة ، ومرور الزمن . فمجالسه فى القاهرة يؤمها كثيرون من محبى أدبه وظرفه ولطيف دعابته ، وتظل منعقدة من العشاء حتى طلوع الفجر .

لم يكن أمام حافظ وقد انقطع عن الدراسة ، وصارحه أهله بضجرهم من حياته التى تمضى بلا هدف – لم يكن أمامه إلا أن يبحث عن عمل يقتات منه ويحفظ له ماء وجهه . ويقع اختياره على مهنة المحاماة، أنسب الأعمال وأكثرها موافقة لمواهبه ، من طلاقة لسان ، وحضور ذهن ومهارة فى الحِجاج ، فضلاً عن أنها لم تكن تشترط لدى المشتغل بها شهادة علمية . وفى مكتب (الشيمى) بطنطا بدأ مزاولة العمل ، راجيًا أن يُصيب من النجاح ما يعوضه عن فشله فى التعليم . يرى بعض كتّاب سيرته أنه نجح فى عمله ، فشجعه نجاحه على الانتقال إلى مكتبين آخرين من مكاتب المحاماة بحثًا عن الأفضل ، ويرى آخرون أنه فشل ، وأن خلافًا دب بينه وبين الشيمى بسبب ذلك ، ترك على أثره العمل عنده ، معبّرًا عن تعاسة حظه التى تلاحقه بهذين البيتين(٨) :

جراب حظّىَ قد أفرغته طمعًا ... بباب أستاذنا الشيمى ولاعَجَبا

فعاد لى وهْوَ مملوء فقلت له ... مما؟ فقال من الحسرات والحَرَبا

وأرى أن تنقلّه بين ثلاثة مكاتب للمحاماة فى وقت قصير ، يشبه تمامًا تنقله بين المدارس ، ويؤكد إخفاقه فى استيعاب هذه المهنة والصبر عليها ، كما أخفق فى الصبر على قاعة الدرس وتلقى العلم . والمحاماة تتطلب –كما يذكر الأستاذ أحمد أمين–

صبرًا وجهدًا فى مراجعة كتب القانون والفقه وكتابة المذكّرات[٩]، ومن أين لحافظ بالصبر وبذل الجهد ، وهو ملول بطبعه لا يصبر على عمل مُنظَّم منتظم . وهى طبيعة لازمته حتى وفاته ، يشهد بها أُناس عاشروه وصاحبوه فى عمله وسمره[١٠].

هجر حافظ المحاماة ، وفتَّش حواليه عن عمل ، ثم وجد أن المدرسة الحربية تكفل له منصبًا حكوميًا ، كما تحقق له ما تهفو إليه نفسه من وجاهة اجتماعية ، فالتحق بها وتخرّج فيها برتبة ملازم ثانٍ عام ١٨٩١م وقد قارب العشرين . ولم تكن المدارس الحربية فى عصر الشاعر تقدم لطلاّبها علمًا عسكريًا جيدًا أو مدنيًا نافعًا ؛ إذ عمد الإنجليز إلى إضعاف مناهجها وإبعاد الأساتذة الأكفاء عن ساحتها ، لئلا تساهم فى الارتقاء بمعارف المصريين ، فأصبحت هذه المدارس نتيجةً لهذه السياسة الخرقاء – كما يصف الشاعر فى (ليالى سطيح)– مثل مصانع الدجاج ، يدخل فيها التلميذ فلا يسلخ ستة أشهر حتى يغدو وعلى جنبه سيف صقيل ، ولم يزدد علمه عما كان عليه يوم خروجه من بطن أمه . وما آلة التصوير الشمسى فى رأيه بأسرع فى أخذ الصور من هذه المدارس فى تهيئة التلاميذ لدخول الجيش[١١].

أيًّا ما كان الأمر ، فقد أصبح حافظ ضابطًا بوزارة الحربية . ولم تمضِ على تعيينه سنوات ثلاث حتى يُرقَّى إلى رتبة ملازم أول فى ١ / ٨ / ١٨٩٣م . وتستعين وزارة الداخلية بضباط من وزارة الحربية ، فيتولّى حافظ وظيفة معاون بوليس . لكنّ وزارة الداخلية لا تلبث أن تستغنى عن خدماته وتعيده إلى وزارة الحربية ، التى تفضل هى الأخرى الاستغناء عنه لإهماله وتراخيه فى أداء واجبه ، فيُحال إلى الاستيداع فى ١٨٩٥م . ولولا حاجة الجيش المصرى إلى ضباط يرافقون (كتشنر) فى فتح السودان، ما عاد حافظ إلى إدارة التعيينات بوزارة الحربية ، ليعمل تحت إمرة هذا القائد الإنجليزى فى حملته . وفى السودان عانى الشاعر من صلف رؤسائه الإنجليز ، ومن معيشته القاسية فى الخيام وبيوت الطين ، تحت وهج الشمس الحارق ، ثم من زملائه الذين أجبرته الظروف على مجالستهم ومعايشتهم ، على ما بينه وبينهم من تنافر

الطباع والميول ، حتى أنه ليفكر كل يوم فى تقديم استقالته رغم حاجته إلى راتبه . يقول :

" لما كنت فى السودان كنت أكتب الاستقالة من عملى فى الجيش ظهرًا ، حتى إذا أقبل الأصيل بنسائمه مزّقت الاستقالة " (١٢).

ويرسل حافظ إلى الإمام محمد عبده وقد توطدت علاقته به ، يشكو سوء حاله ويلتمس منه السعى لإرجاعه إلى مصر قبل أن تزهق روحه :(١٣)

يا من تيمّنتْ الفُتيا بطلعته　　　أدرك فتاك فقد ضاقت به الحالُ

وفى رسالة بعث بها إليه من السودان ، يصف تعلق آماله به فى كشف هذه الغمّة ، فيقول :

" أناديه نداء الأخيذة فى عمورية شُجاع الدولة العباسية . وأمد صوتى بذكر إحسانه مدّ المؤذن صوته فى أذانه . وأعتمد عليه فى البعد والقرب اعتماد الملاّح على نجمة القطب

وقال أصيحابى وقد هالنى النوى　　　وهالهم أمرى : متىأنت قافِلُ ؟!
فقلت : إذا شاء الإمام فأوبتى　　　قريبٌ، وربْعى بالسعادةِ آهِلُ

وها أنا متماسك حتى تنحسر هذه الغمة ، وينطوى أجل تلك الفترة ، وينظر لى سيدى نظرة ترفعنى من ذات الصدع إلى ذات الرجع ، وتردّنى إلى وكرى الذى فيه درجت ، ردّ الشمس قطرة المزن إلى أصلها ، ورد الأمانات إلى أهلها...إلخ " (١٤).

ويتحول ضيق صدره أمام زملائه إلى سخرية وتهكم على قادته الإنجليز والمصريين ؛ فيشتد حنقهم عليه ، ويكتب (كتشنر) فوق ملفه " لا يُرفت ولا يُرقّى "، رغبة فى التنكيل به . ثم يُتهم حافظ مع آخرين بتحريض الضباط على العصيان والتمرّد ، فيحال مرة أخرى للاستيداع سنة ١٩٠٠م ، وراتبه لا يتجاوز أربع جنيهات . وفى القاهرة يسعى حافظ إلى وظيفة مدنية تدر عليه دخلاً إضافيًا يساعده على الوفاء بمطالب أسرته ، لكنه يخفق ويظل يخبط فى مضطرب الحياة الواسع ، يتكسّب بشعره تارة ، وتمتد إليه بالعون أيدى الوجهاء والأصدقاء تارة أخرى . لقد

ندمَ حـافظ آنـذاكَ علـى تفريطـه فـى دراسـته ، فلـو أنـه أتمّهـا وحصـل علـى إحـدى الشهادات العلمية ، لكان بمقدوره الحصول على عمل يقيه ذل الفقر والتكفّـف الـذى يمارسه وهو يمد يده لتناول ما يقدّم إليه مـن نفحـات . يصـف لنـا حـرج موقفـه بعـد إحالته للاستيداع فيقول :

" هأنذا وليس وراء ما بـى مـن سـوء الحـال غايـة . ولـو لم أكـن متخرّجًـا فـى المدرسة الحربية لكفانى العلم ذلة الفقر والسؤال . ولكننى خرجت منها كـأنى المعنىُّ بقول مَن قال :

الجهل شخصٌ ينادى فوق قامته   لا تسأل الربعَ ما فى الربع من أحدِ[١٥]

ويكابد الشاعر قسوة الحياة حتى يفترّ له فم الدنيا عن ابتسامة عريضـة فـى عـام ١٩١١م ، فقد سعى أحمد حشمت باشا فى تعيينه بـ(دار الكتب) بمرتـب يفيـض عـن حاجته وحاجة أسرته . ولم يتوقف عطاء هـذا الرجـل عنـد هـذا الحـد، فسـعى أيضًـا لتكريم حافظ بمنحه درجة (الباكوية) ثم بمنحه نيشان النيـل . فليـس غريبًـا أن نسـمع الشاعر يثنى على الرجل فى أكثر من موضع ومناسبة ، ويعدد ما له من أياد عنده[١٦]:

إليـك " أبا حسـن " أنتمى   فـما زلّ مـولى إليك انتسـبْ
عـرفـتَ مكانى فأدنيتنـى   وشرّفت قـدرى بـدار الكتـبْ
فشـكرًا لصُنعك شـكر النباتِ   ببطن الفـلاة لقـطْر السُّحُـبْ

وتطيب حياة حافظ فى ظل وظيفته الجديدة، وتمتد إلى أن يحال إلى التقاعد سـنة ١٩٣٢م، فيبدأ إحساسه بالوهن والشيخوخة , ويلزم معظم الوقت داره لا يغادرها إلا لضرورة . ويقبل عليه الليل بهمومه ، فيقلّـب صفحـات ماضيـه ، ويـندم علـى حياتـه الزوجية التى لم تستمر سوى أربعة أشهر من عام ١٩٠٦م ، ولسان حاله يردد حسرة الفرزدق:

نـدمـت ندامة الكُسَعىّ لـمَّـا   غـدت منّى مطلّقـةً نَـوارُ

فلو كان بالبيت زوجة تؤنس وحدته ، وأبناء ينشغل بهم عن همومه ، ما أحس بكـل

ما يحس به من فتور الهمة ووهن الجسد ، وبما تصوّبهُ جدران البيت المقرورة إلى صدره من سهام باردة . يقول فـي إحـدى نوبـات النـدم التـى كـانت تعـاودة ، كلمـا لفّـه السكون ، وشمله الإحساس بالوحدة [١٧] :

قالوا:تحررتَ من قيْد الملاح فعشْ حُرًّا ففى الأسر ذلٌّ كنت تأباهُ

فقلتُ : يا ليته دامـت صرامـتُـه ما كان أرفقـه عندي وأحْـناهُ

ولم يمض على تقاعده سـوى أربعـة أشـهر ونصـف ، حتـى صعـدت روحـه إلى بارئها . وكان ذلك فى الساعة الخامسة من صباح يوم ٢١ يوليو ١٩٣٢م ، بعد حياة مليئة بالبؤس والخوف والرجاء واليأس ، وبعد أن حفر اسمه فى صدور الناس ، بظرفـه وبما صدحت به لهاته من شـعر ، عمـرت بـه الصحـف واهـتزت لـه المنـابر ، وتعلقتـه النفوس مدّة طويلة من الزمان[١٨].

ثقافته :

يتبين لنا من العرض السابق ، أن حافظ إبراهيم لم يحصّل من المدارس التى تنقّـل بينها علمًا يُذكر ، كما أن المدرسة الحربيـة التـى تخـرّج فيهـا لم تفـده علمًـا مدنيًـا أو عسـكريًا ذا قيمـة . وثقافتـه التـى حصّلهـا راجعـة إلى جهـوده الذاتيـة فـى مطالعـة الموسوعات الأدبية ودواوين الشعر العربى . ويُذْكَر أن همّتـه فـى التزود مـن مصـادر الأدب العربى فترت بعد التحاقه بدار الكتب على عكس ما كان متوقعًـا . فبـدلاً مـن أن يُكب على أوعية العلم والأدب التى تحيـط بـه فـى هـذه الـدار ، أدار لها ظهـره لا يَلْوى على واحد منها يُجيل الطرف فيه . يقول أحمد محفوظ وكان زميلاً له فـى هـذه الدار : " إن حافظًا بعد أن التحق بالوظيفة فى دار الكتب ترك الكتـب . فكـأن هـذه الأسفار المتجمعة الكثيرة العدد وراء الزجاج السميك فى مخازن لا أول لها ولا آخـر ، ألقت فى نفسه السأم، فهو لا يقربها . كالطباخ الذى يطهـو أصنـاف الطعـام وينظـر إليها ويحركها بيده ، ويضعها فى أوانيها ، ثم لا تشـره نفسـه إليهـا ولا يشـتهيها . لم يقرأ حافظ من عام ١٩١١م إلى ١٩٣٢م كتابًا ذا قيمة... ولولا ذاكرته العجيبة وقـوة

حفظه لما استطاع أن يتصيد هذا الكلام البليغ المرصوص فى شعره ونثره ، لأن عهده بالنظر فى كتب الأدب البليغة، كان قد طال ومرّت عليه السنون . وهو لم يقرأ من عهد بعيد شعرًا جزلاً ولا كلامًا بليغًا »[19].

فالكاتب يعزو بلاغة حافظ التى تطالعنا فى شعره ونثره إلى قوة ذاكرته ، وما وعت من مطالعاته الكثيرة قبل التحاقه بالوظيفة .

أما الدكتور طه حسين ، فيرى أن ثقافة حافظ وفقهه العربية كانا محدودين ، إذ قصر اهتمامه على كتاب الأغانى ودواوين الشعر . فلم يحسن علوم العرب ولم يفهم فلسفتهم . كما يرى أن ذاكرته القوية الغنية كانت عونًا له فى صياغة شعره، فمن الواقع الذى يعيشه يستمد مضمونه ومن ذاكرته يستمد صوره[20].

ويحدثنا محقق ديوانه عن هذه الذاكرة الحافظة الواعية فيقول :

" إذا جلست إليه أخذ يسمعك من محفوظه ما يبهرك ، حتى لقد خُيّل إلىّ أنه لو دوّن ما يحفظه لفاق أبا تمام فى اختياره (ديوان الحماسة) ، إذ كان حافظ يتخيّر بذوق العصر وروح العصر ، وكان له حافظة قوية تسعف ذوقه وتلبى اختياره . فما يختار جيدًا من القول ، حتى يرتسم فى حافظته ويبقى فى ذاكرته ، ثم يتجلّى ذلك فى شعره » [21].

أما ثقافته الأجنبية، فيرى معاصروه أنها ضحلة إن لم تكن معدومة ، لأن معرفته البسيطة باللغة الفرنسية لم تكن لتمكّنه من الاطلاع على الأدب الغربى ، برغم ما يُقال عن ترجمته كتاب (البؤساء) لفيكتور هوجو ، وكتاب عن الاقتصاد بمشاركة خليل مطران . يقول الدكتور طه حسين : " كان حافظ يلم بالفرنسية ولكنه لم يكن يتقنها لا نطقًا ولا فهمًا . ستقول ولكنه ترجم البؤساء ، واشترك فى ترجمة كتاب فى علم الاقتصاد مع صديقه مطران . وهذا حق فقد ترجم البؤساء أو مقدارًا من البؤساء ولكن فى أى مشقة ومع أى جهد ! رحم الله حافظًا ، لقد لقى فى ترجمة البؤساء عناء عظيمًا ، عناء فى الفهم ، عناء فى استشارة المعاجم ، وعناء فى الصيغة العربية نفسها . وكثيرًا ما كان حافظ يعجز عن فهم فيكتور هوجو فيقيم نفسه مقامه... أما

كتاب الاقتصاد فسل صديقه مطران ينبئك بالخبر اليقين . لم يستفد حافظ إذن لأدبه وشعره من اللغة الفرنسية شيئًا يذكر " [٢٢].

ويعبر الأستاذ العقاد عن مثل رأى الدكتور طه حسين، حين يرى أنه لا يوجد بين العارفين باللغات الأجنبية أحد أشبه من حافظ بمن يجهلونها ، ولا يوجد بين جاهليها أحد أشبه منه بمن يعرفونها ، فهو شاعر يصافح بيديه الاثنتين هؤلاء وهؤلاء[٢٣].

وما ذهب إليه طه حسين ، والعقاد يؤكده أحمد محفوظ، فنراه يشكك فى قدرة حافظ على الترجمة عن الفرنسية ؛ وينعى عليه تشويهه كتاب هوجو ، لعدم فهمه دقائق هذه اللغة وبلاغتها[٢٤] .

ولقد حصّل حافظ قدرًا من ثقافته وعلمه عن طريق المجالس العامرة التى كان يؤمها . ومجالس حافظ نوعان : الأول ، يلقى فيه علماء وشعراء ومفكرين وساسة مثل : الشيخ محمد عبده ومصطفى كامل وسعد زغلول والسيد توفيق البكرى وحفنى ناصف والباردوى وإسماعيل صبرى وقاسم أمين والشيخ على يوسف... إلخ ، وهؤلاء وأضرابهم يطرحون عادة فى مجالسهم قضايا جادة ومسائل متنوعة ، يدلى كل واحد منهم فيها برأيه وعلمه ، فيتحصل للمستمع زاد وفير من العلم والخبرة ، يساعده على توسيع أفقه وإثراء فكره . وأما النوع الثانى من مجالسه فهو للترويح عن النفس بالمداعبة والطُّرفة والنكات المستملحة . وهذه المجالس كانت تنعقد عادة فى المقاهى والملاهى والحانات ، ويلتقى فيها حافظ مع بعض الظرفاء مثل محمد البابلى وإمام العبد . وكان لحافظ فيها باع طويل وحضور قوى[٢٥] . وقد تسللت روح الدعابة التى كانت تشيع فى هذه المجالس إلى شعر حافظ ، وهذا ما سنبينه فى فصل تالٍ.

جوانب من حياته وشخصه :

لا يُعَد الحديث عن جوانب معينة فى شخصية الأديب فضولاً من الكلام ، فهو

مذهب هام فى دراسة أعمال الأدباء مازال يلقى اهتمـــام النقـاد والدارسـين . فمعرفـة خصائص نفس الشاعر وطباعه ، وحتى ملامحه الجسدية ، مما يساعد على تعليل مواقفه من الأحداث وآرائه فى القضايا التى يتناولها ، ومما يعين على تحليـل رؤاه ، ومـا يعلـق به خياله من صور قد تكون ذات علاقة قوية بباطنه وما استودع مـن أسـرار حياتـه . وإنى لأكتفى فى هذا المقام بما أراه فى حياته وشخصه من معالم بارزة تسهم فى فهـم طبيعة نفسه ، أو فى دراسة شعره . أما باقى جوانب حياته وشخصه فلن أتطرق إليه ، إذ يمثل عبئًا على هذه الدراسة.

أولاً : ازدواج شخصيته :

لقد لقى حافظ من عنت الحياة وقسوتها الكثير .يكفى أن يستهل حياته يتيمًا لا يجـد الأب الحـانى الـذى يضمـه تحـت جناحـه، ويمسـح بكفـه فـوق رأسـه. لابـد أن إحساسًا ممضًا باليتم. كان يعاوده ويلذع نفسه، منذ أصبح صبيًا يافعًا يدرك مـا يـدور حوله ، ويعى من حقائق حياته المرّة ما كان من قبل خافيًا عنه . فلم يكن ليغيـب عـن ذهنه أنه وأمه وأخته عِيال على خاله يتسقّطونه ، فيحـزن ويكتـم حزنـه. لكـن هـذا الحزن والإحساس بالذلة والانكسار ، ما لبث أن أعلن عن نفسـه بقـوة ، يـوم توعّـده خاله بالطرد . فلم يتردد الفتى فى أن يجبه خاله قائلاً[٢٦] :

ثقـــلت عليك مـؤونتــــى إنّـــى أراهـــا واهيـــهْ
فـافـــــرح، فإنّـى ذاهـــبٌ متوجّـــــه فـى داهيـــهْ

ولابد أيضًا أنه خلا إلى نفسه مرّات كثيرة ، يتأمّل ما هو فيه من تشرّد وضياع، بعد أن انقطعت أسبابه بـالتعليم وبـالعمل ، وصـار عـاطلاً يُسلِمه شـارع إلى آخـر ، فيأسى لسوء حاله ويندب حظه ويتعجل حِمامه ليريح مَن حوله ، ويستريح من وطـأة الإحساس بالتشرد وذلة النفس . يذكر الشيخ عبد الوهاب النجـار أبياتـا لحـافظ تعبر عن خواطره السوداء وشعوره الدامى فى هذه المرحلة الحرجـة مـن حياتـه، منهـا قولـه

يتعجل الموت[٢٧] :

عجبت لعُمرى كيفَ مُدّ فطالا ... وما أثّرتْ فيه الهمــوم زوالاً

وللموتِ، ما لى قد أراه مباعـدًا ... وجُلّ مـرادى أن أوسَّـد حالا

فَللموتُ خيرٌ من حياة أُرى بها ... ذليـلاً، وكنتُ السيّد المفضـالا

ويوم التحق حافظ بالمدرسة الحربية ، ظنّ أنه ودع حيـاة الشـقاء . لكـن حياتـه العسكرية التى انتهت بتجربته المريرة فى السودان ، جعلته يوقن أن النحس يلازمـه ، وأن المقادير تعاكسه، فانتهى به إحساسه هذا إلى حالة من التشاؤم جعلته يصاحب أبـا العلاء المعرّى ويعتنق أفكاره ، ويكثر من ترديد شعره ، يسرّى به عن نفسـه . يصـف لنا إحدى حالات الأرق التى كانت تعاوده وتقض مضجعه ، فيقول :

" أخذت مضجعى وجعلت أعالج النـوم، ولكـن طـافت بـالرأس طائفـة مـن الأفكـار، فباعدت ما بين الجفنين وأرعجت ما بـين الجنبـين. فـأقض علـىّ المضجـع وحـار بـى الفراش، فقمت إلى الشمعة فأشـعلتها، وإلى (لزوميـات) أبـى العـلاء ففتحتهـا. فوقـع نظرى فيها على قوله :

أيا دار الخســـار ألا خــلاصٌ ... فأذهب للجنوب أو الشــمالِ

وُظـلْـمٌ أن أحـاول فيكِ ربحًـا ... ولـم أخرج إليك برأس مـــالِ

فاستشعرت نفسى الراحة وسُرِّى عنى ما كنت أجده من الغم...."[٢٨] .

وفى موضع آخر يقول :

" أخذت مضجعى فعاودنى أرق الليلة الغـابرة ، فقلـت : مـا لهـذا الأرق مـن دواء إلا (لزوميات) أبى العلاء، فقمت إليها وفتحتها فأخذ نظرى فيها قوله :

الروح والجسم من قبل اجتماعهما ... كانا وديعيْن، لاهـمّا ولا سقـما

تـفـرُّدُ الـمــرء خيرٌ من تألّفِـــه ... بغيره وتجرُّ الألفـــة النِّقـمـــا

ثم قرأت قوله :

اســـــمع نَصيحة ذى لُبّ وتجربة يُفِدْكَ فى اليوم ما فىدهره عَلِما

إذا أُصــاب الفتي خطبٌ يضرّ به فـلا يظن جـــــهول أنه ظُلِمـــا

قدطال عمرىَطولَ الظفرفاتصلت به الأذاة وكان الحظّ لو قُلِمـــا

فقلت : إى وا لله لقد صدق الفيلسوف . تعاف النفوس لقاء شعوب وتطلب السلامة من عاديات الخطوب . والأعمار كالأظفار ، كلما طالت تخلّلتها الأقذار ، واستبشعت رؤيتها الأبصار »(٢٩) .

وهكذا كان حافظ كلما ضاق صدره وعزب صبره، ينهض إلى (لزوميات) أبى العلاء التى يصفها بأنها " ربيع الأرواح ومسرح النفوس "؛ يقلب صفحاتها ولا تحط عيناه فيها إلا على ما يناسب حالته من آراء صاحبها ومعتقده ؛ يطوى بها الأوهام ويمحو بها الآلام(٣٠) .

واعتقاد الإنسان مجافاة المقادر له وسوء طالعه فى الحياة إذا طال أمده و لم يزُل بزوال دواعيه ، كثيرًا ما يتحول عند صاحبه إلى حالة من الشعور بعبث الحياة والسخرية منها . وقد يسلك الإنسان إذا بلغ هذا الحد سبيلاً أخرى فى معيشته يطلب فيها اللهو والمتعة الآنية التى تغتنم اللحظة الحاضرة . وقارئ شعر حافظ يجد له شخصيتين : **الأولى** قاتمة الملامح ، شاكية، ساخطة ، والثانية طلقة الأسارير مقبلة على الحياة . أما الشخصية الأولى فلا يلقى بها حافظ إلا حافظًا ، كلما أوى إلى داره وخلا إلى نفسه ، وراح يُعمل ذهنه فى ماضيه وحاضره ومستقبل أيامه ، وينظر فى حصاد ما مضى من عمره فيجد يده صفرًا . وأما الشخصية الثانية فيلتقى بها حافظ جلساءه الذين يخفّون إلى رؤيته رغبة فى ظرفه وعذوبة حديثه وطريف نوادره . ومن يرَ حافظًا فى المجالس وهو يُشيع فيها الفكاهة والدعابة ، لا يظن أن مثله يضم بداخله إحساسًا بمرارة العيش ، أو أن ظاهره يخفى تحته باطنًا جهْمًا يمور بمشاعر آسية . ولولا ظرف حافظ وعذوبة حديثه ما وجد سبيله ميسّرة إلى مجالس الوجهاء والعلماء وقادة الفكر وكبار الساسة ، وما تقاطر عليه آخرون من رواد المقاهى والملاهى يخفّون

بمقعده ويسعدون بالسمر معه . والأستاذ أحمد أمين على صواب حين قال يصف هذه الشخصية التى يناقض باطنها ظاهرها :

" إن طبيعة حافظ كانت مخالفة تمام المخالفة لمظهره الخارجى . كان مظهره الخارجى ضحوكًا مرحًا ، لا يراه الرائى حتى يضحك من ضحكه . ولا يكون فى مجلس حتى يملأه سرورًا وضحكًا ، ولكنه فى أعماق نفسه حزين ، كالشمعة تضىء وهى تحترق ، أو كالممثل يجيد تمثيل دور الضاحك وهو فى نفسه يذوب حسرات "(٣١) .

لكننى لا أراه محقًّا فيما ذهب إليه من أن روح حافظ المرحة المحبة للدعابة لا تظهر فى شعره وليس لها فيه مجال . يقول :

" مَن قرأ شعره وحده ولم يعرف شيئًا من صفاته ، لا يشعر بأنه كان فكهًا مزّاحًا ، وسبب ذلك أن الأديب فى كثير من الأحيان تكون له شخصيتان أو أكثر: فله فى حياته العامة شخصية خاصة . فإذا أراد أن يصوغ شعره أو نشره انصبّ فى قالب خاص وتقمص شخصية أخرى . ولو قد أتيح له أن يُدخل كثيرًا من فكاهته فى شعره، لربحنا من وراء ذلك الشىء الكثير "(٣٢) .

ولعل الدكتور عبد الحميد سند الجندى قد تأثر برأى الأستاذ أحمد أمين حيث يقول : " إننا نلاحظ أن شعر حافظ قد خلا أو كاد من الفكاهة التى عُرف بها فى المجالس والسوامر . ولا نجد لهذه الروح أثرًا فى شعره إلا أثارات قليلة جدًا أشبه بالدعابة الخفيفة منها بالنكتة والفكاهة "(٣٣) .

وحيث يقول :

" إن أشعاره التى تسرى فيها روح الدعابة لا تكاد تعدو بضع مقطوعات قليلة تعد على أصابع اليد الواحدة "(٣٤) .

وهى أحكام جانبها الصواب فى نظرى لأمرين :

الأول : أنها لم تؤسس -كما يُفهم من بعضها- على استقراء تام لشعر حافظ، تُستَشفُّ منه روح الدعابة والفكاهة التى تتخلل تعبيراته وصوره المتناثرة فى أثناء هذا الشعر وتضاعيفه ، ما كان منها جادًا وما كان هازلاً .

الثاني : أن أصحاب هذه الآراء كانوا يريدون لروح حافظ المرحة المحبّة للفكاهة، أن تشيع في كل أعماله أو أغلبها ، على اختلاف مقامات القول وموضوعاته ، أو كان بعضهم يريد لدعابته أن تتخذ في شعره شكلاً أكثر حدة ينتزع القهقهة والضحك الصاخب . يقول د. عبد الحميد سند معلقًا على نماذج من دعابة حافظ : " وتكاد دعاباته كلها تنحصر في هذه القصائد التي أشرنا إليها . وهي لا تعتبر من أنماط الفكاهة التي تقوم على ما نسميه نحن بـ(القفشات) التي تدور حول التورية والمفارقات ، وتصدر عن بديهة حاضرة وخاطر لمّاح كان يعرف بهما حافظ . والدعابة أخف ألوان الفكاهة، وهي فكاهة الذين يعتصمون بـ(التوقّر) ، ولا تنتزع من السامعين إلا الابتسام الخفيف لا القهقهة والضحك الصاخب "[٣٥].

وهذا فهم غير صحيح لمفهوم الدعابة: يُفسد جو الصياغة الشعرية . وقد عاب المازني على حافظ أن بلغت مداعبته أصحابه في بعض شعره حدًا ينكره الذوق ويأباه الحياء[٣٦]. وقد أعجب العقاد بمقطوعات قليلة لأمير الشعراء تحمل روح الدعابة ، وعدّها الجانب المتميز الوحيد في شعره ، الذي ينم عن شخصيته الحقيقية . فما بالنا بدعابة حافظ التي شغلت معظم باب (الإخوانيات) في شعره ، وتعدته إلى مواضع أخرى من هذا الشعر[٣٧].

ومن شاء أن يلتمس روح الدعابة عند حافظ ، فليطالع قصيدته في تكريم حفني ناصف التي بدأها جادًا ثم عطف على الهزل ليصوغ فيه أكثر من ثلاثة وثلاثين بيتًا . وقد أحس بإسرافه فقال :[٣٨]

أسرفت في المزح فاصفح يا سيدي واعفُ عنّي

وممازحته للدكتور محجوب ثابت مشهورة . وكان محجوب ثابت يكثر من حرف القاف في حديثه ، فجعل حافظ هذه الظاهرة موضوعًا لمداعبة جاء فيها :[٣٩]

يُرغى ويُزبد بالقافات تحسبها قصْف المدافع فى أُفق البساتين .
من كل قاف كأن الله صوّرها من مارج النار تصوير الشياطين
.... إلخ

وله دعابة رد بها على صديق، وقد حذف المحقق منها أبياتًا تجاوزت حد المزاح الخفيف ، منها قوله عن هذا الصديق فى آخر قصيدته :(٤٠)

ولقد عجبتُ لبخله ولكفّه المتحجّر
لا يصرف السحتوت إلْـ لا وهْو غير مخيّر
لو أن فى إمكانه عيشًا بغير تضوّر
لاختار سد الفتحتيـ ـنِ وقال يا جيّب احذر

وفى القصيدة أبيات لو أنها قيلت فى مقام هجاء ، لكانت هجوًا قاسيًا .

ولم تكن روح حافظ المحبة للدعابة مقصورة على مجال الإخوانيات ، فها هو يتحدث إلى رداء جديد له أكسبه توقير الناس واحترامهم ، فتشيع فى حديثه روح الدعابة وهو يدعو لهذا الرداء بطول العمر :(٤١)

يا ردائى وأنت خير رداءٍ أرتجيه لزينة وازدهاءِ
لا أحالت لك الحوادث لونا وتعدتك ناسجات الهواءِ
غفلت عنك للبِلى نظراتٌ وتخطتك إبرة الرفّاءِ

ويستمر على هذا النحو إلى أن يقول :

قعد الفضل بى وقمتَ بعزّى بين صحبى،جُزيتَ خير الجزاءِ

وفى بعض المواقف الجادة لا تفارقه هذه الروح ، ونراه يخلط جدّ القول بهزله. من ذلك قوله فى حفل للبرّ دعا إليه سليم سركيس(٤٢) :

لولا (سليم) لم يقل قائلٌ ولم يَجُدْ مَنْ جادَ بالأمسِ
للّه ما أشجعه إنّهُ ذو مِرَّةٍ فينا وذو بأسِ
يقوم فى مشروعه نافذًا كأنه (عنترةُ العَبْسى)

تلقاه فـــى الجـــد كما تبتغى وتارة تلقـــاه فى (الهَـــلْسِ)
(سركيسُ)، إن راقــك ما قلتهُ فى معرض الهزل فقل (مِرسى)

فهو يثنى على الرجل أمام الناس فى هذا الموقف الجاد ثنـاء المـازحين ، ويُسـمعه علـى الملأ ما اعتاد أن يُسمعه إذا خلا به أو ضمهما مجلس للهو أو لسمر . ولاشــك فـى أن قوله هذا قد أضحك الحضور وأولهم سليم سركيس نفسه .

بل يقف حافظ موقفًا لا يقبل إلا الجد ، فتطفر من فمه الذى اعتـاد فـى مخاطبـة الإخوان على المداعبة ، عبارةٌ ذات دلالـة قويّـة علـى تمكّـن روح المـزاح مـن نفسـه : فنسمعه يرثى (ملك ناصف) ويصف ذهول أبيها لوفاتها ، بقوله[٤٣] :

لا كان يومُـــك يـــوم لا حَ الحـــزن مختلـف الصُّـوَرْ
علّمتِ هـاتـفـة القصـــو ر نـواح هاتـفـــة الشجـرْ
وتركـتِ شـيخك لا يعــى (هـــل غـاب زيدٌ أو حضرْ)

يقصد بالشيخ أباها حفنى ناصف وكان عالمًا بـالنحو مشتغلاً بتدريسه . ولأن مـدار الأمثلة فى دروس النحو القديمة على (زيد وعمرو) ، راح حـافظ يـزج بأحدهمـا فـى هذا المقام الجاد ، ولم ير وسيلة أخرى للتعبير عن تفجّع الأب وذهوله غير هذه الكناية التى ترسم البسمة قسرًا على شفاه حاضرى العزاء .

ولننظر إلى القصة العجيبة التى ابتدعها له خياله الهازل ، وصدّر بها واحـدة مـن قصائده . والقصيدة مِدحة فى محمود سامى البارودى ، اصطنـع حـافظ فـى مقدمتهـا الغزلية زيارة لمحبوبته ، تعمّد أن تكون فى ليلة قمراء تغـرى بـه الرقبـاء ، الذيـن مـا إن رأوه مقبلاً نحوهم كالموت ، حتى تظاهروا بالنوم اتقاء شرّه . وإمعانًا منـه فـى إظهـار جرأته ، صمم على أن يطـأ أحشاءهم متخذًا سبيله إلى محبوبتـه . وهـى قصـة نسـج خيوطها خيال هازل ، أراد مخالفة الشعراء القدامى فيما يبدونـه فـى هـذه الزيـارة مـن حذر وتهيّب ، فكانت هذه القصة الطريفة الفكهة[٤٤].

لقد كان حافظ إبراهيم كما يصفه الأستاذ أحمد أمين : " زينـة المجلس وبهجـة

النادى"[٤٥]. وكان لشخصيته المرحة حضور قوى فى شعره ، كما كان لها فى مجالسه . ولعل ما ذكرناه من أمثلة قليلة كافٍ للتدليل على ذلك . وقد كان حافظ يعلم هذه الميزة فى شخصه ، التى تفتح له الأبواب وتفسح له مكانًا واسعًا فى الصفوف . فنجده يقف بباب سعد زغلول قائلاً لحاجبه :[٤٦]

قل للرئيس أدام الله دولته　　بأن شاعره بالباب منتظرُ

إن شاء حدّثه أو شاء أطربه　　بكل نادرة تُجلى بها الفِكرُ

ثانيًا : خوفه :

يبدو أن الفقر الذى عانى منه حافظ طويلاً ، تجسّد له وانتصب أمام عينيه شبحًا مخيفًا يتهدده ويسد عليه مسالكه ، ويملى عليه فى المواقف من الأقوال ما لا يتوقع الناس منه ، وما لا يرضى هو عنه فى قرارة نفسه . وهذا الخوف من أن يعاوده الفقر جعله يجامل الإنجليز الذين يمقتهم إلى حد امتداحهم والثناء على سياستهم ، وهو (شاعر النيل)، بل (شاعر الوطنية الأول) كما لقبته جريدة اللواء ، منبر مصطفى كامل ، وصوت الشعب المصرى المجاهد . ولست الآن بصدد تقديم الشواهد والأدلة، فهى ذائعة فى شعره ، وسأعرض لها فى موطن آخر من الدراسة . لكننى أردت تعليل ما يجده القارئ فى شعر حافظ إبراهيم من مفارقات عجيبة ، كان هذا الخوف من الفقر مصحوبًا بالخوف من بطش الإنجليز أهم أسبابها.هذه المفارقة التى تصل أحيانًا إلى حد التناقض ، مما يعرّض وطنيّته للتساؤل ، والاتهام . لم يبلغ حافظ وظيفته بدار الكتب التى كفلت له راتبًا يضمن له معيشة كريمة ، إلا بعد أن كلّت قدماه من السعى، وكاد -على حد قوله- ينتعل الدّما[٤٧] :

سعيتُ إلى أن كدتُ أنتعل الدّما　　وعُدتُ وما أُعقبتُ إلا التندّما

وكان طوال سعيه يستقدم الموت ويتعجله، يراه منقذًا له مما هو فيه من ذل العوز:

سـلام على الدنيا،سلام مُودِّعٍ رأى فى ظلام القبر أنسًا ومغنما

فهبّى رياح الموت نُكبا وأطفئى سراج حياتى قبل أن يتحطّما

ولم يكن حافظ يكتم خوفه من الإنجليز والسلطة القائمة فيما يكتب أو يتحدث فنراه يصرّح بضعفه وبأنه لا يأوى بين الناس إلى ركن شديد يقيه ويذود عنه(٤٨) :

* ضعيفٌ وما لى فى الحياة نصيرٌ *

ونجده فى (ليالى سطيح) يذكر موقفًا له وهو بالسودان ، جرّب فيه مصارحة بعض الإنجليز برأيٍ له فى سياستهم ، ويذكر أنه اضطر إلى تغيير موقفه فى الحال حين لمح فى أعينهم إنكارًا خاف عاقبته ، بأن تمحّل فى تأويل رأيه بما قلب سخطهم عليه إلى رضا عنه(٤٩).

ولكم عبّر الشاعر عن الصراع القائم فى نفسه ، بين رغبته فى إبداء رأيه ومعتقده ، وبين خوفه من أن يعرضه ذلك لأذىً لا يحتمله(٥٠) :

إذا نطقتُ فقاع السجن متكأً وإن سكتُّ فإن النفس لم تطبِ

والخوف بذرة خبيثة ، متى تفتّقت وأورقت فى صدر الإنسان ، لا يقف نموّها عند حد ، بل تضرب بجذورها وتمد فروعها فى كل نواحى حياته ، وتكيّف له أفعاله وأقواله . فإذا كانت هذه البذرة ترتوى من حرص الإنسان على الحياة وضرورات هذه الحياة ، كان تأثيرها أعتى وأشد . وأصحاب حافظ وجلساؤه يعرفون شدّة تمكن الخوف من نفسه وتأثيره الشديد فى سلوكه ، و يتخذون ذلك سببًا لممازحته أو للتندر عليه . يقص علينا الدكتور طه حسين أنه طلب من حافظ إذاعة بعض شعره الوطنى فى الصحف ، وأنه أبدى له استعداده فى حال نشره لتقريظه والثناء عليه . لكنَّ حافظا رفض هذا الطلب قائلاً :

" اذممنى ما شئت فى غير تحفظ فلن أنشر هذا الشعر لأنى لا أريد أن أُحال على المعاش الآن "(٥١).

لهذا يرى الدكتور طه حسين أن تعيينه بدار الكتب كان نعمة عليه ونقمة على الشعب ، إذ حُرِم هذا الشعب شاعره . يقول : " أسند إليه منصب فى دار الكتب...

فاضطر إلى أن يصانع ويدارى ويحسب للقول حسابًا ، ويكظم نفسه على ما تكره ، ويترك شعبه من غير ترجمان . رحم الله حشمت باشا ، أراد أن يبرّ بصديقه ويحميه من البؤس والشقاء ويمهد له حياة ناعمة راضية ، فحرم أمته شاعرها ، وطمر أو كاد يطمر هذا الينبوع الصافى العذب "[٥٢].

وماذا لو لم يستطع حافظ كظم غيظه ، واضطر إلى إبداء رأيه والإعلان عن معتقده فى سياسة الإنجليز وعَسْفهم ؟! كان الحل جاهزًا ، وهو أن يجهر بالرأى ثم يعزوه إلى الآخرين ، فينقله من الخصوص إلى العموم وينجو من تحمّل المسئولية ، لأنه ناقل ، مجرد ناقل . فنسمعه بعد أن يعدّد سوْءات كرومر يقول له[٥٣] :

فهذا حديث الناس،والناس ألسنٌ   إذا قال هذا، صاح ذاك مفنّدا
ولو كنتُ من أهل السياسة بينهم   لسجّلْتُ لى رأيًا وبُلِّغتُ مقصدا
ولكننى فى معرض القول شاعرٌ   أضاف إلى التاريخ قولاً مخلّدا

و لم يدفعه حرصه وحذره إلى التنصّل من هذه الآراء بنسبتها إلى الناس فحسب، بل دفعه أيضًا إلى أن يستلّ نفسه من السّاسة أصحاب الرأى ، ليبعد عنه بذلك ما قد يعلق به من اتهام .

ولا ينبغى لدارسٍ أن يحمّل حافظًا من أمره عسرًا، فينحى عليه باللوم ، أو يجرّده من وطنيته ، لأنه لم يقارع الإنجليز و لم يندد بفساد السلطة فى مصر . فلم يكن سليل أسرة ثرية وعريقة الجذور فى المجتمع المصرى ، يستمد من ثرائها ضمانًا لقوته ، ومن أشياعها الكُثْرِ حماية وقوة . كما أنه لم يكن يحظى بمثل ما يحظى به الزعماء من التفاف الشعوب حولهم وذيادها عنهم ، فتذهب عن نفسه مهابة النزال ، ويلقى خصمه، لا بقوّته وإنما بقوة الشعب من حوله . كان شوقى يسند ظهره إلى القصر ويحس أنه قادر على أن يدرأ عنه عادية الانتقام ، فكان جريئًا فى بعض المواقف . أمّا حافظ فحسْبه وهو الفرد الضعيف أنه كان يجهر ببغضه الإنجليز أحيانًا . علينا أن نتعامل معه بوصفه بشرًا ، يدور فى فلك البشرية الواسع بكل غرائز البشر

وأحاسيسهم . ولا يوجد إنسان قادر على أن يتسامى فوق حاجات واقعه البشرى على النحو المثالى الذى نريد . الأنبياء فحسب هم القادرون على هذا الارتقاء ، بفضل ما أمدّهم الله به من يقين وأمكنهم من قدرة . وإن من الرُّسل من جرّب هذا الضعف البشرى فى مرحلة من مراحل حياته أو أدائه رسالته .

ثالثًا : غريزته للمرأة :

لم يستمر زواج حافظ إبراهيم سوى أربعة أشهر من عام ١٩٠٦م ، وانتهى هذا الزواج دون عقب . وأسباب فشل هذا الزواج غير معروفة يقينًا ، وإن كان أحمد محفوظ وهو مقرّب إلى الشاعر ، يذكر من العلل ما يمكن أن يكون وراء هذا الإخفاق. من هذه العلل ، أن حافظًا لم يشاهد عروسه قبل الزفاف نزولاً على تقاليد عصره ، فلما التقاها ببيته لم تنزل من قلبه منزلاً حسنًا . ومن هذه العلل أيضًا ، أن حافظًا أدركه بعض طبعه القديم من مَللٍ ورغبة فى الهروب من تحمّل التبعات، فآثر حياة الأعزب(٥٤).

عاش حافظ بعد هذه التجربة ستًا وعشرين سنة ، دون أن يفكر فى معاودتها لأسباب مجهولة ، غير تلك التى ذكرها أحمد محفوظ ، لعلّها الأسباب نفسها التى دفعت به إلى التحرر من الزواج بعد أشهر قصار . أقول مجهولة لأنى لا أعتقد أن روح الملل والضجر التى اتصف بها الشاعر طوال حياته ، كانت قادرة على أن تصرفه عن معاودة التجربة خلال تلك المدة الطويلة ، لو أنّ بداخله رغبة قوية عارمة، تدفع به إلى الاقتران بالأنثى . وكم من رجل مثل حافظ هذّب الزواج طباعه وبدّلها إلى الأفضل ، بسبب حرصه الغريزى على استمرار هذه العلاقة ، التى تشبع حاجاته الروحية والجسدية . كما أن حافظًا لم يكن معسرًا طوال هذه الفترة ، فأخباره تؤكد أنه كان بعد تعيينه بدار الكتب موسرًا شديد البذخ . ولو كان الأسلوب التقليدى الذى تزوج حافظ به السبب فى فشل زواجه الأول، فإنى لا أراه سببًا يمنعه من

معاودة الزواج، وهو يرى كثيرين غيره يتزوجون بهذا الأسلوب وينجحون، ومَن لم يوفق منهم مرّة، يجرّب حظه أخرى تلبيةً لإلحاح الحاجة لديه .

إذن فالطلاق ثم عزوف الشاعر عن الزواج -في رأيي- .لا يمكن أن نعللهما بأسباب خارج الطبيعة (البيولوجية) للشاعر ، تلك الطبيعة التي لم تجعله يحس توافقًا في زواجه الأول ، كما أنها لم تجعله يحس بداخله هذه الرغبة الجارفة التي تدفع بالرجل في طريق المرأة ، فلم نجده يسعى إليها ثانية وثالثة،والمرء كما ورد في القول السائر " يسعى لغاريْه بطنه وفرجه ". وفضلاً عمّا سبق نجد من القرائن ما يؤكد هذا الرأي ، وهي قرائن إن تكن منفردة لا تنهض دليلاً قويًا على ما نذهب إليه ، فإنها مجتمعة يقوّي بعضها بعضًا وتؤكد صحة استنتاجنا . (أولاها) : أن تجربته الأولى لم تخلّف عقبًا . و(ثانيتها) : اختفاء أحاسيسه نحو المرأة تمامًا من شعره مثلما اختفت هي بسرعة من حياته . وظاهرة غير مألوفة ، أن تختفي ملامح المرأة تمامًا من ديوان حافظ بينما شعراء جيله كلٌّ يرسم لها من الصور ما استطاعت ريشته ويبثها عواطفه ما وسع قيثارته . و(ثالثتها)، وهي أقوى القرائن وأشدها تأكيدًا لهذا الرأي : هذه الغريزة المنعكسة والإحساس المقلوب الذي يصفه شعر حافظ وتذكره أخباره . فالشاعر يستبدل بالهيام بالأنثى هُيامًا بالحسان من الذكور . يكلف بهم ويتغزل بمحاسنهم ، وكأنه يجرّب الخطو على طريق أبي نواس . وهذا كل ما له في الشعرمن الغزل .

يحدثنا أحمد محفوظ عن ولع حافظ بالجمال ، وأنه كان موكّلا به يعشقه حيث كان . لكنّ الروايات التي يرويها عن ولع حافظ تؤكد أمرًا واحدًا ، وهو أنه لم يكن يطلب هذا الجمال ولا يحسّه إلا عند نظرائه من الذكران ، يستهويه ما يسمع من أنباء حسنهم ، فيجهد نفسه لرؤيتهم . ولعل هذه الغريزة المعكوسة ، التي تحولت عن اتجاهها الصحيح ، هي التي جعلت الشاعر موضع اتهام في بعض الأحيان ، وإن كان صديقه يدافع عن طهارته ويؤكد أنه لم يرتكب في حياته شذوذًا ولا غير شذوذ[٥٥].

ولئن كان حافظ موكّلا بالجمال كما يذكر أحمد محفوظ ، ورُزق ما يُرزَق

الرجل عادة من ميل غريزى للمرأة ، فإن محاسن الأنثى لا الذكر أول شىء يستهوى نفسه . فلِمَ لم تتحرك نفسه لوصف امرأة حسناء ، مع أن عينه كانت تقع على النساء كثيرًا فيما يرتاد من المنتديات والملاهى والمراقص ؟[٥٦] لم يدع حافظ للجمال الأنثوى صورًا فى شعره ، و لم يصف شيئًا من أشواق الرجل على نحو ما فعل شعراء عصره والشعراء على مر العصور .

ليس البحث فى هذا الجانب من شخصية الشاعر فضولاً من القول ، لأن ما نرجّحه من فقدانه الإحساس بالمرأة والرغبة فيها ، كان سببًا فى اختفاء ملامحها تمامًا من شعره وفى عدم وُلوجه باب الغزل . وعلينا أن نحمل بعض قوله على هذا العجز ، كقوله فى مستهل قصيدة يمدح بها الإمام محمد عبده[٥٧] :

بلغتك لم أنسب و لم أتغزّلِ ولمّا أقف بين الهوى والتذلُّلِ

فلم يكن باستطاعته المضىّ فى الغزل لو بدأه ، لأن ملامح المرأة لا تتراءى بوضوح لعينى خياله ، ولو سنحت لهما فإنها لا تثبت حتى يتقن عرضها . وهل كانت ملامح ليلى التى وصف شوقى فى روايته، وأشواق المجنون التى أسعر بها بيداء نجد فوق سعيرها ، هل كان هذا كله إلا وثبة من وثبات الخيال استطاع شوقى أن يحط بها على الكثير من صور الحسن ومعانى الهيام والحب ، بفضل ما يغذو نفسه من إحساس قوى بالمرأة ، ومن تأصّل قديمٍ لغريزة الحب فى صدره ؟!

وما أصدق حافظًا مع نفسه حين يقول[٥٨] :

* وبلّغا الغيد عنى سلْوةَ الغيدِ*

فإن هذا القول يمثل حقًّا مذهبه نحو المرأة فى حياته وشعره . فقلبه لا يخفق لامرأة ، وخياله لا يكاد يحط على شىء من ملامحها . وهو نفسه يؤكد إحساسه هذا فى غير موضع من شعره ، فيقول فى طوْر نضجه واكتماله[٥٩] :

عدمتُ يراعتى إن كان ما بى هوىً بين الضلوع له ضرامُ
وما أنا والغرام، وشاب رأسى وغال شبابى الخطبُ الجسامُ

كما يقول[٦٠] :

فـــما أنا واقف برســـوم دار أســـائلها ولا كَلِفٌ بـرُودِ

وليس انصراف حافظ عن ذكر المرأة خُطّة منه ، وإنمـا هـو فـن لا يتقنه وإحساس لم يكن يخالجه .

بعد هذه القرائن مجتمعـة ، أستطيع الجزم بأن اختفاء المرأة من حياة حافظ وشعره، لم يكن للأسباب التى ذكرها أحمد محفوظ ، ولا لأن ضيقه بالحياة وسعيه وراء الرزق كانا يملآن مجال تفكيره ووجدانه كما يذهب الدكتور عبد الحميد سند الجندى[٦١]، وإنما بسبب ما قد يكون قد مُنِى به من فتور فى ميله الغريزى للأنثى .

رابعا : علاقته بالإمام محمد عبده وأحمد شوقى :

لا ينبغى لدارس يتحدث عن حافظ أن يُغفل هذا الجانب الهام فى حياته ، فللرجلين فى نفسه تأثير شديد وإن كان مختلفًا ، يجعلنا نفرد لعلاقته بهما حديثًا خاصًا.

علاقته بالإمام محمد عبده :

كان الإمام محمد عبده شخصية متميزة، تحظى بحب العامة واحترام الخاصة . وقد بلغ الرجل هذه المكانة من نفوس الناس بفضل مواقفه الثابتة وآرائه المستنيرة فى الدين والسياسة وقضايا المجتمع المختلفة . وبرغم ما أثاره من خصومات بسبب جرأته وفكره المتجدد ، كان خصومه يخشونه ويكبرون قدره . وكان محمد عبده امتدادًا طبيًا لـ(جمال الدين الأفغانى) ، إمامه ومثله الأعلى ، فى تحرر الرأى ورباطة الجأش ، والتصدى لكل مظاهر الزيف .

بدأت صلة حافظ بالإمام فى حلقات الدرس التى كان الإمام يعقدها بالأزهر

عصر كل يوم ، يلقى فيها دروسًا فى الفقه والتفسير والفلسفة والبلاغة والتاريخ... إلخ، وكان كثير من رجال مصر وشبابها المستنيرين ، مثل سعد زغلول وقاسم أمين ، يختلفون إلى هذه الحلقات ، يفيدون مما يُطرح فيها من موضوعات بأسلوب جديد يخالف ما اعتاده الناس آنذاك لدى علماء العصر . وكان حافظ يوم بدأ يتردد على محاضرات الإمام ضابطًا بالجيش ، وكان حريصًا على متابعة هذه المحاضرات حتى صار وجهًا أليفًا لدى الإمام ، فأدناه منه ، ثم دعاه إلى داره فى (عين شمس) ، فاتخذت علاقتهما بذلك طابعًا خاصًا(٦٢).

ويسافر حافظ إلى السودان ، وتضيق نفسه بما يلقى من سوء معاملة الإنجليز ، ومن قسوة الحياة هناك، فيهيب بالإمام أن يسعى فى إرجاعه إلى مصر قبل أن تزهق روحه(٦٣) :

يـا مَن تيمّـنت الفُـتْيا بطلعتهِ ... أَدرك فتاك فقدضاقت به الحالُ

ويكتب إليه رسالة يصف فيها نثرًا وشعرًا ما يعانيه ، ويستنجزه وعده بالسعى من أجل إعادته : " أناديه نداء الأخيذة فى عمّوريّة شجاع الدولة العباسية ، وأمدّ صوتى بذكر إحسانه مد المؤذن صوته فى أذانه ؛ وأعتمد عليه فى البعد والقرب ، اعتماد الملاّح على نجمه القطب

وقال أصيحابي وقد هالنى النّوى ... وهالهم أمرى : متى أنت قافِلُ ؟

فقلت : إذا شـاء الإمام فأوبتى ... قريبٌ، وربعى بالسعادة آهِلُ

وها أنا متماسك حتى تنحسر هذه الغمرة وينطوى أجل تلك الفترة ، وينظر لى سيدى نظرة ترفعنى من ذات الصدع إلى ذات الرجع ، وتردّنى إلى وكرى الذى فيه درجت ، ردّ الشمس قطرة المزن إلى أصلها ، ورد الأمانات إلى أهلها..."(٦٤).

وكان يحلو لحافظ أن يلقب نفسه بـ(فتى الإمام) ، مقتبسًا هذا اللقب لنفسه من قوله تعالى فى سورة الكهف : ﴿وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا﴾ (٦٥)، فهو يشبه نفسه من الإمام بيوشع بن نون الذى رافق موسى

عليه السلام يهتدى بهديه ويستنير بعلمه . ونـراه يكـرر هـذا اللقـب مؤكـدًا تواضعـه ومعبرًا عما يحس من فضل الرجل عليه . فإذا لم يكن من الإمام كيوشع مـن موسـى ، كان منه كموسى من الخضر عليهما السلام[٦٦] :

وكنتُ كما كان(ابن عمران)ناشئًا وكان كمن فى(سورة الكهف)يوصَفُ

كأن فـــؤادى إبرة قد تمغطستْ بحبك أنّى حُرِّفَـــتْ عنكَ تَعطِـــفُ

وبعد عودة حافظ من السودان لزم الإمام خمس سنوات حتـى وفاته ، لا يكـاد يفارقه فى مجلس أو سفر . فهو معه أينما سار وأينما حل ، يتفيّأ ظلّه وينعم مـن رِفـده بما يكفى لحياة كريمة[٦٧].

ويشير أحمد محفوظ إلى جفوة حدثت بين الرجلين . لكن الشـاعر –وقـد كـان السبب فيها– سرعان ما يعود إلى الإمام معتذرًا بأجمل قول[٦٨] :

لقد بتُّ محســودًا عليك لأننى فتاك، وهـل غيرُ المنعَّم يُحسَدُ ؟!

فلا تُبلغ الحسّـاد منى شمـــاتةً ففعلك محمودٌ ، وأنت مُحمَّـدُ

ولا يفتأ الشاعر يذكر ما هو فيه من نعمة بقربه من الإمام ، تجلب عليه حسد كثـيرين ممن ينفسون عليه هذه المكانة[٦٩] :

أيهـذا الإمام أكثـرت حسَّـــا دى فباتت نفوسهم فى التهابِ

أبصروا موقـعى فعـزَّ عليهـم منك قربى ومن عُلاك انتسابى

ويذكر لنا حافظ فى هذه القصيدة ، سعْى بعض الحاسدين للتفريق بينه وبـين الإمـام ، لعل هذا يُذهبُ ما فى نفوسهم من غيظ :

أجمعـوا أمرهـم عشـــاء وباتـوا يُسمعون الـورى طنين الذبابِ

ونسُـوا ربَّـــهم وقـالوا ضمّـنا بعده عن رحـاب ذاك الجنابِ

لم يكن حافظ ينى فى امتداح الإمام بما كان أهلاً له . فنراه يمتدحه بالتقى والعلم، وبما يبذله من جهود لإعلاء راية الدين . فإذا وَلِىَ أمر الإفتاء نهض يقول له[٧٠] :

لئن ظــفر الإفتاء منك بفاضلٍ   لقد ظفر الإسلام منك بأفضـلِ

فماحلَّ عقْد المشكلاتِ بحكمةٍ   سواك ولا أربى على كلِّ حُوَّلِ

ويشبهه وقد حلَّ بدار الإفتاء بـ(الفاروق) عمـر بـن الخطـاب ، تقـيً وحكمـة وعـدلاً وتواضعًا ، ثـم يصوِّر الأثـر الطيـب لتولّيـه هـذا المنصـب الهـام فـى حيـاة المسـلمين ، فيقول[٧١]:

إنى لأبصرُ فــى أثـناء بردته   نورًا به تهتدى للحق ضُــلاّلُ

رأيـت فـيها بساطًا جلَّ ناسجهُ   عليه(فاروقُ)هذا الوقت يَختالُ

بمشـية بـين صفىٍّ حكمةٍ وتُقىً   يُحبُّها اللـه، لا تـيهٌ ولا خــالُ

تبسَّـم المصطفى فى قبره جَـذلاً   لما سـموت إليها وهى مِعطـالُ

ويتعرّض الإمام لمكيدة تنال من سمعته، فيهب حافظ منافحًا عنـه ومنـدّدًا بعصبـة الشر التى سعت للنيل منه بنشر صور مزيفة تزرى بقدره[٧٢] :

إن صــوّروك فإنما قد صـوّروا   تاج الفخار ومطلِـع الأنــوارِ

أو نقّــصوك فإنما قد نقّصـــوا   دين النبِّى محمــدِ المختــارِ

سخروا من الفضل الذى أوتيتَه   واللـه يسخـر منهم فى النــارِ

لا تـجزعنَّ فلست أوّل ماجـدٍ   كذبت عليه صحائفُ الفُجّــارِ

فلما توفى الإمام محمد عبده ، بكى الشاعر كثيرًا الركن الذى كـان يـأوى إليـه ويحتمى به . ولم يترك يوم رثاه شيئًا من مناقبه إلا ذكره ، ووصف فجيعة الإسلام فيـه فبالغ فى الوصف . لكن يهمنا من شعره فى هــذا المقـام ، مـا أشـار فيـه إلى خسـارته الشخصية ، وهو قوله[٧٣] :

بكيــنا على فرْد وإن بكاءنــــا   على أنفــس للّـه منقــطعاتِ

تعهّدها فضل الإمـــام وحاطـها   بإحسانه والدهـرُ غيرُ مواتـــى

فيا منزلاً فى(عين شمس) أظلّنى   وأرغم حسّادى وغـم عِداتـى

عليك سلام اللّـه مالكَ موحشًا   عَبوس المغانى مقفرَ العرصـاتِ

وحافظ أول هذه الأنفس التى كان الإمام يتعهدها برعايته ورِفده . وكانت ظروفه آنذاك شديدة الحرج لتعطله عن العمل .

وبقى جرح الإمام بصدر (فتاه)، لا يكاد يهدأ حتى يعاوده ما يهيجه ويدميه. فكلما وقف يشيّع راحلاً جديدًا، تمثّل شخص الإمام فجعل يبكيه ويتحسّر على أيامه، ولم تستطع السنون أن تأسو جرحه فيه كما تأسو جراح الآخرين . فها هو يرثى قاسم أمين فيقول له(٧٤) :

قل للإمام إذا التقيت بـه ... فى الجنتين بأكرم النُّزُلِ :
إن الحقيقة أصبحت هدفًا ... للراكبين مراكبَ الزلَلِ
لله آثارٌ لكم خلدتْ ... صاح الزوال بها فلم تزُلِ
لله أيامٌ لكم درجتْ ... طالت عوارفها ولم تَطُلِ
نعم الظلالُ لو انّها بقيتْ ... أو أنَّ ظلاً غيرُ منتقلِ

وبعد وفاة الإمام بتسع سنوات، يرثى جورجى زيدان ، فلا ينسى أن يقول(٧٥) :

أفى كل يوم يبضَع الحزنُ بَضعةً ... من القلبِ إنى قد فقدت تجَلدى
كفانى ما لُقّيتُ من لوعة الأسى ... وما نابنى يوم (الإمام) كفانى

ثم نراه بعد انقضاء سبعة عشر عامًا على رحيله ، يطرى أياديه ويترحّم عليه ، ويصف الفراغ الذى خلّفه ولا يجد من يعمُره بمثل علمه وحكمته(٧٦):

قد مضت عشرٌ وسبعٌ والنُّهى ... فى ذُبول والأمانى فى نضوبِ
نرقب الأفق فلا يبدو بـه ... لامعٌ من نور هادٍ مستثيبِ
وننادى كلَّ مأمولٍ وما ... غير أصداء المنادى من مجيبِ
أجدب العلم وأمسى بعدهُ ... رائد العرفان فى واد جديبِ

هذا هو وفاء حافظ إبراهيم ، يبدو أمام القارئ صفحة مشرقة فى سجل العلاقات الإنسانية . ولم يكن تقادم عهده مع (الإمام) ، أو تحسّن حاله مع كثرة معارفه وخلانه ، لينسيه ما نال من عوارفه .

علاقته بشوقى :

حافظ وشوقى ، اسمان ارتبطا فى أفئدة الناس وعقولهم . فإذا ذكرنا أحدهما تبادر إلى أذهاننا الآخر وتراءى لنا شخصه . كانا صِنوين من حيث اهتمام الناس بهما، وإنْ لم يكونا كذلك فى حياتهما ، فقد فرّقت بينهما طباعهما وظروف عيشهما ، حتى كأنهما فيما يعيشان ويسلكان على طرفيْ نقيض .

قضى شوقى صباه وشبابه منعّمًا ، مطمئن النفس ، لا يتهدده فقر أو جوع . واختلف إلى معاهد العلم فى الداخل والخارج ، فحصّل من ذلك زادًا وفيرًا بوّأه من القصر الحاكم مكانة مرموقة ,كان يغبطه عليها كثير من سراة مصر ووجهائها . ويكفى شوقى ما حظى به من مودّة ساكنى هذا القصر وحدَبهم صغيرًا وكبيرًا ، حتى أن قارئ سيرته يحسب أنه كان معدودًا فى أهل هذا القصر ، يجرى فى عروقه من الدم ما يجرى في فروع الشجرة العلَويّة .

أما حافظ فقد دميت نفسه بأشواك الحياة ، وجرّب من غُصصها ما جعله -كما سنرى فى فصل تالٍ- يؤثر الموت خلاصًا له مما يكابده . وكأنى بحافظ قد أراد مقابلة ماضيه البائس بنشأة شوقى المنعّمة ، يوم وقف فى مهرجان تكريمه يقول له(٧٧):

نمتك ظِـلالٌ وارِفاتٌ وأنعمٌ ولـيّن عيشٍ فى مصيف ومَرْبعِ

ومَنْ كان فى بيت الملوك ثواؤهُ يُنشّأْ على النعمى ويمرحْ ويرتعِ

كان جيلهما يضمّ شعراء آخرين ، لكنّ ما بلغاه من ذيوع الصيت ، أخمل غيرهما من الشعراء المجيدين ، وجعل صدارة الشعر وقفًا عليهما . وكما احتكر (زيد) و(عمرو) دروس النحو القديمة ، وارتبطا فيها ، ارتبط حافظ وشوقى فى مجالس الأدب وعقول طلاب العلم . فإذا طلع أحدهما على الناس بقصيدة فى إحدى المناسبات ، انتظروا أن ينشدهم الآخر دون إبطاء فى المناسبة نفسها . فإن لم يحدث، تساءلوا ، واستنكروا ، وراحوا يفسّرون ويذهبون فى تفسيرهم كل مذهب . وكأنه

صار لزامًا على الشاعرين أن يجتمعا فى أحداث الأمة ومناسباتها مثلما اجتمعا فى صدور الناس واهتمامهم . ولعل الشاعرين أيضًا كانا حريصين على ذلك ، إرضاءً لحاجة الناس ودفعًا لمظنة العجز . يذكر أحمد محفوظ أن حافظًا لم يكتب قصيدته فى رثاء (تولستوى) إلا لأن شوقى رثاه ، و لم يكن حافظ يعرف من أمره شيئًا . فقد رثاه حبًا فى المنافسة(٧٨).

وما أكثر ما جمع الدارسون فى مؤلفاتهم بين هذين الشاعرين ، أو أفردوا لهما من الأبحاث . ساروا فى ذلك على خطة الدكتور طه حسين فى كتابه الشهير (ذكرى الشاعرين : حافظ وشوقى) ، ورراحوا يقارنون بين حياة الرجلين وإبداعهما .

ويذكر محققو ديوان حافظ ، أن طلاب الجامعة كانوا فى حياة الشاعرين يتوزعون إلى فريقين فحسب ، فريق يتعصب لحافظ ويفضله على شوقى ، وفريق ينتصر لشوقى ويرجّح كفته . ويقولون : " كنّا نلاحظ أن من فضّل حافظًا كان يفضله لأن شعره غذاء قلبه وغذاء وطنيته ، ومن فضّل شوقى فضلّه لفنّه وخياله . فشبيبة الوطنية إمامهم حافظ ، وشبيبة الفن إمامهم شوقى "(٧٩).

وفى هذا القول جانب من الصحة ، وهو تفوق شوقي على حافظ فيما كان يحطّ عليه بخياله من بديع الصور . أما ضعف وطنية شوقى ، فتهمة ألصقت به وهو منها بَراء . لم يتسبب فى هذه التهمة -كما يتضح لكل دارس محقق- سوى قرْب شوقى من القصر وتقلّبه فى نعمائه ، لا يكاد يواجه شيئًا من وعثاء الحياة إلا ما كان من أمر نفيه . استغل بعض النقاد -ومعظمهم خصوم شوقي- هذه الصلة ، فبالغوا فى وصف تأثيرها السلبى على الشاعر ، وجعلوها حائلاً بينه وبين الإحساس بمعاناة الأمة . ومن ثم ، فإن حظ شوقى من الوطنية - في نظرهم - قليل ، لا يرقى إلى حظ حافظ ، الفقير المعدم الذى ينتمي إلى بسطاء الشعب ، وكان يجالسهم على المقاهى ويخالطهم فى الشوارع والأسواق . وكأن الوطنية فى نظر هؤلاء إحساس مقصور على كلٍّ من عضّه الفقر بنابه ، وزاحم بمنكبيه جموع الفقراء . لاشك فى أن هذا

معيار خاطئ ، لأن الوطنية غيْرةٌ وإحساس ينشأ بصدر الغنى كما ينشأ بصدر الفقير . وكثير من زعماء الحركة الوطنية وقادة النضال كانوا من وجهاء مصر وسَراتها . والشعور الوطني ـ كغيره من أنواع الشعور ـ قد يظل حبيسًا بصدر صاحبه فلا نعلم من أمره شيئًا ، وقد يعبّر عن نفسه فى فعل أو قول ، فنستدل بذلك عليه . فإذا كان هذا الأمر الثانى علامة (الوطنية)، فشعر شوقى ملىء بحماسة وطنية يعز وجودها في شعر حافظ. ففى شعر حافظ من المطامنة للإنجليز ما لا نقع عليه فى شعر شوقى، وما تربأ نفس شوقى عنه . وهذا موضوع لا نعالجه تفصيلاً فى هذا المقام ، ونرجئه لفصلٍ تالٍ .

يُبدى حافظ فى شعره ودًّا كثيرًا لشوقى وإعجابًا زائدًا بشعره ، ولا يكاد يترك مناسبة لإبداء هذا الشعور إلا اغتنمها . فنراه يحيّيه يوم توجه لإلقاء كلمة مصر بمؤتمر المستشرقين ، قائلاً له[٨٠] :

يا شـاعر الشرق اتـئدْ	مـاذا تحـاول بعـد ذاكْ ؟
هـذى النـجوم نظمتهـا	درر القريض ومـا كفـاكْ
والبـدر قـد علّـمتـهُ	أدب المـشول إذا رآكْ
وسـموت فى أفـق السعو	د فكدت تعـثر بالسِّـماكْ

كما نسمعه يقول له فى مناسبة الإنعام عليه برتبة علمية[٨١] :

إن هنّـأوك بـها فلستُ مهنّـأً	إنّى عهدتـك قبلهـا محسـودا
قـد كان قدرك لا يُحَدّ نباهة	وسعادةً فـغـدا بها محـدودا

وحين نُفى شوقى إلى أسبانيا ، لم يتخلَّ حافظ عنه كما تخلّى آخرون ، وكانت بينهما رسائل من نثر وشعر تنم عما يكون بين الصديقين من مودة خالصة . فإذا كتب شوقى إلى حافظ يبثه أحزانه وحنينه للوطن[٨٢] :

يا ساكنى مصر إنّا لانزال على ... عهد الوفاء –وإن غبنا مقيمينا
هلاّ بعثتم لـــنا من ماء نهركمُ ... شيئًا نبل به أحشـــاء صادينــا
كلُّ الـمناهِـــلِ بعد النيل آسنةٌ ... مـــا أبعد النيل إلاّ عن أمانينــا

رد عليه حافظ بقول حَسَن يخفف من لواعج نفسه ، فقال له[٨٣] :

عجـــبتُ للنيل يدرى أن بلبلهُ ... صـــادٍ ويسقى ربـا مـصر ويسقينا
وا لله ما طاب للأصحاب موردهُ ... ولا ارتضَوا بعدكم من عيشهم لينا
لـــم تنأ عنه وإن فارقت شاطئهُ ... وقـــد نـــأينـــا، وإن كنّا مـقيـمينا

ويوم علم حافظ بقرب عودة شوقى من منفاه ، أعدّ قصيــدة ليستقبله بهـا يـوم قدومه . لكن هاجسًا تمكن منه وجعله يعجّل بنشرها ، مخافـة أن يوافيـه أجلـه قبـل أن يشهد ذلكِ اليوم . فى هذه القصيدة الطويلة رحّب بعـودة شـوقى وأثنـى علـى شعره وأعلى منزلته ، ثم راح يهنّئ دار شوقى بأوبته ، متمنيًا أن تزدان بأعراس الأدب التى أوقفتها ظروف الحرب وغيبةُ رب الدار[٨٤] :

يا كـرْمة (المطرية) ابتهجى بـهِ ... واســـتقبلى الظمآن من أخدانِهِ
مُدّى الظلالَ على الوفود وجددى ... عهدًا طواه الدهر فى بســـتانِــهِ
كــــم مجلس للهو فيه شهـدتهُ ... فسكرتُ من ديوانِهِ ودنانِـــــهِ
غنّـــى مغنّيه فهاج غـــــناؤهُ ... شجو الحمام على ذوائب بانِـــهِ
فالحمد للـه الذى قـــــد ردّهُ ... مـــن بعد غربته إلى أوطانِـــــهِ

ويلتقى الشاعران فى مناسبات وطنية واجتماعية كثيرة ، فلا يفوت حافظًا فيمـا يُلقى من شعر أن يشيد بشوقى ويمتدح مكانته العالية . فإذا كــان يـوم تكريـم شـوقى بدار الأوبرا سنة ١٩٢٧م ، وقف حافظ على رأس الشعراء يُلقى مدحته الطويلة التـى استهلها بقوله[٨٥] :

بلابل وادى النيل بالمشرق اسجعي ... بشـــعر أمير الدولتين ورجّـعى
أعيــدى على الأسماع ما غرّدت بهِ ... يـراعةُ شوقى فى ابتداء ومقطعِ

والقصيدة عبارة عن عرض مختصر لحياة شوقى وبعض روائعه الشعرية ، أعقبـه حـافظ

بمبايعته (شوقى) أميرًا للشعراء :

أمـــير القـوافى قد أتيتُ مـبايعًا   وهذى وفود الشرق قد بايعت معىَ

كان حافظ يسمع ما يتناقله الناس من أمر تفوق شـوقى عليـه بقدرتـه البيانيـة العاليـة، وأنه لا يقدر على مجاراته فيما يُهيَّأُ له من ضروب القول . وكان يحس فى داخله أيضًا بتفوق شوقى فنيًا عليه ، فضلاً عن تفوقه اجتماعيًا لقربه من سدّة الحكم . فاجتمع فى صدر حافظ إحساسه تجاه شوقى بضعف ملكته إلى إحساسه برقة حاله . وكـان مـن جرّاء ذلك ، أن وجدناه يُبدى شيئًا من التضاؤل كلمـا وقـف إلى جـانب شـوقى فـى مناسبة ما ، وأن رأيناه يقـر -متواضعًـا- بفقـر ملكتـه وضعـف صنعتـه إزاء صاحبـه ، مسلّمًا له بالتقدّم عليه . فنسمعه يقول أمام جماعة من كبار العلماء والأدباء ، اجتمعوا على أن يجعلوا للشعر جوائز من أنواط مختلفة تمنح للشعراء بحسب إجادتهم[٨٦] :

قل للأُلى جعلوا للشعـر جائزةً :   فيم الخلافُ ؟ألَم يرشدكُمُ اللهُ ؟

إنى فـتحتُ لها صدرًا تليق بهِ   إن لم تُحلُّوه فـالرحمن حـــلاّهُ

لم أخشَ من أحـد في الشعـر يسبقني

إلا فتىً مـا لــه فــي السبْق إلاّهُ

ذاك الذى حكَمتْ فينا يراعتهُ   وأكرم اللـه و(العباس) مثـواهُ

لم يكن أمام حـافظ بعـد أن رأى أنـه حقيـق بـالتكريم ، إلاّ أن يستدرك ويقـرّ بسـبق شوقى .

ولّما صاغ شوقى قصيدة يرثى بها (تولستوى) ، راح حافظ ينسـج علـى منوالهـا مقرًا من أول بيت بسبق شوقى ورجحان كفته[٨٧] :

رثاك أمير الشعرفي الشرق وانبرى   لمدحك من كُتّاب مصرَ كبـيرُ

ولستُ أبالى حـين أرثيك بعدهُ   إذا قـيل عنى قد رثـاهُ صغـيرُ

لا يجد حافظ غضاضة فى أن يقول ذلك لشوقى ، كأنما هو حق له يؤدّيه ، وكأنما لا

يعيبه هو وغيره من الشعراء ، أن يُقرّوا أمام الناس بهذا الحق ، وأن يعلنوا قِصَر قامتهم إزاءه .

وكان حافظ يُبدى هذا الإحساس تجاه شوقى منذ مرحلة مبكرة فى علاقتهما ، وقد بلغ تواضعه آنذاك إلى حد أن تخذ شعر شوقى نموذجًا يسعى إلى بلوغه ويصوغ خواطره على مثاله . فهو لا يتردد فى أن يقول بين يدى الخديوى عباس[٨٨] :

إلى سُدَّة العباس وجّهتُ مِدحتى   بتهنئة (شوقية) النسج معطارِ

ولم يكن حديث حافظ مراعاةً لموقع شوقى من القصر فحسب، فقد تكرر كثيرًا على لسان حافظ بعد أن فقد شوقى مكانه ، وأصبح لا يقدر على مكيدة ولا تُخشى له بادرة . وهذا يؤكد أن حافظًا كان موقنًا فى داخله بتفوق ملكة شوقى ، وبخاصة خصوبة خياله . وفى قصيدته التى أعدها بمناسبة عودة شوقى من منفاه ، يصرح بذلك فيقول[٨٩] :

قل للذى قد قام يشأو أحمدًا   خَلِّ القريض فلستَ من فرسانِهِ
هذا امرؤ قد جاء قبل أوانهِ   إن لم يكن قد جاء بعد أوانِهِ
تَـتخِذَ الخيالَ له بُراقًا فاعتلى   فوق السُّها ، يستنّ فى طيرانِهِ

وهذه حقيقة، فشوقى يأتى بشعره من وراء عينيه وسائر حواسه ، التى كانت تشبه المعمل الكيميائى ، تدخله أفكار الشاعر وخواطره ، فتخرج منه صورًا أخّاذة تتراءى للقارئ وتخاطب أذنيه ، حتى يهم بلمسها لقوة تجسيدها . أما حافظ فيرد معظم معانيه وخواطره عاريًا مجردًا ، يقفوالواحد منها الآخر، فيحس القارئ صنعة شوقى وتفننه فى تشكيل فكره وتلوينه ، ولا يحس هذه الميزة فى كثير من شعر حافظ .

وقوة خيال شوقى ، ميزة يقرُّ بها جميع النقاد له ، ويجعلونها أهم ما يفرق بين الشاعرين . ويرى بعضهم أن حافظًا لو رزق خيال شوقى لجاء عجبًا فى شعره[٩٠].

وتفوق ملكة الخيال عند شوقى ، فضلاً عن ثقافته الواسعة واطلاعه المستمر ،

كل هذا مكّنه أيضًا من إجادة عرض التاريخ بصورة غير مسبوقة ، لا تقتصر ملامحها على رصد الحدث وتسجيله ، وإنما تتجاوز ذلك إلى تأمّله وإخراجه إخراجًا شاعريًا يشد انتباه القارئ ، ويحرك نفسه بإحساس جديد نحو ما يقرأ من موضوعات التاريخ التى يعرفها من قبل ، وكأنما يُلِمُّ بها لأول مرة . وهذا بلا شك صُنْعُ الخيال الشعرى القوى ، الذى ينطلق بقوة من الحقيقة التاريخية والأفكار العامة ، ثم يبتعد عنها ويتجاوزها ، فلا تعدو بالنسبة إليه ، كونها مثيرات فنيّة . وخيال شوقى أيضًا وثقافته هما اللذان هيّآه للإبداع المسرحى ، ولإنشاء هذا الكم الكبير من قصص الحيوان . وقد حاول بعض معاصرى شوقى من أبناء جيله ، أن يفعلوا بعض فعله ، فجاءت محاولاتهم مؤكّدةً ما بينهم وبين الرجل من فروق كفلت له التميّز .

لكن هل كانت علاقة الشاعرين فى حقيقتها على هذا النحو من الود الصافى الذى يصوره شعر حافظ ؟ ألَم يكن حافظ يحس تجاه شوقى ما يحسه المعاصرون من العلماء وأهل الفن من غيْرة تفضى بهم إلى الحسد والموجدة ؟

إن غَيْرة العلماء وأهل الفن ، أمر مؤكّد وقديم قِدَم الإنسان . وهذا الأمر مردّه إلى غريزة الإنسان التى بها كثير من الأَثَرة وحب التميّز . ولئن كان لهذه الغريزة وجه سلبى ، فإن لها وجهًا إيجابيًا ، حين تتحول فى نفس صاحبها إلى طاقة تدفع به إلى العمل والإجادة لإشباع هذه الرغبة فى نفسه .

فى (ليالي سطيح) الذى ألّفه حافظ إبراهيم بين عامي ١٩٠٧م – ١٩٠٨م، وظروفه شديدة السوء ، يُبدى شعورًا قويًا بالحسد نحو شوقى ، وينسب إليه من عيوب الصنعة الشعرية ، ما يجعلنا نحسب أنَّ كلَّ ما سمعناه آنفًا من ثناء له عليه ، صدر عن شخص آخر غير حافظ إبراهيم مؤلف (ليالى سطيح) .

حاول حافظ فى كتابه هذا أن يبدو أمام القارئ موضوعيًا منصفًا فى نقده شعر شوقى ، فنراه يذكر مزاياه ثم يقابلها بعيوبه . لكنه يجتهد فى إحصاء العيوب ، فإذا ما أثبته له من حسنات لا يكاد يبلغ ربع ما أحصاه عليه من سيئات . ولم يكتف بذلك ،

فنراه يحمل على الصحف التى تهتم كثيرًا به وتمكّن له فى نفوس النـاس بمـا تنشـر مـن تقريظ لشعره .

وقد اتخذ حافظ فى الكشف عن إحساسه هذا أسلوب الحوار السائد فى (ليـالى سطيح) ، فنسمعه يحاور شاعرًا بائسًا فى مثل حاله من التعاسة وسوء الحـظ ، ويُنطقـه بما ازدحم به صدره هو من غيظ وحقد . يبدأ الحوار بشكوى هذا الشاعر التعس إلى حافظ من إعراض الصحف عنـه رغـم إجادتـه فنـه ، ومـن عـدم اهتمامهـا بغـير ذوى الحظوة من مثل شوقى ، فيقول : " نحن بحمد الله فى بلد لا تنفق فيه سلعة الأديب ما لم يكن أديبها حظيظًا عند تلك الصحف . حتى إذا ظهر أثره فى الناس قامت تقرّظـه بصنوف المديح والإطراء... ألم تر إليها كيف كانت تقول يوم كانت تقرّظ الشوقيات ، وقد أسندت إلى صاحبها من الألقاب ما تعجز صحف الآستانة عن إسناد بعضـه إلى جلالة المتبوع الأعظم... بربك ماذا رأيت فيها من الآيات وما جـاء بـه صاحبهـا مـن المعجزات ، اللهم إلا ما يتباصر به علينا من تلك المعانى الغربيـة التـى مـا سـكنت فـى مغنى عربى إلاّ وذهبت بروائه "[٩١].

فردّ حافظ عليه وبدا فـى رده كأنمـا يـذود عـن شـوقى . ولنتـأمل مـا جـاء فـى جوابه:

" قلت حسبُك لا تغضض من شاعر الشرق ولا تنتقـض مـن أدبـه ، فتـالله إنـه لظريف الوزن لطيف القافية ، خاطره طوع لسانه ، وبيانه أسـير بنانـه ، كأنمـا يتنـاول الشعر من كمّه لسهولة متناوله عليه ، إلاّ أنه مكثار ، وقل أن يسلم المكثار من العثار، فشعره كما قال الأصمعى فى شعر أبى العتاهيـة ، كسـاحة الملـوك يقـع فيهـا الخـزف والذهب "[٩٢].

فرد عليه الشاعر البائس قائلاً :

" إنى لا أرى رأيك فيه، وفى مصر مَنْ لو انقطع لصناعة الشعر لوسع الناس

إحسانه فيه ، ولكن قد ثنى الله عِنان الكثيرين عنه ، إمّا لشرفٍ يخشى عليه أن يغض منه ، وإما لاشتغال بشئون للحياة لا تقوم الحياة إلاّ بها . وصاحبكم بفضل ما هو فيه من السعة فارغ للشعر غير مشغول بغيره ، فالعجب أنه لا يجيد ، وأعجب منه أن يقال إنه مكثار ، وقصائده في العام معدودة ، وقوافيها مقدّرة محدودة "[٩٣].

ويتضح من الحوار الذى شغل خمس صفحات من (ليالى سطيح) إصرار حافظ على تجريد شوقى من كل فضل ، حتى وهو يوهمنا بأنه يدافع عنه ضد محاوره ، إذ نراه ينتصر له فيذكر بعض مزاياه ، ثم ينقلب عليه -وهو يدافع عنه- فيكشف عن بعض ما كان خافيًا من عيوبه ، يضيفه إلى ما جاء على لسان محاوره .

وخلاصة هذا الحوار الطويل ، أن سيئات شوقى فى نظر حافظ أكثر من حسناته ، وأن ما يبدو فى شعره من حسنات ليس له فضل فيه ، وإنما لحياته المنعّمة ، التى ساعدته على الانقطاع للشعر . "وفى مصر مَن لو انقطع لصناعة الشعر، لوسع الناس إحسانه "[٩٤]. وهكذا يجرد حافظ شوقيًا من كل فضل فى ذيوع شهرته وارتقاء صنعته .

هذا شعور حافظ تجاه شوقى سنة ١٩٠٨م ، وقد صرّح به فى مرحلة مبكرة من عمره الفنى ، ربما قبل أن تتوطد علاقته بشوقى . وقد أتبع آراءه السابقة بعد ذلك بالثناء الحسن ، يتوّج به رأس صاحبه فى كل مناسبة ، وكأنه يعتذر إليه عما بدر منه.

لكنْ ، يلفت نظرنا أمر غريب فى قصيدة حافظ الطويلة التى ألقاها أمام وفود الأمة العربية التى احتشدت لتكريم شوقى سنة ١٩٢٧م . وهذا الأمر ينم عن بقايا من الغيرة والحسد ، كانت ماتزال عالقة ساكنة بصدر شاعر النيل ، ثم جاءت هذه المناسبة لتنبشها وتستثيرها . فمن يقرأ الأبيات الثلاثة التالية يلمس هذا الشعور الدفين، الذى اجتهد حافظ فى إخفائه ، يقول[٩٥] :

يعيبون شوقى أن يُرَى غير مُنشدٍ   ومـا ذاك عن عىٍّ به أو ترفُّـعِ
وما كان عابا أن يجـىء بمنشـــدٍ   لآيـاتـــــه أو أن يجىء بمُسْمِـعِ
فهذا كليم اللـه قد جـــاء قبله   بهارون،ما يأمره بالوحى يصدَعِ

كان شوقى لسبب ما لا يُلقى شعره فى المحافل . وكان يُنيب من ينهض بذلك عنه. وكان حافظ حسن الإلقاء ، يستميل بجودة إلقائه أفئدة السامعين . يصف أحمد محفوظ إلقاء حافظ بقوله : " كان خطيبًا حلو الإشارة جهورى الصوت ، يعرف مواقع الكلام وإصابة الهدف فى النفوس المنصتة. كان يلهب الحماس وينال التصفيق "(٩٦). ويذكر أن شوقى كان يعهد بإلقاء شعره إلى أناس قد لا يحسّون معانيه ويسيئون إلقاءه ، فتذهب روعته . هذا فضلاً عما فى شعر شوقى من معان دقيقة غامضة تتطلب المعاودة والالتفات الطويل ، فلا تتبين الأنفس جماله حال سماعه . لهذا لم تكن الجماهير تهتز لشعره رغم تفوقه وسموّه ، كما تهتز لشعر حافظ الذى يجمع بين سهولة المعنى وروعة الإلقاء(٩٧).

وهذا ما أكدّه كثير من معاصرى الشاعرين . يقول عبد العزيز البشرى : " ولا أحسب شاعرًا يجيد الإنشاد كما يجيده حافظ . وإن له لصوتًا جهيرًا فخمًا رائع المقاطع ، فإذا هو وقف ينشد الجماهير هزّها هزًّا ، ورفع بالترتيل حظ الكلام درجات على درجات ". ويقول مُطران : " كان حافظ يلقى شعره بأفصح بيان ممكن ، ويضاعف قيمته بحُسن إنشاده ". ويذكر أحمد رامى أن شوقى كان يتفس على حافظ هذه الموهبة التى تنتزع إعجاب الناس وتصفيقهم ، فى جين أنه يعجز عن إلقاء شعره(٩٨). وفى كتابه (شعراء مصر وبيئاتهم) ، يذكر لنا العقاد أنه قال لحافظ مازحًا ذات مرة : " إنك بأن تملأ قوالب الحاكى أحرى منك بطبع صفحات الدواوين "(٩٩) يرى أن جودة إلقاء حافظ تُضفى على شعره رونقًا أكثر مما يحسه قارئه .

وقد استغل حافظ وجود حشد كبير من أعلام الفكر والأدب والسياسة فى مهرجان تكريم شوقى للتنويه بآفة عجزه عن الإلقاء . و لم يكن المقام يسمح بذلك ،

فهو ليس مقام نقد ، وإنما هو مقام تكريم تُذكَر فيه المحامد وتُوارَى النقائص . لكن حافظًا وجدها فرصة لأن يغمز شوقى هذه الغمزة التى تذكّر الحاضرين أو تنبّههم إلى عيب فى شوقى هُم فى شغل شاغل عنه . وهو حين يلفتهم إلى هذا العيب فى شوقى، يلفتهم فى الوقت نفسه إلى ما يقابله من ميزة عنده . ولا يخدعنا دفاع حافظ فى هذه الأبيات عن عجز شوقى ، فقد كان فى حل من ذكره والتطرّق إليه . ودفاعه عن شوقى هنا مثل دفاعه عنه فى (ليالى سطيح) ، الذى كان قد مضى عليه يوم إلقاء هذه القصيدة عشرون عامًا ، وكان يدس خلاله السُّم فى العسل .

ولاشك فى أن سلوك حافظ هذا ضرْب من التعويض ، يعالج عنده نقصًا نفسيًا وإحساسًا بالهضم فى حياته وفنه ، كما يشبع عنده رغبته فى أن يبدو متميّزًا بأى شيء فى هذا الموقف الذى كان يتمناه لنفسه . ولاشك أيضًا فى أن هذا الأمر قد أزعج شوقى ، وكدّر ما كان يحسّه فى هذه المناسبة من صفو نفسه .

ورحل حافظ قبل شوقى بنحو ثلاثة أشهر، فبكاه وهمس لروحه(١٠٠) :

قد كنتُ أوثر أن تقولَ رثائى	يا منصف الموتى من الأحياءِ
لكن سبقتَ وكلُ طُول سلامةٍ	قــدَرٌ وكلُّ مَنية بلقــاءِ

وقد أدى شوقى فى مرثيته هذه شيئًا من حقوق حافظ عليه ، وأسمعه ميّتًا ما كان حافظ يحب سماعه منه حَيًّا :

انظر، فأنت كأمسِ شأنك باذخٌ	فى الشرق واسمك أرفعُ الأسماءِ
ياحافظ الفصحى وحارسَ مجدها	وإمام مَن نجلتْ من البُلَغــاءِ
جددت أسلوب (الوليد) ولفظه	وأتيت للدنيا بسحر (الطائى)

..... إلخ

ولم تمضِ أشهر ثلاثة حتى لحق أمير الشعراء بشاعر النيل فى دار الحق، فخلت محافل الأدب من قيثارتين طالما رفّت أوتارهما فى أفراح الأمة العربية وأتراحها. وبموتهما ، ثاب إلى نفسه من النقاد من نالهما بأذى ، وراح يُبدى الأسف على ما فرّط فى حق الرجلين.

هوامش الفصل الأول :

[١] أحمد محفوظ، حياة حافظ إبراهيم الشاعر الثائر (القاهرة : مؤسسة نصار للتوزيع والنشر - بدون تاريخ) ص٣-٦، أحمد أمين (بالاشتراك)، ديوان حافظ إبراهيم (القاهرة : دار الكتب المصرية، ١٩٣٧م) ص ٦.

[٢] المرجع السابق، ص ٦. والذى لقبه بـ" شاعر النيل " هو الشيخ على يوسف صاحب جريدة المؤيد، ولقبته جريدة "اللواء" صوت الحزب الوطنى أيام مصطفى كامل بـ"شاعر الوطنية" و"شاعر الحزب الوطنى". انظر المرجع السابق، ص ٥٩، ٧٢.

[٣] المرجع السابق، ص ٦ - ٧.

[٤] ديوان حافظ إبراهيم، المقدمة ص٧، حياة حافظ إبراهيم، ص٩.

[٥] ندم حافظ على تفريطه فى التعلم يوم أحيل على الاستيداع ومكث مدة طويلة بلا عمل لعدم حصوله على مؤهل يمكنه من الالتحاق بإحدى الوظائف المدنية. انظر : حافظ إبراهيم، ليالى سطيح (القاهرة : مطبعة محمد محمد مطر - بدون تاريخ) ص ٧٩.

[٦] هدده خاله مرة بالطرد من المنزل فرد عليه :

ثقلت عليك مؤونتى   إنى أراها واهيهْ

فافرح فإنى ذاهب   متوجه فى داهيهْ

ديوان حافظ، المقدمة، ص٨.

[٧] المرجع السابق، ص٨، وحياة حافظ إبراهيم، ص ١٢ - ١٣.

[٨] مقدمة ديوان حافظ إبراهيم، ص١٠، وحياة حافظ إبراهيم، ص ١٨ - ٢٠.

[٩] مقدمة ديوان حافظ إبراهيم، ص ١١.

[١٠] حياة حافظ إبراهيم، ص ٢٣ - ٢٥، ١٥٨ - ١٥٩.

[١١] ليالى سطيح، ص ٧٩ - ٨٠.

[١٢] مقدمة ديوان حافظ إبراهيم، ص ١٢ - ١٤، حياة حافظ إبراهيم، ص ٢٤ - ٢٦.

(١٣)ديوان حافظ إبراهيم، ج١، ص٦.

[١٤] المرجع السابق، ج٢، ص ١٢٥.

[١٥] ليالى سطيح، ص ٧٩.

[١٦] ديوان حافظ إبراهيم، ج١، ص ١٧٨.

[١٧] المرجع السابق، ج٢، ص ١٢١.

[١٨] حياة حافظ إبراهيم، ص ٢٣٨ - ٢٤٣، ومقدمة ديوان حافظ إبراهيم، ص ١٦.

[١٩] حياة حافظ إبراهيم، ص ٢٢٨.

[٢٠] د. طه حسين، حافظ وشوقى (القاهرة : مكتبة الخانجى، ١٩٦٠م) ص ١٩٧.

[٢١] ديوان حافظ إبراهيم، المقدمة ص٢٠.

(٢٢) حافظ وشوقى، ص ١٩٦.

(٢٣) عباس محمود العقاد، شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى (القاهرة: مكتبة نهضة مصر سنة ١٩٦٥م) ص١٧.

(٢٤) حياة حافظ إبراهيم، ص٢٣٠.

(٢٥) انظر المرجع السابق، من ص ٨٠ - ٩٠.

(٢٦) ديوان حافظ إبراهيم، المقدمة ص٨.

(٢٧) المرجع السابق، ص ٩.

(٢٨) ليالى سطيح، ص ٦ - ٧.

(٢٩) المرجع السابق، ص ١٣.

(٣٠) المرجع نفسه، ص ٢٦.

(٣١) ديوان حافظ إبراهيم، المقدمة ص٣٨.

(٣٢) المرجع السابق، ص ١٧.

(٣٣) د. عبد الحميد سند الجندى، حافظ إبراهيم، ط٤ (القاهرة : دار المعارف - بدون تاريخ)، ص ١٨٢.

(٣٤) المرجع السابق، ص ١٨٣.

(٣٥) المرجع نفسه، ص ١٨٦.

(٣٦) إبراهيم عبد القادر المازنى، شعر حافظ (القاهرة - مطبعة البوسفور، ١٩١٥م) ص ٤٢.

(٣٧) عباس محمود العقاد، شوقى فى الميزان، مجلة الهلال - القاهرة عدد أكتوبر سنة ١٩٥٧م.

(٣٨) ديوان حافظ إبراهيم، ج١، ص ١٧٩.

(٣٩) المرجع السابق، ص ١٨٩.

(٤٠) المرجع نفسه، ص ١٩١، وانظر أيضًا ص ١٨٤، ١٨٥، ٢٠٤.

(٤١) المرجع نفسه، ص ٢٠٥.

(٤٢) المرجع نفسه، ص ٢٩٧.

(٤٣) المرجع نفسه، ج٢، ص ١٩٥.

(٤٤) المرجع نفسه، ج١، ص ٨.

(٤٥) المرجع نفسه، المقدمة ص ١٦.

(٤٦) المرجع نفسه، ج١، ص ١٨٩.

(٤٧) المرجع نفسه، ج٢، ص ١١٤.

(٤٨) المرجع نفسه، ج٢، ص ١٦٤.

(٤٩) ليالى سطيح، ص ١١٩.

(٥٠) ديوان حافظ إبراهيم، ج٢، ص١١٨.

(٥١) حافظ وشوقى، ص ١٩٤.

(٥٢) المرجع السابق، ص ٢٠٩.

(٥٣) ديوان حافظ إبراهيم، ج٢، ص ٣٠.

(٥٤) حياة حافظ إبراهيم، ص ٩٣ - ٩٤.

(٥٥) المرجع السابق، ص ١٦٩.

(٥٦) انظر المرجع نفسه من ص ٨١ - ٨٧.

(٥٧) ديوان حافظ إبراهيم، ج١،ص ٤.

(٥٨) المرجع السابق، ج٢، ص ١٣١.

(٥٩) المرجع نفسه، ص ٥٤.

(٦٠) المرجع نفسه، ص ٣١.

(٦١) حافظ إبراهيم، ص ٣٩.

(٦٢) حياة حافظ إبراهيم، ص ١٠٥.

(٦٣) ديوان حافظ إبراهيم، ج١، ص ٦.

(٦٤) المرجع السابق، ج٢، ص ١٢٥.

(٦٥) سورة الكهف، آية ٦٠.

(٦٦) ديوان حافظ إبراهيم، ج١، ص ٢١٠.

(٦٧) حياة حافظ إبراهيم، ص ١٠٨.

(٦٨) ديوان حافظ إبراهيم، ج١، ص ١٩٥.

(٦٩) المرجع السابق، ج١, ص٢٥

(٧٠) المرجع نفسه، ج١, ص٤.

(٧١) المرجع نفسه، ج١, ص٥.

(٧٢) المرجع نفسه، ج١، ص٢٦. ويذكر أحمد محفوظ أن صحيفة اشتهرت بثلب الأعراض والتكسب من ذلك، ظلت بإيعاز من السّراى تشهّر بالإمام وتسيء إليه حتى أنها دسّت عليه صورة مزيفة توهم الناس أنه كان في أوربا يشرب الخمر: حياة حافظ إبراهيم، ص٦٦.

(٧٣) ديوان حافظ إبراهيم، ج٢، ص١٤٨.

(٧٤) المرجع السابق،ج٢, ص ١٦٠.

(٧٥) المرجع نفسه،ج٢, ص ١٨٤.

(٧٦) المرجع نفسه،ج٢, ص ٢٠٥.

(٧٧) المرجع نفسه، ج١، ص ١٢١.

(٧٨) حياة حافظ إبراهيم، ص ١٩٥.

(٧٩) ديوان حافظ إبراهيم،ج١, ص ١٩٥.

(٨٠) المرجع السابق، ج١، ص ٢٠١.

[٨١] المرجع نفسه، ص ٥٠.

[٨٢] أحمد شوقي، الشوقيات، ج٢ (القاهرة : المكتبة التجارية، ١٩٧٠م)، ص ٦٥.

[٨٣] ديوان حافظ إبراهيم، ج١، ص ١٨٦.

[٨٤] المرجع السابق، ص ١٠٢.

[٨٥] المرجع نفسه، ص ١١٩.

[٨٦] المرجع نفسه، ص ٢١٢.

[٨٧] المرجع نفسه، ج٢، ص ١٦٤، وانظر أيضًا ج١، ص ١٠٣.

[٨٨] المرجع نفسه، ج١، ص ١١.

[٨٩] المرجع نفسه، ص ١٠١.

[٩٠] حياة حافظ إبراهيم، ص ١٩٨. وانظر أيضًا حسن كامل الصيرفي، حافظ وشوقي (القاهرة : مطبعة المقتطف والمقطم، ١٩٤٩م) ص٦١.

[٩١] ليالي سطيح، ص ٤٥.

[٩٢] المرجع السابق، ص ٤٥.

[٩٣] المرجع نفسه، ص ٤٦.

[٩٤] انظر الحوار كاملاً في المرجع السابق من ص ٤٥ - ٤٩.

[٩٥] ديوان حافظ إبراهيم، ج١، ص ١٢١.

[٩٦] حياة حافظ إبراهيم، ص ١٨٨.

[٩٧] المرجع السابق، ص ١٩٣.

[٩٨] انظر الأقوال السابقة في : د. عبد الحميد سند، حافظ إبراهيم، ص ٢١٤.

[٩٩] شعراء مصر وبيئاتهم، ص ١٥.

[١٠٠] الشوقيات، ج٣، ص ٢٢.

الفصل الثاني

الشكوى والنقد الاجتماعي في شعره.

الشكوى :

كثرة الشكوى من المظاهر التى تلفت نظر القارئ فى شعر حافظ، ولعلّها أحق الموضوعات بالتقديم عند دراسة هذا الشعر، لأن التعرّض لها وبسط أسبابها، استكمال لما تقدم فى الفصل السابق من حديث عن حياته، وإيضاح لمعالم شخصه. والشكوى التى بدأت مبكرة فى حياة حافظ، يوم وعى وهو صبىّ واقعه المرير، لم تنقض حتى وفاته، إذ ساعد على استمرارها تجدّد الأسباب وتنوّع العلل. فمع كل مرحلة تنقضى من حياته، تختفى علة، لتجدّ أخرى. وقد مرّت بنا فيما ذكرنا من حديث حياته، تلك الأبيات التى جاوب بها خاله يوم هدده بالطرد، والأبيات التى راح فيها وهو فتى يتعجل الموت، بينما أترابه يستقبلون الحياة بنفوس راضية مستبشرة.

هذه النفس التى انفتحت فيها هذه الكوّة المظلمة، لم تجد لمدة طويلة من الظروف الحسنة، ما يُغلق باب كهفها المظلم، وإنما وجدت ما يُغذّى جرثومة الحزن التى تسللت مبكرًا إليها، وظلّت تُفرخ وتُنتج، حتى تحول صاحب هذه النفس إلى شخص شكّاء بكّاء، لا يقدر على حبس الشكوى وإن اختفت أسبابها فى فترة من حياته، تحسنت فيها ظروفه واستقامت أحواله. وهكذا تتحول شكوى حافظ من ظاهرة لها أسبابها، إلى طابع مميِّز لشخصه، ووتر أصيل فى معزفه. ومَنْ يقرأ ما كُتب عن دعابة حافظ وظرفه، وحضور نادرته، وحلو فكاهته، وتشوّف المجالس إليه، لا يكاد يصدّق أن هذه النفس، كانت مرتعًا للحزن، يضرب بجذوره فى أعماقها، وأن هذه اللّهاة التى كانت تضحك الآخرين وتدخل السعادة إلى قلوبهم، هى التى سكبت ما فى ديوانه من عَبَرات. كم بين ظاهر الإنسان وباطنه أحيانًا من تناقض ومفارقة ؟! هذه كانت طبيعة حافظ إبراهيم.

لم يظهر لنا من شكوى الشاعر فى صباه، سوى تلك الأبيات القلائل التى ذكرنا. وأما حياته العسكرية فقد قضى الشطر الأول منها فى مصر، لا يعكّر صفوه شىء.

وأما الشطر الثانى فقد قضاه بالسودان. وبرحيلـه إلى السـودان، انفتـح للشـعر العربى باب واسع من أبواب الشكوى، فقد صارت وظيفته التـى تمنّاهـا نهايةً لشـقائه، أشـد أسباب تعاسته. وما لها لا تكون كذلك، وقد جمعت على نفسه مـرارة الغربـة وسـوء الصحبة، وغلظة أولى الأمر ؟!

ويتحول إحساس حافظ بذلك كله إلى شعر ينفّس به عن صدر حَرِج، فيستريح إلى حين. ثم تتتابع رسـائله إلى الأصدقـاء بمصـر حاملـة هـذا الشـعر الملـىء بـالضجر والتوجّع والحنين إلى سابق العهد[1] :

سلام الله يا عهـد التصابـى عليك وفـتيةِ العهد القديـمِ

أحـنّ لهم ودونـهمُ فـلاةٌ كـأنّ فسيحها صـدرُ الحليـمِ

ويكثر من وصف وعورة الحياة بهذه الفلاة، ثم يـأخذ فـى بيـان تلهفـه علـى الوطـن، وتحسّره لضعف قدرته، وانعدام حيلته :

فـمَنْ لى أن أرى تلك المغانـى ومـا فيها من الحُسْنِ القـديـمِ ؟

فما حظ (ابن داودٍ) ، كحظّى ولا أُوتـيتُ من عِلْـم العليـمِ

ولا أنا مُطلَقٌ كالـفكر أسرى فـأستبق الضـواحِك فى الغيومِ

ولكنّى، مقـيّـدةٌ رحـالـى بقـيْد العُـدْم فى وادى الهمومِ

فلو أنه أُوتى من قدرة سليمان عليه السلام شيئًا، لاستتار بـه الجـن والريـح تحملـه إلى مصر ! ولو أنه حُرّ كسوانح الفكر، لسرى إليها فى الفضاء مخلّفاً وراءه البروق !

وما أحوج المغترب إلى رسالة تأتيه من قِبَل أهله وخلاّنـه، ترطـب حـرَّ أنفاسـه، وتضمّد جراحه، بما فيها من مواساة وحث على الصبر، ومن تعليـل لـه بقـرب العـوْد. لهذا كانت أحزان حافظ تتضاعف لتأخر رسائل الأصدقـاء عليـه، أو لانقطاعهـا عنـه؛ فيندفع معاتبًا، شاكيًا، راجيًا أصدقاءه ألاّ يكونوا عونًا للأيام عليه[2] :

كيف تنسى يا (بابلىّ) غريبًا ؟ بـات بين الظـنون والأوهـامِ

بـات تحت البـلاء حـتى تمنّى لـو يكون المبيت تحت الرغـامِ

وحسبه من البلاء، ما بات يتمنى الموت خلاصًا منه. واستمرت رسائله تتقاطر على الأصدقاء، مصوّرة تعاسته ومعبّرة عن توجّسه الموت غريبًا فى تلك الفلاة، وأن يصير طُعمة للسِّباع[3] :

يا ليت شعرى بعد هذا العامِ

إليكمُ ترمى بى المرامى

أم ينتوينى رائد الحمامِ

فأنطوى فى هذه الآكامِ

وتُولِمُ الضّبعُ على عِظامى

وشكواه من حياته القاسية بالسودان كثيرة، وقد اجتزأنا بشىء منها لضيق المقام. ويكفى بيانًا لضيق نفسه بها وتبرّمه منها، أنه كان يتمنى الموت خلاصًا منها على شدة خوفه منه، وأنه صار يعتقد رأى (المعرّى)، الذى يعدّ الإنجاب جناية الآباء على الأبناء. يعتذر إلى نفسه لأنه ألقى بها فى تلك المفازة المهلكة، فيقول[4] :

رميتُ بها على هذا التبابِ ... وما أوردتُها غير السّرابِ

وما حمّلتُها إلا شقاءً ... تُقاضينى به يوم الحسابِ

جنيتُ عليكِ يا نفسى وقبلى ... عليكِ جنى أبى فدعى عتابى

وانطوت صفحة معاناته فى السودان بعودته محالاً على الاستيداع فى ١٩٠٠/٥/٣م، فانفتحت بطيّها للشكوى من الفاقة صفحة أوسع. فماذا يفعل حافظ لأسرته بأربعة جنيهات هى كل راتبه فى الاستيداع ؟ عاد حافظ من السودان ليظل عاطلاً إحدى عشرة سنة يتردد فيها بين البيت والمقهى حيث الظرفاء، وليختلف إلى مجالس العلماء ودور الوجهاء. زمنٌ طويل قضاه حافظ فى السعى وراء وظيفة تكفل له عيشة كريمة، استعان فيه أناسًا كثيرين. وفى كل جولة من مسعاه، كان صدره يخفق باليأس والرجاء. وعقب كل جولة خاسرة، كانت له مع نفسه جلسة، يتذكر فيها ماضيه، ويتأمل حاضره، ويتوجس من غده. يحاور نفسه مرة بصوت ضميره، ويحاورها أخرى

بصوت مسموع، وفى كلتا الحالتين يشكو حظه العاثر، فيقول[٥] :

سـعيتُ إلى أن كدتُّ أنتعل الدَّما وعُدتُ وما أُعقبتُ إلا التَندّما

ويقول [٦] :

مـاذا أصبتَ من الأسفار والنَّصبِ وطيّك العمرَيين الوخْدوالخببِ ؟!

ولقد أورثه هذا الفشل المتلاحق، وطول زمن البطالـة، إحساسًـا بـأن المقـادر تعاكسه وتأبى أن يكون كالآخرين الذين يفوقهم بفضائله[٧] :

أصـــــاب رفاقىَ القِدْح السُمُعلّى وصادف سهمىَ القِدْحَ المَنيحا

فـلـــو ســـــاق القضاء إلىّ نفعًا لقام أخوه معـترضًا شحيـحًا

ويبلغ تشاؤم حافظ وإحساسه بنكد حظه حدًّا بعيدًا، جعلـه يتصـوّر أن القضـاء والقدر اللذين لا يختلفان أبدًا فى أمر ما، يختلفان بشأنه. فإذا رق القضاء لحاله وقضـى بشيء فى صالحه، اعترض القدر سبيله، وانتقض على صاحبه، إمعانًا فى قهره وتكدير عيشه.

وحافظ فى شكواه سوء حظه، يؤكد لنا أن عدم تحقيقه رغائبه، ليس لتقصير فى السعى، أو فتور فى العزم، وإنما لوقوف المقدار له بكل مرصد، يذود عنه ما ينشد مـن خير[٨] :

لا تُـطعمانـــىَ أنياب الـملام على هـــذا العثارِ فإنى مهبـط العجـبِ

كم هِمتُ فى البيد والآرامُ قائلـةٌ والشمس ترمي أديم الأرضِ باللهبِ

وكم لبستُ الدجىوالتّربُ ناعسةٌ والليل أهدأ من جـأشي لدى النّوبِ

لكننى غير مجـدودٍ ومـا فـــتئتْ يـــد الـمـقادير تثنينى عن الأربِ

ومتى انتهى أمر الإنسان إلى هذا الحد من القنوط الذى يغلق كـل منـافذ الأمـل، نجـده عادة يستدبر الدنيا، ويتحوّل إلى الموت، يتعجلّه لعلّـه يريحـه مـن أسـقام روحـه. لهـذا يتمنى حافظ لو أن أهله وأدوه يوم وُلد، فلا يكابد مرارة العيش[٩] :

وددتُ لـو طرحوا بى يوم جئتهـمُ في مسبح الحوتِ،أوفي مسرح العطبِ

وحافظ الذى انقطع رجاؤه فى الأُولى، لم يقنط من رحمة الله فى الآخرة. وحسبه ما أعد الله فيها من عظيم الثواب لعباده الصابرين. لعلّ هذا ما جعله يستحثّ المنيّة للقائه، كما يستحث المشوق مشوقه(١٠) :

سـلامٌ على الدنيا سلام مودّعٍ رأى في ظلام القبر أُنسًا ومغنمًا
أضرّت به الأولى فهام بأختها فإن ساءت الأخرى فويلاه منهما
فهبّى رياح الموت نُكْبًا وأطفئى سراج حياتى قبل أن يتحطّما

وقصيدة حافظ هذه من أغرب الشعر منحى وتصرّفًا فى باب الشكوى، إذ صدّق الشاعر ما جال بخواطره، وتصوّر أن الموت قد استجاب لضراعته، وأقبل عليه فاتحًا ذراعيه الحانيتين ليضم جسده المرهق وروحه المعذبة. وراح وقد صدّق أوهامه يخاطب أعضاء جسده واحدًا بعد الآخر، يبشرها بقرب الخلاص، ويهيئها لاستقبال هذا المنقذ، الذى سيلمسها بعد قليل بكفه الحانية ويأخذها إلى حيث السكينة والراحة:

فيا قلبُ لاتجزع إذا عضّك الأسى فإنك بعد اليوم لن تتألّما
ويا عينُ قد آن الجمود لمدمعى فلا سيل دمعٍ تسكبين ولا دَما
ويا يَدُ ما كلّفتكِ البسْط مرّةً لِذى مِنّة أولى الجميل وأنعما
فللّه ما أحلاك فى أنمُلِ البلى وإن كنتِ أحلى في الطروس وأكرما
ويا قدمى، ما سرتِ بى لِمَذلّةٍ ولم ترتقى إلاّ إلى العِزّ سُلّما
فلا تُبطئى سيرًا إلى الموت واعلمى بأن كريم القومِ مَن مات مُكْرمًا
... إلخ

لكن حافظا لا يلبث أن يفيق من وسنته التى طالت، ومن حلمه الجميل بقرب الفرج، ليرتدّ إلى واقعه المر، وليتبرّم من جديد بالحياة، ويسخط على كل من أسهم فى إيذائه. ويزداد هذا السخط حدة إذا صبغه الشاعر برؤية أبى العلاء، وعزفه على قيثارته(١١):

لم تلدنا حوّاء إلاّ لنشقى ليتها عاطلٌ من الأولادِ
أسلمتنا إلى صُروف زمانٍ ثم لم توصها بحفظ الودادِ

ومن حوّاء يتحول الشاعر إلى آدم، فهو الأب المنجب، ثم إلى نوح فهو المنقذ من الطوفان، المحافظ على استمرار الحياة فوق الأرض[١٢] :

سليلَ الطين ! كم نلنا شقاءً ... وكم خطّت أناملنا ضريحا
وكم أزرتْ بنا الأيام حتّى ... فدت بالكبش(إسحقَ) الذبيحا
وباعت (يوسُفا) بيْع الموالى ... وألقت فى يد القوم(المسيحا)
ويا (نوحا) جنيتَ على البرايا ... ولم تمنحهمُ الوُدَّ الصّحيحا
علامَ حملتهم فى الفُلك ؟ هَلاّ ... تركتهمُ فكنتَ لهم مُريحا !

ومن عتاب الآباء أو لومهم، يتحول إلى الإنجليز الذين يتصرفون فى أمور البلاد كما شاء لهم الهوى. فيصب شديد غضبه عليهم، فقد آذوه من قبل حينما كان يأتمر فى الجيش بأمرهم، ويؤذونه الآن باعتراض سبيله، يوصدون فى وجهه ما يطرق من أبواب الرزق. وحافظ فيما يسخط به عليهم يتوخّى الحذر، فيلمّح كعادته ولا يصرّح[١٣] :

لحى الله عهد القاسطين الذى به ... تهدّم من بنياننا ما تهدّما
إذاشئتَ أن تلقى السعادةبينهم ... فلا تكُ مصريّا ولا تكُ مسلمًا

ويستصرخ حافظ آل عثمان، لعلّه يجد منهم آذانًا صاغية، ومبادرة إلى دفع البلاء عن إخوانهم فى مصر[١٤] :

يا آل عثمانَ، ما هذا الجفاء لنا ... ونحن فى الله إخوانٌ وفى الكُتُبِ ؟
تركتمونا لأقوام تخالفنا ... فى الدين والفضل والأخلاق والأدبِ

والساخط إذا اشتدت غضبته، بركانٌ يرمى بحممه فى كل اتجاه. هكذا كان حافظ، فلم تنجُ (مصر) من ثورة نفسه، وأخذ فى "ليالى سطيح" ينعى عليها أمورًا كثيرة، منها إيثارها الغرباء الذين تكالبوا عليها من كل حدب وصوب، يحتلبون فيها كل ضرع، فلا يصل إلى أبنائها من القوت إلاّ ما يتساقط من فروج أصابعهم. وربما كان فشل

حافظ فى الحصول على وظيفة مدة طويلة، سبب شكواه من استحواذ الغرباء على خيرات البلاد(١٥) :

أنا – لولا أن لى مِن أمتى خاذلاً– ما بتُّ أشكو النُّوَبا

أمّة قد فتَّ فى ساعدها بغضها الأهلَ وحبُّ الغُربا

وهكذا اتخذت شكوى حافظ شكلاً جديدًا، فلم تعد مقصورة على وصف ما يكابد من الفقر والإخفاق المستمر فى المسعى، وإنما امتدت إلى نقد المجتمع والتفتيش المستمر عن علله، مادام يرى لتلك الأدواء علاقة قوية بمحنته.

ومَن يسمع شكوى (أبى حيان التوحيدى)، ويقابل بينها وبين شكوى حافظ، يجد شبهًا كبيرًا. فالتوحيدى قد ساءه أن يكون ذا علم وأدب، ينتفع وجهاء الناس بعلمه دون أن يقرّوا بفضله، وينزلوه مكانة لائقة، ويكفلوا له حياة كريمة، فسخطت نفسه وانتهى به الأمر إلى إحراق كتبه ضنًّا بها عليهم. وهكذا كان حافظ إبراهيم يكثر من مقارنة نفسه بسعداء الحظ الذين يتخلّفون عنه فى فضائل النفس والعقل فيأسى لحاله. إنه أديبٌ متميّز، لكّن الناس فى مصر لا يقيمون وزنًا للأدباء وأهل الفكر(١٦) :

جنيتُ عليكِ يا نفسى وقبلى عليكِ جنى أبى فدعى عتابى

فلولا أنهم وأَدوا بيانى بلغتُ بك المنى وشفيتُ ما بى

ويجد حافظ وهو فى غمرة من همومه وأحزانه، أنه قد أرْتج عليه، وكأنّ معين الإبداع فى نفسه قد نضب. والأحزان إذا زادت عن حد معلوم تحولت من طاقة للإبداع إلى علّة لقتل هذا الإبداع. ومَنْ كان مثله تثقله الهموم، لفشله المتلاحق، ولإحساسه بمعاداة القدر ثم بتخلّى وطنه عنه، لابد أن تُجْبِل شاعريته، وتسكن يراعته(١٧) :

مُلِكَتْ علىّ مذاهبى وعصانىَ الطبعُ السليمُ

وجفا يراعى الصاحبا نِ فلا النثيرُ ولا النظيمُ

أشــــقى وأكتــم شِقْـــوَتى والـلـــه بـــى وبـــهـا علـــيـمُ

لا مـــصـر تُـــنـصـفـنى ولا أنـــا عـــن مودّتـــهـا أريـــمُ

لقدحوّل التوحيدى سخطه على الأدب والناس إلى فعل يوم أحرق كتبه. لكنّ حافظًـا بقى يتمنى هجر الأدب كما تمنى من قبل هجر الدنيا(١٨) :

عــقّنى الـدهــرُ ولـــولا أننى أُوثِـــرُ الحسنى عقَقتُ الأدبـا

وظل يســتنكر ويتعجــب ويتحـدث عـن بـؤس أدبـاء مصـر، لمناسـبة أو غـير مناسـبة، فنسمعه يسأل إسماعيل صبرى، وقد وقف على قبره(١٩) :

أتحـــتَ التراب يُـضام الكريمُ ويشقى الحليـم ويخفى القمـرْ ؟

ويُهضَــمُ حـق الأديبِ الأريبِ ويُطمـــس فضـلُ النبيه الأغرْ ؟

فبدا الشاعر، بعد أن فقد العدالة على الأرض، توّاقًا إلى عدالة السماء، التى تضـع كـل إنسان موضعه اللائق به. وعجيبٌ أن نسمع هذه النبرة على لســان حـافظ فـى ذلـك الوقت من عام ١٩٢٣م، وقد مضى على تعيينه بدار الكُتب اثنا عشر عامًا، كان ينعـم خلالها براتب مغرٍ، جعله يتجاوز حد الكرم إلى السَّرف فى الإنفاق. كما أنه لم يكن آنذاك شاعرًا خامل الذكر، وإنما كان ذائع الشهرة، يهـرع النـاس إلى سماعـه، وتسـعى الصحف إلى نشر شعره. لعل ما كان يلقاه من تعرّض بعــض النقـاد لـه مثـل إبراهيـم عبد القادر المازنى، ثم ما يراه من تفوّق شوقى فى صنعته وسعة خياله، لعل هــذا كلّـه كان يفسد ما يرد على نفسه من إحساس بالسعادة، ويوقظ فى هذه النفس إحساســها القديم بالهضم، فتعود إلى لمس وترها الباكى.

ولنقرأ لحافظ هذه الفقرة من حديث طويل حمل فيه على مصر. وهى تصــف شـعوره تجاه ما كان يتعرض له من نقد لاذع. يقول :

" أفٍ لها ما أقلّ شكرانها وأكثر كفرانها. ينبـغ فيهـا النابغـة فينبعـث أشـقاها للطعـن عليه، فلايزال يكيد له حتى يبلغ منه. ويكتب فيها الكاتب فينـبرى لـه سـفيهها، فـلا

يفتأ ينبح عليه حتى ينشب فيه نابه ويفسد عليه كتابه. ويشعر فيها الشاعر فيحمل عليه جاهل لا ينفك عنه حتى يغلبه على أمره ويقهره على شعره »[٢٠].

وأما شعوره تجاه شوقى، فقد اجتهد فى إخفائه لكنه لم يستطع. فنراه يمدحه بشعر كثير فى أكثر من مناسبة، لكنه يحرص على أن يدس له السم فى العسل، وإن كان هذا السم بكميات قليلة تؤذى ولا تقتل، ولا تشى بموجدته عليه. وفى (ليالى سطيح)، يتحدث عنه باستفاضة، مقابلاً حسناته بسيئاته، فما كان لشوقى من حسنات فى شعره أرجعه إلى بحبوحة عيشه وإلى انقطاعه لفنه، فنفى بتعليله هذا كل ميزة له. ولعلنا قد فصّلنا ما أجملنا الآن فى الفصل السابق.

أما غضبة حافظ الكبرى للأدب والأدباء إبّان محنته، فكانت عام ١٩٠٤م، يوم قضت المحكمة الشرعية بالتفريق بين الشيخ على يوسف صاحب جريدة "المؤيَّد" وبين زوجه، بناء على الدعوى التى رفعها والد الزوجة مطالبًا بفسخ عقد الزواج لعدم الكفاءة فى النسب، ولم يغفر للشيخ على يوسف أدبه وفضله الذى تعرفه الأمة ولا يجحده أهل السلطان. ثارت ثائرة حافظ يومها وألقى فى مسامع مصر بعد أن كسر يراعته وطوّح بها، أقسى ما سمعتْ على لسانه من لوْم[٢١] :

حَطَمْتُ اليراعَ فلا تعجبى	وعِفتُ البيانَ فلا تعتبى
فما أنتِ يا مصرُ دارَ الأديبِ	ولا أنت بالبلد الطيِّبِ
وكم فيكِ يا مصر من كاتبٍ	أقال اليراع ولم يكتُبِ
فلا تعذلينى لهذا السكوتِ	فقدضاق بى منك ما ضاق بى

ولا نعجب بعد ما أبداه حافظ نثرًا وشعرا من هضم المجتمع حق الأديب وانتقاص قدره، لا نعجب إذا قرأنا له القصيدة التالية، التى يتحدث فيها إلى رداء جديد له حديث مودة وعرفان، فقد أكسبه توقير الناس الذين لا يُكبرون الرجل لعلمه وفضائل نفسه، وإنما لرُوائه وحسن حُلّته. يصف إحساسه وهو مشتمل بهذا الرداء فيقول[٢٢]:

فكأنى وقد أحاط بجسمى ... فى لباس من العُلا والبهاءِ
تُكْبِرُ العين رؤيتى وترانى ... فى صفوف الولاة والأمراءِ

وشرع حافظ فى حديث حميم يدعو لهذا الكساء بطول العمر، فإقبال الناس عليه مرهونٌ بجدّته ونصاعة لونه :

يا ردائى وأنت خيرُ رداءٍ ... أرتجيه لزينةٍ وازدهاءِ
لا أحالت لك الحوادث لونًا ... وتعدَّتك ناسجاتُ الجِواءِ
غفلتْ عنك للبِلى نظراتٌ ... وتخطتك إبرة الرفَّاءِ

ثم نراه يبثّ هذا الكساء ما كان يعانيه قبلاً من ازدراء الناس وهو يلقاهم فى حلّته القديمة، التى وهن نسيجها وحال لونها، لأن قيمة الرجل عندهم تتحدد بحُسن مظهره وجدّة ملبسه :

صحبتنى قبل اصطحابك دهرًا ... بذْلةٌ فى تلوّن الحرباءِ
كنتُ فيها إذا طرقتُ أُناسًا ... أنكرونى كطارقٍ من وباءِ
إن قومى تروقهم جدّة الثو ... ب ولا يعشقون غير الرُّواءِ
قيمة المرء عندهم بين ثوبٍ ... باهرٍ لونه، وبين حذاءِ
قعد الفضل بى وقمت بعزّى ... بين صحبى،جُزيتَ خير الجزاءِ

وهذه القصيدة التى ترفّ أبياتها بدُعابة الشاعر، تنم عما استقر فى باطنه إزاء مجتمعه، من إحساس بالغبْن لانقلاب المعايير، ولقد أودع البيت الأخير خلاصة هذا الإحساس.

لقد عرف حافظ مجالس الوجهاء وسراة مصر وأصحاب السلطان. فتحوا له أبوابهم، واصطحبوه فى أسفارهم. لكنّ هذا لا يعنى أنه أحس يومًا بأنه واحد منهم، تطاول عنقه أعناقهم، وفيهم من يمد يده بالإحسان إليه. كان مقتنعًا أن الواحد منهم لا يُفسح له مجلسه إلا لظرفه وما يطرف به جلساءه من نوادر تريح النفوس وتحيى

الأسمار، حتى كأنه المعنيّ بقول المتنبي[٢٣] :

ومثـلُك يُؤتَى مـن بـلاد بعيدةٍ   ليضحـك ربّات الحِداد البواكيا

وكان حافظ يعى وظيفته هذه، ويحرص على النهوض بهـا فـى أحسـن صورة، لتظـل طريقه إلى نفوسهم ممهّدة. ذهب ذات يوم لمقابلة سعد زغلول، ووقف ببابه، وأرسـل إليه مع حاجبه ورقة كَتب عليها[٢٤] :

قـل للرئيس أدام الله دولتـهُ   بـأن شـاعره بالبـاب منتظرُ

إن شـاء حدّثـهُ أو شاء أطربهُ   بـكل نـادرة تُجلى بها الفِكرُ

وهذا الكلام برغم ما فيه من مزاح، يكشف بدقة عن واجب حافظ الذى كـان عليه أن ينهض به كلما جلس مع كبراء قومه. وهو عمل غير هيّن يُذكّرنا بمـا سمعنـاه صغارًا فى الحكايات الشعبية عن أبى نواس. فقد صوّرته هـذه الحكايـات قائمًـا ببـاب (الرشيد) لا يكاد يفارقه. يرسـل الرشيد فـى طلبـه كلمـا تكـدّر صفـوه، فيضحكـه ويدخل السرور إلى نفسه. لهذا لم يكن حافظ -فى رأيى- يسعد بتواجده بين هـؤلاء رغم حرصه عليهم، كسعادته بحضور مجالس البسطاء، الذين لا يتكلف معهم أداء هذا العمل، وإذا غاب عنهم افتَقـدوه وسـعوا إليـه. كـان حـافظ مرهـف الإحسـاس تجـاه الأثرياء من أصحابه، فإذا قصّر أحدهم فى حق من حقوق المودّة، ثارت نفسه، وعلـل ذلك بتجاهله لفقره. فنسمعه يعاتب بعضهم[٢٥] :

سـكنـتُ إليـكم و لم تسكنوا   إلىّ وقـد كنتُ نـعم الـفتـى

أصبتــم ثُراثًـــا وألهــاكُـــم   التــكاثُــر عنـا فـسرّ العـدا

ومَـنْ كان يُـنسيــه إثــراؤه   صـديق الخصاصة لا يُـصطفى

وهذا التعليل بجرد وهم عشش فى صـدره، نتيجـة معاناتـه الطويلـة مـن مـرارة الفقـر. وإحساسه بالفقر كان يعاوده لمناسبة أو لغير مناسبة. فإذا وقف فى حفـل أقيـم لرعايـة الأطفال، كانت تجربته الطويلة مع الفقر واليتم نصب عينيه تملى عليه ما يقول[٢٦] :

لم أقف موقفى لأُنشـد شعـرًا	صُـبَّ فى قـالب بديعِ النظامِ
إنما قمتُ فيه والنفـس نشوى	من كؤوس الهموم والقلبُ دامى
ذقتُ طعم الأسى وكابدتُ عيشًا	دون شُربى قذاه شربُ الحمامِ
فتـقلّبـتُ فى الشقـاء زمانًا	وتنقّلـتُ فى الخطوب الجسامِ
ومشى الهم ثاقبًـا فى فـؤادى	ومشى الحزن ناخرًا فى عظامى
فلهـذا وقفتُ أسـتعطـف النـا	س على البائسين فى كلّ عـامِ

فهو لم ينهض لمساعدة الأيتام لمجرد الرغبة فى الخير، وإنما لإحساس قوى باليتم والعـوز والتشرّد، عاناه فى طفولته، وبقيت ندوب منه، تثور بصدره بين حين وآخـر، فتفسـد عليه ما استجد فى حياته من دواعى البهجة.

وكان طبيعيًا وقد تعمق فى صدره الإحساس بالعُدم، والضآلة، والخـوف مـن طـوارق المحن -أن يكثر من الشكوى، وأن يبحث عن كلّ ما يفرّع الحزن فى نفسه أو يسـرّى هذا الحزن عنه. لهذا نراه يطيل النظر فى (لزوميات) أبى العـلاء المعـرى، التـى تحفـل بنظراته القاتمة فى الحياة وأحوال الأحياء، ويُسمّيها (ربيع الأرواح)، إذ دواء السـموم، بعض السموم[٢٧].

كما نجد نفس حافظ مشدودة إلى (بؤسـاء) هوجـو، فيترجمهـا ويستمتع بالإقامـة فـى جوها الذى يوافقه مدة غير قصيرة. يقول فى صدر ترجمتـه وهـو يهـدى الكتـاب إلى الإمام محمد عبده : " إنك موئل البائس ومرجع اليائس. وهذا الكتاب أيدك الله، قـد ألمّ بعيش البائسين وحياة اليائسين. وقد عنيت بتعريبه لما بـين عيشـى وعيـش أولئـك البؤساء من صلة النسب ". ويقول فى مقدمته : " وضعه صاحبه وهو بـائس، وعرّبـه معرّبه وهو بائس، وما عرّبته لولا اتحادنا فى الألم وتشابهنا فى الشقاء "[٢٨].

ولقد أكثر حافظ من وصف جهامة نفسه فى شعره ونثره، فنقرأ له[٢٩] :

وبت يـرتاح سمعى حـين يفتقهُ	صوتُ النوادب،لاصوت الأغاريدِ

كما نقرأ له قوله يصف ما يفعله البؤس بنفس الإنسان، إذا طالت صحبته لها، وباتت لا ترجّى منه فرجًا(٣٠) :

رُبَّ بُـؤسٍ يُخبّث النفس حتى   يطرح المرء فى مهاوى الضلالِ

ويقرأ حافظ بيتين لـ(روسو) تحت عنوان (النفس الحزينة)، فيسعَد بهما ويترجمهما كما ترجم البؤساء من قبل، إذ يعبّران تمامًا عن نفسه. وكأنّ صاحبهما كان يتحدث بلسانه حين قال ضارعًا إلى الله(٣١) :

خلقـتَ لى نفسًـا فأرصدتَها   للحزن والبلـوى وهذا الشقاءْ

فامْنُنْ بنفس، لم يشبها الأسى   لعلّها تعـرف طعم الهنـاءْ

فإذا سمعنا حافظًا يكثر من البكاء والشكوى لسبب أو لغير سبب، فهو يصدر فى هذا كله عن وتر أصيل فى نفسه، لا يملك القدرة على تغييره. وإذا رأيناه يحذر مواجهة الأعداء، ويتطامن للأقوياء، يستجلب رضاهم ويتوقى أذاهم، فهو صادق مع نفسه ويصدر فى كل هذا أيضًا عما تحصّل فى صدره وشكّل منذ الطفولة طبيعته. لقد ابتلعه أخدود الحزن الذى شقه فى نفسه اليتم والعَوز والخوف، وأصبح مستحيلاً أن ينجو منه، وإن تحسنت ظروفه، وتبدلت للأجمل أحواله.

النقد الاجتماعي :

ولا أستبعد أن يكون لنفس حافظ الساخطة الشاكية أثر كبير فيما نطالع فى شعره من تعرّض كثير لعيوب المجتمع، وتبرّم شديد من أحوال الناس. فالنفس الساخطة التى تحس الهضم ولا تؤمل فى الغد، لا تكاد عينها تقع إلا على ما قُبح فى الحياة من حولها. فصاحبها كأنه المعنيّ بقول الشاعر(٣٢) :

والذى نفسه بغير جمال   لايرى فى الوجود شيئًا جميلاً

أرى أن هذه النفس التى أوضحت من قبل ملامحها القاتمة، وراء كثير مما حمل به حافظ على المجتمع المصرى، ووراء التفتيش المستمر عن عيوب هذا المجتمع فى عصره والتنديد بها، فإن ما يذكره حافظ ويكثر من التعرض له، لم يكن خافيًا عن أعين شعراء جيله. كانوا يطالعونه حولهم ليل نهار، ولم يولوه من الاهتمام، ما أولاه حافظ. فمثلما حطّت نفسه على (لزوميات) المعرّى، وعلى (بؤساء) هوجو، ووجدت فيهما زادًا ومتنفّسًا، راحت تحط على العيوب والنقائص، تتخذها وقودًا لأتون سخطها.

ولعل كثيرًا من سخط حافظ على الإنجليز الذى عجز عن الجهر به، لعله وجد فى النقد الاجتماعى متنفّسًا أرحب، وصوتًا أعلى. أى أنه تحول عن وجهته الأولى المستعصية إلى وجهة أخرى ممكنة. وتحوّل الطاقة أمر ثابت على الصعيدين النفسى والمادىّ.

ونفس حافظ التى اتجهت به هذه الوجهة من كشف عيوب المجتمع والتنقيب عنها، هى التى مالت به إلى البائسين، يتحسّس آلامهم، ويواسيهم، ويعطف القلوب الرحيمة عليهم.

وحديث النقد الاجتماعي فى شعر حافظ، طويل طويل، فهو يشغل مساحة واسعة من ديوانه، وينتثر فى معظم قصائده، فضلاً عن الصفحات الكثيرة التى يشغلها فى مؤلفه النثرى (ليالى سطيح). ولم يترك حافظ عيبًا، عادةً كان أو عُرفًا، أو ظاهرة

جدّت فى حياة النـاس، إلاّ تحـدث عنهـا ونبّـه إلى أضرارهـا. ولا يتسنى لبـاحثٍ أن يتعرّض لكل ما جرى به قلم الشـاعر فـى هـذا الجـانب الواسـع وأن يستوفى نظراتـه الناقدة وآراءه الإصلاحية، فإن هذا يتطلب منه مجلدًا خاصًا. لهذا كان الاجتزاء ببعض ذلك ضرورة تقتضيها طبيعة هذا البحث العلمى. وما اخترناه يتعلّق بجوانـب الإنسـان المختلفة : النفسية والخُلُقية والسلوكية، ويكاد يقتصر على المجتمع المصـرى، إذ كـانت عين الشاعر أشدّ وأكثر تحديقًا فى أحوال المصريين، بحكم نشأته فيهـم وحياتـه بينهـم ووعيه طباعهم ومختلف عاداتهم، ينضاف إلى ذلك رغبة خالصة فـى عِـلاج أدوائهـم، وهو القائل(٣٣) :

لعمرك مـا أرقتُ لغير مـصْرٍ ... ومـا لى دونـها أمـلٌ يُـرامُ

ذكـرت جـلالها أيـام كانت ... تصـول بـها الفراعنة العظـامُ

فأقلـق مضجعى ما بات فيهـا ... وبـاتـت مصرُ فيه، فهـل أُلامُ ؟

تواكل المصريين :

كان حـافظ واثقًـا مـن قـدرة المصريـين علـى تطويـر حيـاتهم وتحسين ظـروف معيشتهـم، لو أنهم أحسـنوا استغلال طاقـاتهم العديـدة، بشـرية وماديـة. فهـم نتـاج حضارتين: حضارة فرعوية قامت على أسـس راسـخة مـن العلـم، وحضـارة إسـلامية ناصعة العقيدة، تدفع بأهلها إلى آفاق رحبة، تصان فيها نفس الإنسان وحقوقه. فهـل استلهم المصريون تاريخهم وقيم عقيدتهم فى مسلكهم وفـى سعيهم مـن أجـل حيـاة أفضل ؟

يجيبنا حافظ بحسرات، يبثها هنا وهناك لهذا الشعب المتواكل الـذى طرح وراء ظهـره تاريخه، وتعاليم دينه، فعاش بائسًا تنوشه أظافر الدخلاء، وتخلس قوتـه أصـابع الغربـاء، وصار أبناؤه يتكففون لقمة العيش من أيدى هؤلاء بعد أن غلبوهم على أرزاقهم :

أرى شـعبًا بمدرجة العوادى ... تمخّـخ عظمـه داءٌ عـقـامُ

إذا ما مرَّ بالبأساء عامٌ   أطلّ عليه بالبأساء عامُ

سرى داء التواكل فيه حتى   تخطف رزقَه ذاك الزّحامُ

هلاك الفرد منشؤه توانٍ   وموت الشعب منشؤه انقسامُ

وإنّا قد ونينا وانقسمنا   فلا سعْيٌ هناك ولا وئامُ

فساء مقامنا فى أرض مصر   وطاب لغيرنا فيها المقامُ

ولا ينى حافظ يستنهض همم المصريين للكدح واقتحام العقبات لنشر ما طواه الزمن من صفحات مجدهم الغابر(٣٤) :

قم يا ابن مصر فأنت حرّواستعد   مجد الجدود ولا تعُدْ لمراحِ

شمّر وكافح فى الحياة فهذه   دنياكَ دارُ تناحُرٍ وكفاحِ

وخض الحياة وإن تلاطم موجُها   خوضُ البحارِ رياضةُ السبَّاحِ

وظلّ يستحثهم على طلب المجد ولقمة العيش بكل أرض وفى كل مكان مثلما يفعل الآخرون، وألاّ يكتفوا بزفرات الأسى وشكوى الزمان، لأنها وسيلة العاجز فى مواجهة صروف الدهر :

وإذا احتوتك مَحلّة وتنكَّرتْ   لك فاعْدُها، وانزح مع النُّزَّاحِ

فى البحر لا تثنيك نارُ بوارجٍ   فى البرِّ لا تلويك غابُ رِماحِ

وانظرإلى الغربيِّ كيف سَمَتْ به   بين الشعوب طبيعة الكدَّاحِ

ركبوا البحار وقدتجمّد ماؤها   والجوّ بين تناوح الأرواحِ

والبرّ مصهور الحصى متأججا   يرمى بنزّاع الشَّوى لوَّاحِ

وابن الكنانة فى الكنانة راكدٌ   يرنو بعينٍ غير ذات طِماحِ

لا يستغل-كما علمتَ-ذكاءه   وذكاؤه كالخاطف اللمَّاحِ

فانهض ودع شكوى الزمان ولاتَنُحْ

في فادح البؤسى مع الأنواحِ

ولا يكتفى الشاعر بأن يتخذ المثل والقدوة من أهل الغرب. فنراه يلفت أنظار المصريين إلى همم أشقائهم وأبناء عمومتهم من أهل الشام، الذين يضربون من زمن بعيد فى أقطار الأرض بحثًا عن الرزق، تدفعهم عزائم قوية تستخف بالمصاعب لبلوغ المآرب(٣٥):

عافوا المذلّة فى الدنيا فعندهمُ عزّ الحياة وعزّ الموت سيّانِ

تيمموا أرض(كولمب)فما شعرتْ منهم بوطء غريب الدار حيرانِ

سادوا وشادوا وأبلوا في مناكبها بلاء مضطلع بالأمر معوانِ

إن ضاق ميدان سبْق من عزائمهم صاحت بهم فأروْها ألف ميدانِ

ويعلم حافظ أنه يستثير غيرة المصريين بالحديث عن أهل الشام، أكثر مما يستفزّها بحديثه عن أهل الغرب الذين ينأوْن عنهم نسبًا، وطباعًا وموطنًا. لهذا وجدناه يكثر من لَمْس هذا الوتر الحساس فى شعره ونثره، ويطيل فى وصف عزائم أهل الشام وفى الثناء عليهم. ولِمَ لا يمتدحهم حافظ، والرجل منهم يخوض البحر ويضرب فى الأرض، لا يثنيه عن هدفه خوف المجهول، أو تعلق روحه بالوطن أو نزوع نفسه إلى الزوج والولد، ثم يعود ظافرًا مرفوع الهامة(٣٦) :

كم غادة بربوع الشام باكيةٍ على أليف لها يرمى به الطلبُ

يمضى ولا حيلة إلا عزيمتهُ وينثنى وحُلاه المجد والذّهبُ

أسطولهم أملٌ فى البحر مرتحلٌ وجيشهم عملٌ فى البرِّ مغتربُ

هذا عرض مبسط لموقف حافظ من أهل الشام، وصورة مصغّرة لحديثه عن عزائمهم التى لا تفترُ وجهادهم الذى لا يتوقف. فما موقفه من المصريين ؟ وكيف صوّر حياتهم ؟

الموقف مختلفٌ تمامًا، كمـا يصـل الاختـلاف بـين الموقفـين والصورتـين إلى حـدّ مقابلة الشيء بنقيضه. وأول ما نطالعه مـن ملامـح الاختـلاف والمغـايرة، شـدّة تعلّـق المصريين بأرضهـم، التي أورثتهم ضعف الهمة والتسليم بالواقع، والقناعة بأبســط ألـوان العيش، والصبر على الذل. يؤثرون ذلك كله على مبارحة الأرض وهجْر الأهـل بحثًا عن حياة أفضل.

قضى حافظ حياته ينعى على المصريين هذه الآفة التى تمكنت من نفوسهم، ويدعوهـم إلى سرعة مقاومتها ونبذها لتجنب آثارها الضارة. و لم يأل جهدًا فى دعوة المصلحـين إلى مساعدة الشعب على التخلص من هذه الطبيعة النفسية التـى ترنّـق عيشـه وتعـوق تقدمه[٣٧] :

أيهـا المصلحـون أصـلحتـم الأر ض وبتّم عـــن النفـوس نيـاما

أصلحوا أنفسًـــا أضرّ بها الفقـ ـرُ وأحيـــا بموتهـــا الآثـــامـــا

ليس فى طوقها الرحيل ولا الجد ولا أن تـــواصـــل الإقـــدامـــا

تؤثر المـــوت فى رُبا النيل جوعًا وترى العار أن تـعاف المُـقاما

وحديث الشاعر عما يراه من عيوب الشعب المصرى، يجره دومًا إلى المقابلة بين حالهم وأحوال الشعوب الأخرى، فبضدها تتميز الأشياء.

وليست آفة المصريين فحسب، فى ارتباطهم الشديد بالأرض وتفضيلهم المـوت جوعًـا على مبارحتها، وإنما أيضًا فى لين طبـاعهم أمـام الغربـاء، حتـى غُلبـوا علـى أقواتهـم، وأصبح هؤلاء يمسكون بزمام حياتهم ويصرّفون أمورهم كيف شاءوا. فبـات الغربـاء من كل جنس فى مصر ناعمين، وبات أبناؤها يعانون السّغب، ويشكون الغربة :

أيها النيل كيف نُمسى عطـاشا فـى بـلاد روَّيــتَ فيها الأناما ؟

يـــرد الواغل الغـــريب فـيروَى وبنـوك الـكرام تشـكو الأواما

إنَّ لــين الطبـاع أورثنـا الـذلَّ وأغـرى بنـا الجُنـــاةَ الطَّغـامـا

وفى (ليالى سطيح) يعرض حافظ جوانب أخرى وصورًا مختلفة من مأساة الشعب المصرى المغلوب فى وطنه على أمره ورزقه، الشعب الذى[٣٨] :

سرى داء التواكل فيه حتى تخطّف رزقه ذاك الزّحامُ

ولا ينى حافظ فى الكشف عن العيوب والتنديد بها والدعوة إلى نبذها. وفى أثناء ذلك نجده يلين تارة ويقسو أخرى، أو يجمع فى حديث واحد بين اللين والقسوة. يبدى سخطه وتعجبه من حال بعض المصريين راحوا يتباهون بالمال والألقاب فيقول[٣٩] :

وما أرجوه فى بلدٍ به ضاق الرجاء وبى ؟

وهل فى مصر مفخرةٌ سوى الألقاب والرتبِ ؟

وذى إرث يكاثرنا بمال غير مُكتسَبِ ؟

فما يتباهى به هؤلاء لا يدل فى أغلب أحواله على ميزة خاصة عند صاحبه، عقلية كانت أو نفسية ، ولا فخر للإنسان إلا بما يحوز من فضائل العقل والنفس.

وفى هذه القصيدة، يُظهر حافظ للمصريين نواحى تقصيرهم العديدة، ثم لا يلبث بعد ذلك -لصدق شعوره- أن يصف الدواء لأدوائهم، وليس سوى ترك اللهو والتواكل، ثم الاقتداء بالشعوب الجادة :

فهبّوا من مراقدكم فإن الوقت من ذهبِ

فهذي أمة اليابا ن حازت دارة الشُّهبِ

فهامت بالعلا شغفًا وهِمنا بابنة العنبِ

ولئن كان الشاعر يتخذ أهل الشام قدوة فى المخاطرة والترحال بحثًا عن حياة أفضل، فإنه فى ديوانه يكثر من اتخاذ اليابانيين مثلاً أعلى للشعوب الناهضة ذات السواعد العاملة والعقول المفكرة، ويبدى إعجابه الشديد بكل ما حققوه من تقدم فى مختلف جوانب الحياة.

ومن مظاهر التراخى وقعود الهمة التى أزعجت الشاعر فى سلوك المصريين، كثرة التسويف، وتأجيل الأعمال دون مبرر، لما يؤدى إليه ذلك من إضاعة الوقتَ وتعطيل المصالح[٤٠] :

ما هدّ عزم القادريـ ـن بمصر إلا قولُ (باكرْ)
كم ذا نُحيل على غدٍ وغدٌ مصيرَ اليوم صائرْ

وحديث الشاعر عن التواكل وأثره السيء فى حياة الشعب المصرى طويل، ويتلبّس فيه الغضب والتقريع برغبته الصادقة فى صالح أمته[٤١].

مآخذ أخرى :

ولئن كان التواكل أهم ما تصدّى له الشاعر من أدواء الشعب، فإن هناك مظاهر أخرى من تردّى الأخلاق، تفتّ فى عضد الأمة ولا تقل عن التواكل خطرًا. وفى قصيدة واحدة، أورد خمسة من هذه المظاهر المعيبة، التى يزيد من قبحها وخطرها، تعلّقها بأهل العلم، الذين ترجّى مصر على أيديهم النفع. فإذا كان هذا شأن الخاصة، فماذا سيكون عليه العامة، الذين يجهلون الكثير من الحق وأسباب الخير؟! لهذا راح حافظ يلقى على مسامعنا حكمته الشهيرة التى تدعو إلى اقتران العلم بفضائل النفس[٤٢] :

والعلم إن لم تكتنفه شمائلٌ تُعليه كان مطيَّة الإخفاقِ
لا تحسبنَّ العلم ينفع وحدهُ ما لم يتوّج ربُّهُ بخلاقِ

وأخذ يقدم شواهد من واقع حياته على ما يفعله بعض رجال العلم والفقه من تغرير بالبسطاء، وإفساد لحياة الناس، ومن تحصيل المال بطرق غير مشروعة يأباها الدين وتحيد عنها الفطر السليمة :

كم عالمٍ مدّ العلوم حبائلاً لوقيعة وقطيعة وفراقِ
وفقيه قوم ظلّ يرصُد فقههُ لمكيدة أو مُستحَلٍّ طلاقِ

يمشى وقد نُصبت عليه عمامة   كالبرج لكن فوق تل نفاقِ

يدعونه عند الشقاق وما دروا   أنّ الذى يدعون خِدن شقاقِ

ومن هؤلاء الذين عابهم الشاعر، الطبيب الذى يخالف أوامر الدين ونواهيه، فيقدم على قتل الأجنّة فى البطون، أو على التجريب فى أجساد البشر عن غير بصارة، أو يغالى فى اقتضاء الأجر من مرضاه.

ومنهم مهندس الرىّ الذى استمرأ الرِّشا، فأخذ يتعسّف فى توزيع المياه على الزرّاع، ليسوقوا كارهين إليه أموالهم، يدفعون بها ما يتهددهم من هلاك زروعهم :

ومهندسٍ للنيل بات بكفّهِ   مِفتاحُ رزق العامل المِطراقِ

تنـدَى وتيْبس للخلائقِ كفّهُ   بالماء طوْعَ الأصفر البرّاقِ

لا شىء يلوى من هواه فحدّهُ   فى السَّلب حدُّ الخائنِ السرّاقِ

ولعل حافظا قد استلهم فى هذا القول، ما علمه من سيرة أبيه، الذى كان مهندسًا للرىّ بصعيد مصر، ينعم بما تدرّه عليه وظيفته من مال وفير، مقابل ما كان يقدمه لبعض كبار الزرّاع من تيسيرات فى ضخ المياه الغزيرة إلى ضياعهم الواسعة. ولعل كثيرًا من زرّاع مصر مازالوا يعانون إلى الآن بسبب هذا السلوك الشائن.

ويختم الشاعر مآخذه فى القصيدة، بذكر طائفة من الكُتّاب والأدباء الذين أوتوا قدرة على تزيين الباطل ومسخ الحقائق، إرضاءً لشهوات نفوسهم. لقد استحالت الصحف إلى حبائل لصيد المال بالمساومة فى أعراض الناس، فهى "حُمَدَةٌ لمن أعطى وإن كان لئيمًا، لُمَزةٌ لمن منع وإن كان كريمًا "[٤٣].

وقد تعرض حافظ للصحف فى ديوانه بمثل ما تعرّض لها فى (ليالى سطيح)، فراح ينتقد لغتها مرّة[٤٤]، ويصف أربابها مرة أخرى بالكذب والسِّعاية بين الناس بغير الحق[٤٥]:

جرائدٌ ما خُطّ حرف بها   لغير تفريقٍ وتضليلِ

يحلو بـها الكـذْبُ لأربـابـها	كـأنّـهـا كـذبة إبـريـلِ

ومما عاب الشاعر عليه المصريين، إساءتهم إلى (النيل)، بعد أن كان أجدادهم يترضّونه بالاحتفالات، ويتقرّبون إليه بـالعرائس ، جعلوه مصرفًا للفضلات ومقبرة للجيف، فجرى البلاء مع تياره وأصبح يهدد حياتهم، بعد أن كان سببًا فـى أرزاقهم وبقائهم[٤٦]. ولو أن حافظًا بين ظهرانيْنا اليوم، لرأى هذه الظاهرة قد تفاقم خطرها ولازداد تحسّرًا وغيظًا.

وحافظ، الشاعر الذى نشأ فى المجتمع المصرى وقضى شطرًا طويلاً من حياته فى مدينة (طنطا)، حيث يحتفل الناس أسبوعًا كاملاً من كل عام بمولد السيد (أحمد البدوى)، ثم انتقل إلى القاهرة، وتنقل فى أنحاء مصر، فوجد عادة الاحتفال بأولياء الله تضرب فـى نفوس المصريين بجذور أعمق، لابد أن يعبر مثلما عبّر غيره من الغيورين على العقيدة، عن استيائه لغفلة الناس ولمعتقداتهم الباطلة التى حرص على ترسيخها فى أذهانهم جماعة المنتفعين بما يُلقَى فى أضرحة أولئك الأولياء من نذور[٤٧]:

أحيـاؤنا لا يُرزقـون بدرهـمٍ	وبألـف ألف ترزقُ الأمواتُ
مَن لى بـحظ النـائمين بحفرةٍ	قامت على أحجارها الصلواتُ
يسـعى الأنـام لها ويجرى حولها	بحـر النـذور، وتُقرأ الآيـاتُ
ويقال هذا القطبُ باب المصطفى	ووسيلةٌ تُقضَى بها الحـاجـاتُ

وحافظ لا ينكر قدر أولياء الله الذين ثبت جهادهم، وإنما يُنكر اتخاذ البشر، مَنْ صحّتْ ولايته لله ومَنْ لم تصح، وسيلةً للتقرب إلى الله أو لقضاء الحاجات. كما يرى أن بالمجتمع من الأحياء من هم أولى وأحق بأموال النذور التى تُساق إلى هؤلاء الأموات، فلا ينتفعون بشىء منها. مازالت هذه العادة موجودة، وتثير جدلاً من حين لآخر بين المستفيدين منها، وبين الغيورين على السُّنة وصفاء العقيدة. وفي موضع آخر

نراه يهيب بالإمام محمد عبده لمقاومة هذه العادة فيقول : (٤٨)

إمام الهدى إنى أرى القوم أبدعوا ... لهم بدعًا عنها الشريعة تعـزفُ

رأوا فى قـــبور الميتيــن حياتهم ... فقامــوا إلى تلك القبور وطوّفوا

وباتــوا عليـها جاثمين... كأنـهم ... على صنـــمٍ للجاهليّـــة عُكّفُ

فأشرقْ على تلك النفوس لعلّها تـ ... ـرق إذا أشرقـتَ فيهـا وتلْـطفُ

ومما عابه حافظ فى حياة الشعب المصرى، حفلات (الزار) التى كـانت منتشـرة فى الأحياء الشعبية ثم عرفت سبيلها إلى قصور الأغنياء وأوساط المتقفين. وهى عبارة عن ملتقيات تتجمع فيها النساء على هيئة دوائر أو صفوف، فيتمـايلن فى كـل اتجـاه بإيقـاع يُبطـئ ويسـرع حسـب إنشـاد المنشـد ونقْـر الدفـوف ، يزعمـن أنهـا تخلّـص أجسادهن مما يتلبّسها من أرواح شريرة. يحدثنا حافظ عن ذلك فيقول :

" السعيدة من النساء من سهلّت لها الأقدار فأصبحت تُدعى (شـيخة زار)، فهـى تمـلأ يديها ذهبًا وبيتها نشبًا، وترفل فى الحرائر من هبـات الحرائـر. ورأس مالهـا فـى تلـك التجارة رُقية بأسماء بعض العفـاريت الطيّـارة. تدخـل علـى المقصـورات فـى القصـور والمخدورات فى الخدور، فتفتّق بطبلها طبل آذانهن، وتهز بأسماء الجن تواعم أبدانهن، وتُعمى بدخان البخور نُجل أعينهـن. حتـى إذا امتلكـت منهـن الوجـدان وصـار لهـا عليهن أىّ سلطان حكمت بينهن حكم المنوِّم البارع على النائم الخاضع "(٤٩).

وحافظ يتحدث عن تجربة شخصية، فقـد كـان يـؤم هـذه الحفـلات مـع بعـض الأدباء والوجهاء، فيقضـى فيهـا ليلـة صاخبـة علـى طعـام وشـراب حتـى الفجـر، ثـم ينصرف الرجال وتبقى السيدات لأن أسيادهن لا ترضى عنهن إلا بعد ثلاثـة أيـام فـى هذا الضجيج المهلك(٥٠).

ومنْ ثمّ، فـإن انتقـاده هـذه الظـاهرة يثير دهشـة البـاحث، للمقارقـة بـين قولـه ومسلكه. ولعل حديثه هذا جاء بآخرة بعد إلمامـه بكافـة جوانبهـا الضـارة، سلوكية

كانت أو عقدية. ويثير الدهشة أيضًا، ذمّه تواكل الناس وعدم أخذهم بأسباب العيش الكريم، فقد كان حسْب ما يروى عنه مثالاً للتواكل والتراخى وعدم الانضباط فى كل عمل يسند إليه، وبسبب هذا تعرض لمشاكل كثيرة. فموقف حافظ فى بعض ما يعيبه على الناس ينطبق عليه القول الذائع(٥١) :

لا تنه عن خلق وتأتى مثلهُ عار عليك إذا فعلت عظيمُ

وكثيرةٌ هى مآخذ الشاعر، لو تتبعناها وسجّلناها، والاكتفاء ببعضها أمر يتطلبه البحث.

لقد اشتهر حافظ بشعره الاجتماعى. كان متواجدًا بين الناس يرى أحوالهم فيكثر الحديث عنها. وسنرى فى الفصل التالى أن مساحة تواجده فى مجتمعه تزداد عما رأيناه فى هذا الفصل.

* * *

هوامش الفصل الثانى :

(١) ديوان حافظ إبراهيم، ج١، ص ١٦٤.

(٢) المرجع السابق، ج١، ص ١٠٢.

(٣) المرجع نفسه، ج١، ص ١٩٩.

(٤) المرجع نفسه، ج٢، ص ١٢١. وانظر رسالته إلى الشيخ محمد عبده التى يستحثه فيها على سرعة العمل لإرجاعه إلى مصر، المرجع نفسه، ج٢، ص ١٢٧.

(٥) المرجع نفسه، ج٢، ص ١١٤.

(٦) المرجع نفسه، ج٢، ص ١١٦.

(٧) المرجع نفسه، ج٢، ص ١١٣.

(٨) المرجع نفسه، ج٢، ص ١١٧.

(٩) المرجع نفسه، ج٢، ص ١١٧.

(١٠) المرجع نفسه، ج٢، ص ١١٤.

(١١) المرجع نفسه، ج٢، ص ١٣٣.

(١٢) المرجع نفسه، ج٢، ص ١١٢.

(١٣) المرجع نفسه، ج٢، ص ١١٤.

(١٤) المرجع نفسه، ج٢، ص ١١٩.

(١٥) المرجع نفسه، ج٢، ص ٧، وانظر (ليالى سطيح) من ص ١٦ - ١٨.

(١٦) المرجع نفسه، ج٢، ص ١٢١.

(١٧) المرجع نفسه، ج١، ص ١٧٢.

(١٨) المرجع نفسه، ج٢، ص ٧.

(١٩) المرجع نفسه، ج٢، ص ٢١٣.

(٢٠) ليالى سطيح، ص ٤ - ٥.

(٢١) ديوان حافظ إبراهيم، ج١، ص ٢٥٦.

(٢٢) المرجع السابق، ج١، ص ٢٠٥.

(٢٣) أحمد بن الحسين (المتنبى)، ديوان المتنبى بشرح أبى البقاء العكبرى، ج٤، (بيروت، دار المعرفة، ١٩٧٨م) ص ٢٩٦.

(٢٤) ديوان حافظ إبراهيم، ج١، ص ١٨٩.

(٢٥) المرجع السابق، ج١، ص ١٩٧.

(٢٦) المرجع نفسه، ص ٢٨٧.

(٢٧) ليالى سطيح، ص٢٦ ،وانظر أبو العلاء المعري اللزوميات (بيروت - مكتبة صادر سنة ١٩٥٢م)

(٢٨) حافظ إبراهيم، البؤساء (القاهرة - مطبعة الهلال سنة ١٩٥١م).

(٢٩) ديوان حافظ إبراهيم، ج٢، ص ١٣١.

(٣٠) المرجع السابق، ج١، ص ٣١١.

(٣١) المرجع نفسه، ج٢، ص ١١٤.

(٣٢) أبو ماضى (إيليا)، الأعمال الكاملة (بيروت - دار العودة - بدون تاريخ، ص٦٠٤.

(٣٣) ديوان حافظ إبراهيم، ج٢، ص ٥٥.

(٣٤) المرجع السابق، ج٢، ص ١٠٣.

(٣٥) المرجع نفسه، ج١، ص ١٣٧.

(٣٦) المرجع نفسه، ج١، ص ٢٦٩.

(٣٧) المرجع نفسه، ج١، ص ٣١٦.

(٣٨) المرجع نفسه، ج٢، ص ٥٤، وانظر : (ليالى سطيح)، ص ١٧، وص ١٠٤.

(٣٩) المرجع نفسه، ج٢، ص ١١٠.

(٤٠) المرجع نفسه، ج١، ص ٢٩٤.

(٤١) انظر أيضًا المرجع نفسه، ج١، ص ٢٦٠، وص ٣٠٥.

(٤٢) المرجع نفسه، ج١، ص ٢٨٠.

(٤٣) ليالى سطيح، ص ٢٧ - ٣٣، وص ٣٨.

(٤٤) ديوان حافظ إبراهيم، ج١، ص ٢٥٤.

(٤٥) المرجع السابق، ج١، ص ١٥٩.

(٤٦) ليالى سطيح، ص ١ - ٤.

(٤٧) ديوان حافظ إبراهيم، ج١، ص ٣١٨، وانظر : ليالى سطيح، ص ٢٤.

(٤٨) المرجع السابق، ج١، ص ٢٢.

(٤٩) ليالى سطيح، ص ٢٥

(٥٠) حياة حافظ إبراهيم ،ص ٨٧

(٥١) المرجع السابق، ص١٥٨ - ١٦٠ والبيت من شواهد النحو ويروى لعدد من الشعراء منهم أبو الأسود الدؤلى والطرمّاح.

الفصل الثالث

شعره الاجتماعي

عُرف حافظ إبراهيم بكثرة مشاركته الناس آلامهم وبتصويره آمالهم في حياة كريمة وادعة لايكدّر صفوها بؤس أو خوف . لم يكن يعن له أمر ينصلح به حالهم ، إلا أقبل عليه يأخذ منه بنصيب ، تدفعه إلى ذلك نفس مجرّبة أجهدتها السنون ، فباتت تتوقى كل عادية ، وتفتح لأعين الناس من نوافذ الأمل ما أغلقته الأقدار أمامها .

تمنى حافظ أن يرى مصر والشعوب العربية والإسلامية ، بلدانا قوية عامرة بالخير والسلام ، لاتخلّف يعطل تقدمها ، ولا انقسام يبدد شملها ويذهب بقوّتها ، وكفاها ما عانت ومازالت تعانيه ، من سعي أعدائها إلى إضعافها ونهب خيراتها ومحو حضارتها . لقد كانت مشاركته هذه المجتمعات ما تتقلب فيه من ظروف ، قوية صادقة ، وإن غلّفتها في بعض الأحيان غلالة من اللوم والتعنيف ، أو خالطتها مسحة من التشاؤم .

ويتبقى في شعره الاجتماعي جانبان هامان غير ما عرفناه في الفصل السابق من نظراته الناقدة ، وهذان الجانبان هما :

دعوته إلى التكافل الاجتماعي

موقفه من القضايا الاجتماعية الهامة

ولا يعني هذا التقسيم أن هذين الجانبين يستقلان في شعره ، ويوجد أحدهما منفصلا عن الآخر ، فكثيرا ما يتداخلان في القصيدة الواحدة من شعره تداخل السّدى و اللحمة . وإنما آثرنا فصل هذين المحورين عند التناول، حرصا على تنظيم العرض ، وبيان سعة جهوده و شمولها كافة نواحي الحياة في عصره . و لم يكن حافظ وحده فارس هذا الميدان ، لكنه كان أعلى الشعراء صوتا ، وأسرعهم استجابة .

التكافل الاجتماعي في شعره :

الدعوة إلى التكافل الاجتماعي قبل أن تكون رسالة وواجبا ، استعداد نفسي عند الداعي لفعل الخير . وقد اجتمعت في شخص حافظ وحياته كل العوامل التي تحفز نفسه لأداء هذه الرسالة وللنهوض بهذا الواجب . وقد ذكر كثيرون ممن عاصروه أن نفسه كانت تنجذب إلى كل أعمال البر ، فيدعو إلى إعانة البائس ، أو كفالة اليتيم ، أو مساعدة المريض ، ...إلخ وكان الشعر كل ما يستطيع حافظ تقديمه من عون ، فنراه يقدمه معتذرا للناس عن فقره :[(١)]

لو ملكنا غير المقال لجُدنا   إن جُهدَ المقلّ حُسنُ المقالِ

كان للشاعر صوت عال على منابر المؤسسات الخيرية المختلفة ، يهيب فيها بأهل الخير أن يمدّوا أيديهم لرعاية الأيتام وبناء الملاجئ والمدارس ويرى ذلك حقا للبؤساء وسبيلا إلى حماية الأطفال من التشرد . ولم يكن شعر حافظ في دعوته إلى الخير ، بجرّد نظم أوبوق يرفع فيه صوته ، فقد امتزج فيه الفن الرفيع بالغرض الطيب . وترك حافظ في شعره الاجتماعي آثارا فنية جيدة ، تنطق بحسن تأتّيه ولطيف مداخله، وتضم تصويرا جيدا لأحوال البؤساء . فنسمعه مثلا في حفل خيري لرعاية الأطفال ، يعطف قلوب الحاضرين ببراعة استهلاله وجودة تصويره ، فيقول :[(٢)]

هذا صبيّ هائمٌ   تحت الظلام هيام حائرْ
أبلى الشقاء جديدهُ   وتقلّمت منه الأظافرْ
فانظر إلى أسْمالهِ   لم يبق منها ما يظاهرْ
إنّي أعُدّ ضلوعهُ   من تحتها والليل عاكرْ
أبصرت هيكل عظمهِ   فذكرت سكان المقابرْ
قد كاد يهدمه النسيـ   ـم وكاد تذروه الأعاصرْ
كم مثله تحت الدجى   أسوان بادي الضّر طائرْ
حزيان ، يخرج في الظلا   م خروج خفّاش المغاورْ

متـلفـّعا جلـــبــابـــهُ مترقبـا معــروف عـــابرْ

يـقـــذي برؤيتـه فـــلا تـلْوي عليـــه عين نـاظـنـرْ

وتصوير بؤس المتسوّلين في هذا المقام ، وتقديم لوحات حية منه ، أقوى في استدرار العطف والشفقة من طلب العون عن طريق الحث والعظة في أسلوب خطابي مباشر ، وهذا فن برع فيه حافظ وتفوق فيه على أقرانه الذين خاضوا معه هذا الميدان.

ولم يدخر الشاعر وسعا في الحض على رعاية اليتيم ، إرضاء لله وإصلاحا لحاله ولحال المجتمع الذي يعيش فيه . ففي رعاية هذا اليتيم دفع لأخطار اجتماعية مؤكدة الحدوث ، في حال تركه يترعرع في الدروب والأزقة ، ويسرح فيها كالهوام . وربما صار هذا اليتيم شخصا مرموقا ومواطنا صالحا ، بفضل كفالة المجتمع له وحُسن توجيه طاقته :[٣]

أنـقـذوهُ فربـمـــا كان فيـهِ مـصـلح أومغامـر لا يُبـالي

ربّما كان تحت طـمريه عزمٌ ذو مَـضاء يـدك شُـمّ الجبـالِ

ويعيد حافظ على مسامعنا ما قاله بعض الفُتّاك من الصعاليك في تبرير قتلهم الموسرين الأشحاء ونهب أموالهم :لقد تنكر الأغنياء لأولئك البؤساء وأبوا أن يرزقوهم من أموالهم ما يُمسك عليهم أرواحهم ، فنهضوا إلى سلاحهم يدفعون عنهم أذى الجوع وخطر الموت . يحذر حافظ الأغنياء من هجمة المعدِم اليائس فيقول :[٤]

لو وفى بالزكاة من جمع الدنـــ ـيا وأهوى على اقتناء الحطامِ

ما شكا الجوع معدِم أو تصدى لـركـوب الشـرور والآثـامِ

راكبا رأسه طريدًا شريـــدا لايبـالي بشـرعـة أو ذمـامِ

ســائلا عن وصيـــة الله فيـــه آخـذا قـوتـه بـحـد الحسـامِ

وكان الشاعر حريصا على أن يذكّر الأغنياء ، بأن ما يُطالب به من مال الزكاة، حق قسمه الله في أموالهم للفقراء ، وعليهم أداء هذا الحق دون امتنان أوتفضّل. كما نراه صريحا وهو ينفي العذر عن كل قادر لايأخذ بيد محتاج ، أو يني في معاونة أهل

البر :[٥]

يا رجال الجد هذا وقته　　آن أن يعمل كلٌ ما يرى

أنا لا أعذر منكم من ونى　　وهو ذو مقدرة أوقصّرا

ولا يفوته وهو يهز منابر الخير بشعره ، أن يثني على دُور رعاية الأطفال والجمعيات الخيرية ، وعلى رواد التكافل الاجتماعي الذين أقاموا بنيانه . كما لايفوته وصف ما يبذله القائمون بالأمر في المؤسسات الخيرية من رعاية حسنة ، وما يلقاه الأطفال وغيرهم من حدبهم وحفاوتهم .

و لم يقصر حافظ همّه وهو يدعو إلى رعاية الأطفال ، على الاهتمام بإيوائهم ورعاية أجسادهم بالغذاء والكساء ، وإنما تعدّى ذلك إلى المطالبة بتيسير سبل العلم أمامهم ، فنراه يهيب بسعد زغلول ـ وكان ناظرا للمعارف ـ أن يفتح للأيتام سُبل التعلُّم التي سدّها الفقر أمام بعضهم ، محرّكا في حديثه وترا حسّاسا في قلب هذا الزعيم ، الذي لم يرزقه الله نعمة الولد :[٦]

يا سعد إن بمصر أيـ　　ـتاما تؤمّل فيك سعدا

قد قام بينهمو وبيـ　　ـن العلم ضيق الحال سدّا

ما زلتُ أرجو أن أرا　　ك أبا وأن ألقاك جدّا

حتى غدوت أبا له　　أضحت عيال القطر وُلْدًا

و لم يكتف حافظ أيضا بالدعوة إلى رعاية الأطفال الأصحّاء وتعليمهم ، فقد اتسعت دعوته لتشمل نواحي خيرية أخرى مثل الاهتمام بالمعوقين ، فنجده يطالب ببناء مدرسة لتعليم العميان ، تعوضهم بنور العلم عن فقدهم نور البصر . فلعل مصر تظفر منهم بعالم له علم ومنزلة الدكتور طه حسين[٧]:

إنّ حق الضرير عند ذوي الأبصا　　ر حقٌ مستوجب التقديسِ

لم يضره فقدانه نور عينيـ　　ـه إذا اعتاض عنهما بأنيسِ

آنسوا نفسه إذا أظلم العيـ　　ـش ،بعلم، فالعلم أُنس النفوسِ

أكملوا نقصه يكن عبقريا مثل (طه) مبرّزا في الطروسِ

وحافظ يطلب الخير لكل الناس ، وتسرع به قدمه إلى كل مناسبات البرّ ، فلا عجب إن رأيناه في محفل يطلب إعانة أبناء الشام الذين يدرسون بالأزهر ، بعد أن ساءت حالهم بسبب الحرب ، يرى ذلك حقا لهم في أعناقنا :[٨]

إنّ في الأزهر قوما نالهم من لظى نيرانها بعض الشّررْ

أصبحوا - لاقدّر الله لنا - في عناء وشقاء وضجرْ

نزلاءٌ بيننا ، إن يُرهقوا أو يُضاموا ، إنها إحدى الكُبَرْ

فأعينوهم ، فهم إخوانكم مسّهم ضُرٌّ ونابتهمْ غِيَرْ

كان حافظ تواقا إلى رؤية الناس جميعا ينعمون بحياة ، لا يتهددهم فيها جوع أو عري أو خوف ، غير تلك التي جرّبها ومازال يعاني وخْز ندوبها . وكان تجاوبه مع النوائب سريعا ، كأنما كان يترصّدها أويتوقع حدوثها . فإذا تعرّض الناس لطارئ مفزّع أو حادث مروّع ، أهمّ نفوسهم وأقضّ مضاجعهم ، هُرع يلملم بشعره أشتات نفوسهم ، ويرتق بكف حانية ما تناثر من أشلائها. ولايعدم حافظ في مثل هذا الحادث أو ذاك ، استهلالا مؤثرا يستعين فيه وسائل التأثير المختلفة التي يجيد استعمالها ، من لفظٍ يجيد سبكه في قالب مناسب ، وصورة يتقن تضخيم ملامحها ، يستفز بذلك نفوس الناعمين من أثرياء المجتمع ويحرّك ساكنها ، لمجابهة الخطب وللتخفيف من آثار تلك الحوادث . فيقول مستهلاً حديثه عن أهل (ميت غمر) الذين دهمتهم النار ثمانية أيام متواصلة، أتت فيها على كل شئ :[٩]

سائلوا الليل عنهمُ والنهارا كيف باتت نساؤهم والعذارى ؟

كيف أمسى رضيعهم فقد الأمّ؟ وكيف اصطلى مع القوم نارا ؟

كيف طاح العجوز تحت جدارٍ يتداعى وأسقف تتجارى ؟

...إلخ

ووصفه ضراوة الحادث يشغل ثلاثة عشر بيتا في مستهل القصيدة . وفيه عرف

كيف يستميل القلوب إلى ضحايا الحريق ، مرةً بحسن اختيـاره المنكوبـين الذيـن يقـدر بالحديث عنهم على تحريك المشاعر ، ومرة أخرى بالمبالغة والتهويل في وصف الدمـار الذي لحق بالمدينة . ففي الجانب الأول لم يعرض أمام عيوننا غير صور الضعاف الذيـن شرّدهم الحريق وتخطف ذويهم ، من نساء وعذارى ، وشيوخ وأطفال رضّع . وإذا لم يهزّ بهؤلاء الضعاف نخوة الناس ويرقق قلوب الجفاة منهم ، فبمن يهـزّ ويرقـق؟ . وفي الجانب الآخر ، يصف هول النار وآثارها فيبالغ في الوصـف ، إذ لكـل مقـام مقـال ، ولكل حادثة حديث ، ومسلك الناس تجاه الخطب الجسيم ، ليس كمسلكهم تجاه الحدث خفيف الوطأة هين الوقع . وهل هناك نارٌ أشد ضراوة من نارهذا الحريـق الـتي لا يروي ظمأها سوى طوفان نوح :

أين طوفان صاحب الفُلْك يروي هذه النـار فهي تشكو الأُوارا
أكلـت دُورَهم فلـمـا استقـلـتْ لم تـغادر صغارهم والكبـارا
أخـرجتـهم من الـديـار عُراةً حـذر الـموت يطلبون الفـرارا

فإذا تحقق لحافظ ما يريد من عرض جوانب المأساة ، وأحس أنه بماعرض قد هيأ نفوس السامعين لفعل الخير ، استدار إلى القادرين يتعجل نجدتهم :

أيهـا الرافـلون في حُلـل الوشـ ـي يـجرّون للذيـول افـتخارا
إن فـوق العـراء قـومـا جياعا يـتـوارون ذِلّـة وانكسـارا

...إلخ

وتتسع عاطفة حافظ إنسانية ورحمة ، فتتخطى حدود مصر والعالم العربي والإسلامي. فإذا وقع زلزال (مِسِّينا) ، وجدنا له موقفا مثل موقفـه مـن حريـق ميـت غمـر ،وقـولا أشبه بالقول ، ووجدناه يتوجه إليها بخالص العزاء ، ويهيب بكل قـادر لتقديـم العـون لإخوانه في الإنسانية ، يراه حقا لا إحسانا :[١٠]

فسـلامٌ عليـكِ يـوم تـولّيْـ ـتِ بما فيكِ من مغانٍ حسانِ
وسلامٌ على امرئٍ جاد بالدمـ ـع وثَنّى بالأصـفر الرّنـانِ

ذاك حق الإنسانِ عند بني الإنـــ ـــسانِ لم أدعكم إلى إحسانِ

وهكذا تتبدّى أمام أعيننا في أوقات الشدة ، عاطفة الشاعر وإنسانيته ، يغذوهما قلب رحيم ، ونفس كابدت الكثير من عنت الحياة .

ولأن حافظ يدرك ما يفعل الفقر والجوع بالمرء إذا عزَّ القوت ، وقف يهتف بأولي الأمر لمواجهة غلاء الأسعار الذي تعرضت له البلاد إبّان الحرب العالمية الأولى ، وصار يهدد أبدان الناس وأرواحهم :(١١)

أيها المصلحون ضاق بنا العيـــ ـــش ولم تحسنوا عليه القياما

عزّت السلعة الذليـــلة حتى بات مسْح الحذاء خطبا جساما

وغدا القوت في يد الناس كاليا قوت حتى نوى الفقير الصياما

أيها المصلحـون رفـقا بـقومٍ قيّد العجز شيخهم والغلاما

وأغيثـوا من الغـلاء نفوسـا قد تمنت مع الغـلاء الحماما

ولايفوت الباحث أن يقرّ في هذا المقام بفضل حافظ وتفوقه في تناول هذا الأمر على شوقي الذي جاء حديثه عنه عرضا في إحدى قصائده .(١٢)

ولم تقتصر جهود حافظ في استمالة القلوب الرحيمة على ما صاغه من شعر في مناسبات البر ، فقد راح في مدائحه ومراثيه يثني على جهود المخلصين من الأحياء والموتى ، ولا يدع فرصة إلا جدد فيها الدعوة لإتيان الخير .

حافظ وقضايا المجتمع

لكل مجتمع قضاياه التي تستحوذ على اهتمام الناس فيه . وقد انشغل جيل حافظ إبراهيم بعدد من القضايا الاجتماعية الهامة ، كان على رأسها : قضية الوحدة الوطنية بين المسلمين والأقباط ، وقضية تطوير التعليم ، ثم قضية تحرير المرأة . وكانت كل قضية تستأثر فترة من الزمن ، باهتمام المفكرين والأدباء وولاة الأمر ، ثم تختفي أو تهدأ ، لتظهر أخرى تحل محلّها وتشد الناس إليها . كما كان لكل قضية جوانبها

الحسّاسة التي تتطلب فيمن يتصدى لها رفقا وكياسة .

الوحدة الوطنية والتسامح الديني

كانت الوحدة الوطنية ومازالت أهم القضايا وأشدها حرجا في حياة المصريين. والاختلاف بين العقائد في أي مجتمع ، بابٌ يمكن لقوى الشر أن تدلف منه ، إذا لم يُحكم غلقه . ومن يوم لآخر يتجدد الصراع في مجتمعات عديدة بسبب ما بين أبنائها من اختلاف في الأجناس والعقائد والألوان والتوجّهات ، ولا سبيل لقتل هذه العصبيات الضاربة بجذورها في أعماق النفس البشرية ، وإن كان من الممكن ضبطها وكبح جماحها . إن الخصومة تقع بين رجلين تجمعهما عقيدة واحدة وعرق واحد ، تكون أشد أثرا لو وقعت بين مختلفيْن ، لميل بعض النفوس بسبب هذا الاختلاف ، إلى قبول كل تأويل ينمّي فيها الإحساس بالهضم . هذا قدر المجتمع المصري وغيره من المجتمعات التي تلتقي فيها أصول متباينة وعقائد مختلفة .

وقوى الشر التي تتربص بهذه المجتمعات ، تتحينّ الفرص المناسبة لتنفخ فيما يطفو على السطح من خلاف فتضخمه ، وتسكب عليه وقودا من شرورها ، فإذا استبطأت الفرصة ، هيأت التربة ، وألقت بذرة الشقاق ووقفت ترقب نموها وتساعد عليه . وهكذا كانت سياسة الإنجليز في مصر ، يؤججون نار الخلاف ، ويختلقون الأزمات بين طوائف الأمة .

ولأدباء مصر وأصحاب الكلمة المسموعة فيها ، مواقف مشرفة في كل ما تعرضت له من عوادي الفرقة بين المسلمين والأقباط ، فنراهم يحدثون الناس عن سماحة الأديان ، ويُذكّرونهم بتاريخ مصر الحافل بتآلف الصليب والهلال . وقد تفنن الشعراء في رأب الصدع ولم الشمل ، حتى بلغ الأمر بأحدهم إلى حدّ قوله ، رغبةً منه في إخماد نار العصبية :(١٣)

ما الدين إلا تراثُ الناس بينهمُ　　　كلُّ امرئ لأبيه تابعٌ تالِ

ومتى صارت حقيقة التديّن عند الإنسان كحقيقة الإرث ، لا اختيار للمرء فيما يدين به أو يرثه ، فإنه لايحق للناس أن يجعلوا الدين سببا في تخاصمهم وتمزيق شملهم . وبتعبير آخر يرى الشاعر أن الدين مثل القدر الذي يصيب الإنسان ، فهو لا يختار دينه كما لا يختار قدره . مثل هذا الرأي الحاد في الدين ، كان سيلقَى رفضا لو ظهر في غير ظروف الفتنة الطائفية ، التي تبرره وتدفع إليه ، فالغاية-كما يرى بعضهم-تبرر الوسيلة .

وفي غمرة الفتنة الطائفية أيضا راح شعراء كثيرون يدعون الطرفين ، مسلمين وأقباط إلى استبدال وحدة الوطن التي تجمع شملهم بثنائية الدين التي تُفسد أُلفتهم . فلتكن الأرض التي يعيشون عليها دينا لهم جميعا يغارون عليه ويذودون عنه . أما عقائدهم السماوية فمردها إلى الله ، الذي لو شاء لجعل الناس أمة واحدة على دين واحد .

ويسجل تاريخ الأدب المصري الحديث لشوقي ، دعوته المبكرة للوحدة الوطنية التي تقي مصر عادية الفرقة وسعايات المغرضين ، فقد وقف في عام ١٩٠٦م منكرا دعاوى التجزئة التي توهن عزم الأمة :(١٤)

يا بني مصر ، لم أقل أمة القبـ ... ـط ، فهذا تشبّثٌ بمحالِ

واحتيالٌ على خيال من المجـ ... ـد ودعوى من العِراض الطوالِ

وراح يذكّر المصريين بما كانوا يتقاسمونه عبر الأجيال من لقمة العيش ، وقليل النعيم وكثير البؤس ، لا تختص فئة من ذلك بشيء دون الأخرى ، ثم يردّهم إلى أبوّتهم الأُولى، والأصلِ الذي لا اختلاف فيه ، إلى (النيل) الذي سبق (آدم) وجميع الأديان :

إنما نحن مسلمين وقبطا ... أمةٌ وُحّدت على الأجيالِ

سبق النيل بالأبوّة فينا ... فهو أصلٌ وآدم الجدُّ تالِ

وتتابع الشعراء يدعون لهذا الأمر ، وكان لحافظ إسهام بارز . وكيف لا يكون له هذا الإسهام وقد كان على مودة مع كثير من الأقباط ، أدباء ومفكرين وساسة ، تجمعه

بهم المحافل وليالي السمر ، فيطارحهم الفكر والشعر والنادرة ، وإذا غاب عنهم افتقدوه وتسمعوا أخباره(١٥) . وكان يفهم أن اختلاف الدين لا يجب أن يكون سببا في تكدير الحياة بالتحزّب وإثارة الفتن ، وأنه لا يتورط في ذلك إلا غافل لا يعقل أمر دينه . لهذا كان شعره يعبر عن عجبه ودهشته قبل حسرته ، لما يترامى إلى أذنيه من أنباء الفرقة بين شطري المجتمع ، بل لكل نظرةٍ متطرفة قد تؤدي إلى هذه الفرقة . بمثل هذا الفهم الراقي والإحساس الصادق ، وجدناه يستحث الخديوي عباس الثاني في الأبيات التالية على سرعة المبادرة لسد خلل ظهر في تآلف عنصري الأمة(١٦) :

مولاي أُمتك الوديعة أصبحتْ — وعُرى المودة بينها تتفصّمُ

نادى بها القبطيُّ ملءَ لهاتهِ — أنْ لا سلامَ وضاق فيها المسلمُ

وهَمّ أغار على النهى وأضلها — فجرى الغبيُّ وأقصر المتعلمُ

فهموا من الأديان مالا يَرتضي — دينٌ ، ولا يرضى به من يفهمُ

ولا يني حافظ يهيب بالمسلمين والمسيحيين في كل بلد عربي ، لا في مصر وحدها ، أن يطهروا قلوبهم من الأحقاد ، فيقول لأبناء لبنان(١٧):

ياقومَ إنجيل عيسى — وأمةَ القرآنِ

لا تقتلوا الدهر حقدا — فالملك للديّانِ

وبمثل هذه الروح المتسامحة التي تتجاوز حدود الدين ، راح حافظ يرثي صديقه الدكتور (شبلي شميل) وينوّه بأخلاقه الفاضلة ، ثم يرد على أُناس توقع استنكارهم ذلك منه ، لما كان المرثي يبديه من آراء تمس العقيدة الإسلامية(١٨):

قيل :ترثي ذاكَ الذي ينكر النو — ر ولا يهتدي بهدي الكتابِ ؟

قلت : كفّوا فإنما قمت أرثي — منه خِلّا أمسى طويلَ الغيابِ

أنا أرثي شمائلا منه عندي — كنّ أحلى من الشّهاد المُذابِ

كان حرّ الآراء لا يعرف الختـ — ـل ولايستبيحُ غيب الصّحابِ

مُفضلاًمحسنا على العسر واليسـ ـر جميعَ الفؤادِ ، رحْبَ الجنابِ

...إلخ

فعبر حافظ في رده عن عاطفة رحبة ، اتسعت لتضم ذوي الخصال النبيلة على أي عقيدة كانوا ، مستبدلة بالمعايير والقيم التي تفرّق ، معايير وقيما إنسانية وأخلاقية يمكن أن توحد بين بني الإنسان في كل صقع وزمان . يرى حافظ أن هذه القيم الجديدة التي تطرح من بينها العصبية الدينية والعرقية ، يمكن أن توحّد المستضعفين في أمم الشرق أدناها وأقصاها ، لدرء خطر الغرب الطامع في ثرواتهم ، المتحكم في حريتهم (١٩):

متى أرى الشرق أدناهُ وأبعدهُ عن مطمع الغرب فيه غير وسنانِ

تجري المودة في أعـراقهِ طُلُقا كجرية الماء في أثـناء أفـنانِ

لافرق مابين بوذيّ يعيش بهِ ومسلمٍ ويـهوديّ ونـصـراني

لهذا كان حافظ في شعره كثير الثناء على انتصارات اليابان في الحرب والعلم ، يعتد بانتصارها وليست على مثل ديننا ، ويعدّه نصرا لأمم الشرق المغلوبة على أمرها . فإذا كان هذا القول يمثّل رؤية حافظ وتسامحه ، وحرصه على تحقيق وحدة كبرى تشد عزم الشعوب في مواجهة القهر ، فإن حرصه على تحقيق الأُلفة بين أبناء وطنه أشد، وقد سعى كثيرا في سبيل تحقيقها يعضده رفقاؤه من كتاب وشعراء .

قضية تطوير التعليم

ظل الأزهر قرونا طويلة منارة العلم الوحيدة التي تشع نورها في أنحاء مصر ، ويؤمه من حين لآخر طلاب العلم من مختلف الأقطار الإسلامية . وكانت الكتاتيب الكثيرة المنبثّة في أنحاء البلاد ، هي الروافد التي تصب في صحنه الواسع ، ما يتجمع فيها من ناشئة مصر الراغبين في استكمال تعليمهم الدينيّ . فلما احتك المصريون بالغرب مرّتين في الحملة الفرنسية تارة وفي الاحتلال الإنجليزي تارة أخرى ، أيقنوا ألا سبيل إلى ترقية أحوال البلاد ، بغير إدخال تلك العلوم الحديثة التي كانت وراء ما

شاهدوه من مظاهر المدنية الغربية . لهذا بادر (محمد علي) بإرسال البعثات العلمية إلى فرنسا ، وأنشأ وبعض أبنائه عددا من المدارس ، التي تركز جهودها في تقديم معارف العصر التي طالعوا آثارها في بلدان أوروبا . ولكن هذه المدارس كانت من القلة بما لا يفي بحاجة البلاد ، فسعى المخلصون إلى التوسع في إنشائها ، ثم تطلعوا إلى إنشاء جامعة تضم عددا من الكليات المتخصصة في مجالات الحياة المختلفة ، للارتقاء بالناس ثقافيا وصحيا واقتصاديا . لم يَرُق هذا السعي للإنجليز ، الذين حرصوا على إبقاء الناس فيما هم فيه من جهل بسبل الحياة الراقية ، لئلا يكون شيوع التعليم بينهم وارتقاؤهم سببا في دفع تيار التحرر إلى غاية لا تمكنهم من مقاومته . لهذا راحوا يقاومون بشدة فكرة إنشاء هذه الجامعة ، بدعوى أن عقول المصريين غير مهيئة لاستيعاب علوم العصر ، وبدلا من الجامعة حثوا على نشر المزيد من الكتاتيب في مدن وقرى مصر.

وقد فطن مفكّرو مصر وأصحاب القلم فيها لما يرمي إليه المحتل ، فأصرّوا على تحقيق مطلبهم ، وحشدوا الطاقات وحفزوا همم الأثرياء للعطاء ، وعدّوا مساهمتهم في تأسيس هذه الجامعة ، جهادا وطنيا ، بل واجبا دينيا لا ينبغي التقصير فيه . وتدافع المصريون بالمناكب ، كلّ يمد يده بما يقدر عليه ، فجاد بعضهم بالأرض ، وجاد آخرون بالمال .

وفي المحافل العديدة التي أقيمت لتأييد هذا المشروع ، انبرى الشعراء يحذّرون من محاولات الإنجليز لصرف الهمم عن هذا الأمر ، ومن دعوتهم إلى نشر الكتاتيب في كل مكان بدلا من الجامعة . وكان حافظ في طليعة هؤلاء الشعراء ، وأعلاهم صوتا في التحذير(٢٠):

ذَرَّ الكتاتيب مُنشيها بلا عددٍ ذرَّ الرمادِ بعين الحاذقِ الأرِبِ
فأنشأوا ألف كُتّاب وقدعلموا أن المصابيح لا تُغني عن الشهبِ

وراح يبيّن عجز هذه الكتاتيب عن الارتقاء بأحوال الناس ، لأنها كما وصفها في

(ليالي سطيح) تقدم تعليما ناقصا ، لايتضمن مهارة تفيد منها الأمة :

هَبوا الأجير أو الحرّاثَ قد بلغا   حدّ القراءة في صحفٍ وفي كتبِ
مَن المداوي إذا ما علةٌ عرضت ؟   مَن المدافع عن عرض وعن نشب ؟
ومَن يروض مياه النيل إن جمحت   وأنذرت مصر بالويلات والحربِ ؟
ومَن يوكّل بالقسطاس بينكمُ   حتى يرى الحق ذاحول وذا غلبِ ؟
ومَن يبز أديم الأرضِ ماركزتْ   فيه الطبيعة من بِدْع ومن عجبِ ؟
...إلخ

فالكتاتيب لا يتخرج فيها الطبيب ، ولا الضابط ، ولا المهندس ، ولا رجل القانون ، ولا الخبير بما هو مركوز في باطن الأرض من كنوز . وفي ختام قصيدته الطويلة الملأى بالحث والتحذير والتأميل ، يعلن مساهمته في هذا العمل الجليل ، داعيا الحضور إلى الاقتداء به :

هذا هو العملُ المبرورُ فاكتتبوا   بالمال إنّا اكتتبنا فيه بالأدبِ

و لم يمر عام على دعوته هذه ، حتى وقف في حفل آخر نُظّم لهذا الغرض ، يُحي الناس ويجدد عزمهم لهذه الجامعة ، ويصرفهم عن دعاوى (كرومر) الباطلة، التي اتهم فيها عقول المصريين وقدرتهم(٢١):

ضعوا القلوب أساسا لا أقول لكم   ضعوا النُضار فإني أُصغِر الذهبا
وابنوا بأكبادكم سورا لها ودعوا   قِيل العدوّ فإني أعرف السببا
لا تقنطوا إن قرأتم ما يزوّقهُ   ذاك العميد ويرميكم به غضباً
...إلخ

ولا يكتفي حافظ في تحفيز همم الحضور بالحض والوعظ ، وإنما راح يستثير وطنيتهم من خلال تقديم القدوة الحسنة والمثل الأعلى . ومَن تُرى يكون القدوة ويكون المثل؟ غاص الشاعر في التاريخ ثم وقع على موقف نساء (قرطاجنّة) الشهير في حربها مع الرومان ، فكان خير قدوة وأفضل مثل ، يحض به المصريين على الجهاد . ذلك أن

أسطول (قرطاجنّة) تعطّل في تلك الحرب لعدم وجود الحبال اللازمة لتسيير السفن ، فما كان من النساء إلا أن جززن شعورهن الطويلة ، واتخذن منها أمراسا دفعت بالسفن الرواكد لملاقاة العدو حتى تحقق النصر :

هل جاءكم نبأ القوم الأُلى درجوا ... وخلّفوا للورى من ذكرهم عجبا

عزّت(بقرطاجة)الأمراس فارتهنت ... فيها السفين وأمسى حبلهااضطربا

والحرب في لهب والقوم في حرب ... قد مد نقع المنايا فوقهم طُنبا

هنالك الغيد جادت بالذي بخلت ... به دلالا فقامت بالذي وجبا

جزّت غدائر شعر سرّحت سفنا ... واستنقذت وطنا واسترجعت نشبا

وزادها ذاك حُسنا وهي عاطلةٌ ... تزهى على من مشى للحرب أو ركبا

فإذا كان هذا صنيع النساء ، فماذا تنتظر مصر من رجالها وتضحياتهم ؟

لم يقصر حافظ دعوته لهذا المشروع على شعره . فنراه في (ليالي سطيح) ينعى على المصريين إرسالهم أبناءهم للتعلّم بإحدى كليات (بيروت) ، وعجزهم عن إيجاد مثلها في مصر ، يقول[٢٢]:

" أليس من العار أن تكونوا أكثر مالا وأعز نفرا ولا تجدوا في مصر لتعليم أولادكم مستقرا . وليست بيروت بأخصب من عروس النيل أرضا ولا بأوسع من ملك مصر طولا وعرضا . أيعجز في مصر عشرة ملايين من النفوس عن بناء كلية ويظفر عشر معشارهم في بيروت بنيل تلك الأمنية "

وأخذ ينحى باللوم على تلاميذ الأستاذ الإمام محمد عبده الذين علموا ألاّ حياة للأمة بغير الجامعة و لم يواصلوا قرع آذان الأغنياء وذوي السلطان لإنفاذها . كما ظل يؤكد أن (الكتاتيب) لن تُغني غناء الجامعة التي تقدّم نوعا راقيا من التعليم المدني اللازم لكل نهضة ، وأن الحكمة تقضي بأن يحافظ الشعب على (الكُتّاب) ، ويسعى لإنفاذ الجامعة [٢٣].

ويستمر حافظ في تعنيف أهل الرأي في البلاد . ليس لما أحسه من فتور همتهم

فحسب ، وإنما لاكتفائهم أيضا بنسبة كل أدواء مصر إلى الإنجليز ، يقول :
"فمالكم تنحون باللائمة على رجال الاحتلال وأنتم أصل ما أنتم فيه من البلاء...فما عساهم أن يصنعوا بكم إذا قام لفيف من أغنيائكم وتساندوا بأموالهم على تأسيس كلية ، أو ما عساهم أن يصنعوا بكم إذا خصص هؤلاء الأغنياء جوائز للفائزين في العلوم وأرصدوا جعالات لكل بارع في صنوف التأليف أو معرّب لتلك التصانيف التي ضاقت بها رحاب المغرب وأقفرت منها مكاتب المشرق "(٢٤)

لم تضِع جهود حافظ وغيره من دعاة الإصلاح ، إذ تحقق الحلم وتم تأسيس جامعة (فؤاد الأول) ، فاكتحلت برؤيتها عيناه قبل أن يطبقهما في رقدته الطويلة سنة ١٩٣٢م .

قضية تحرير المرأة

تحرير المرأة ، آخر ما نتناوله من القضايا الاجتماعية التي كان لحافظ صوت فيها. ومنذ أصدر قاسم أمين كتابه (تحرير المرأة) مطالبا فيه برفع حجابها ، والمفكرون والأدباء وعلماء الإسلام في جدل شديد حول هذا الموضوع ، بين مؤيد ومعارض ، كلٌّ يرى رأيه ويقدم حججه . وسرت الدعوة في أقطار الوطن العربي سريان النار في الهشيم . وكثر حديث الشعراء في هذا الأمر ، وعلت أصواتهم بين رافض ومشايع . فماذا كان موقف حافظ إبراهيم ؟

كان حافظ يطالع على صفحات الجرائد ، مايدور من معارك ، ويرى ما يتعرّض له قاسم أمين من طعن كثير ، وما يحظى به من تأييد قليل . وكانت ظروف المجتمع المصري والمجتمعات العربية ، لا تساعد آنذاك على أن يجهر واحد بمثل هذه الدعوة التي تصادم في وجوه منها أحكام الدين ، وتأباها الأعراف والتقاليد وحميّة الرجل العربي وغيرته . وحافظ -كما ذكرنا من قبل - قد راضته ظروف حياته على أن يُطامن إذا لزم الأمر ، أو يهادن ويداور بُغية أن يعيش هادئ النفس . ولأنه يعلم

أنّ التوسّط في هذه القضية الهامة قد يُجنبه سخط الرافضين ، وجدناه لا يميل ميلا حادا إلى أحد الطرفين ولا ينصر فئة على أخرى ،وإذا صدر عنه رأي فهمه الناس على أنه ترجيح لإحدى الكفتين ، سرعان ما يستعيد التوازن برأي آخر ، يعمّي على الأول ، فيلتبس الأمر على الجانبين ، ولا يدريان ، مؤيد هو أم معارض ؟ . ونحاول فيما يلي استخلاص رأي واضح محدد له ، وهو يقف في هذا المنعطف الاجتماعي الهام ، الذي أدى إلى تغيير كثير من الأعراف والأنماط السلوكية على مستوى الفرد والأسرة والمجتمع .

يرثي الشاعر قاسم أمين فيقول له[٢٥]:

إن ريْتَ رأيا في الحجاب ولم	تُعصَم ، فتلك مراتبُ الرُّسُلِ
الحكْمُ للأيام مرجعهُ	فيما رأيتَ ، فنم ولا تسلِ
وكذا طُهاة الرأي تتركهُ	للدهر ، يُنضجهُ على مَهلِ
فإذا أصبتَ فأنت خير فتًى	وضع الدواء مواضعَ العِللِ
أوْ لا ، فحسبك ما شَرُفتَ بهِ	وتركتَ في دنياك من عملِ

ونلاحظ من حديثه أنه لم يزد على أن وصف صاحب الدعوة بأنه غير معصوم من الزلل ، ووصف الدعوة بأنها تحتمل الصحة كما تحتمل الخطأ ، والأيام وحدها كفيلة بأن تثبت للناس إن كان صاحبها على صواب أو خطأ . وبهذا جنّب الشاعر نفسه الحكم عليها ، واتخاذ موقف محدد منها .

لكن الشاعر بعد هذا القول بعامين ، يجهر بتأييد بعض ما دعا إليه قاسم أمين من أمور لا تثير حفيظة المحافظين ، مثل تعليم المرأة و الاهتمام بتثقيفها ، لتنتفع بذلك في رعاية بيتها وأولادها ، بينما رفض السماح لها بأن تخوض سافرة معترك الحياة تزاحم الرجال وتفعل فعلهم ، متحررة من كل قيد ورقيب[٢٦]:

مَنْ لي بتربية النساء ؟ فإنها	في الشرق علّة ذلك الإخفاقِ
الأم مدرسةٌ إذا أعددتها	أعددتَ شعبا طيبَ الأعراق

الأم روضٌ إن تعهّده الحيا بالرّي أورق أيّما إيراقِ

أنا لا أقول دعوا النساء سوافرا بين الرجال يَجُلن في الأسواقِ

يدرُجن حيث أردن لا من وازعٍ يحذرن رُقبتهُ ولا من واقِ

يفعلن أفعال الرجال لواهيا عن واجبات نواعس الأحداقِ

ولعل حافظ ـ وقد كان يلقي هذه القصيدة في حفل لصالح تعليم البنات ـ لعله خشى أن يفهم أنصار المرأة ، وبخاصة النساء ، أنه يرى ألاّ تبرح المرأة بيتها وأن تظل رهينة فيه ، بدعوى القيام على شئونه ، فوجدناه حريصا على أن يوضّح مقصده :

كلاّ ، ولا أدعوكُمُ أن تسرفوا في الحجْب والتضييق والإرهاقِ

ليست نساؤكم حُلّى وجواهرا خوف الضياع تُصان في الأحقاقِ

ليست نساؤكم أثاثا يُقتنى في الدور بين مخادعٍ وطباقِ

فتوسطوا في الحالتين وأنصفوا فالشر في التقييد والإطلاقِ

كان حافظ وشوقي أقل جرأة في مناصرة الدعوة من شعراء آخرين مثل (الرّصافي) و(الزهاوي) فقد ناصرا قاسم أمين بمواقف صريحة لا لبْس فيها ، عرضتهما لانتقادات حادة ، وبخاصة (الزهاوي)الذي مضى في مناصرة هذه الدعوة شوطا بعيدا وصرّح بآراء جريئة .

وجد حافظ أن الطريق الآمنة لمناصرة المرأة في هذه القضية ، أن يدعو إلى تعليمها وأن يشيد بجهودها في مجالات خاصة من النشاط الاجتماعي هي : رعاية الأطفال وكفالة الأيتام ، والتمريض ، حتى أنها لتقدّم للرجل في هذه الميادين القدوةالصالحة والنموذج الأمثل . وفضلا عن ذلك راح يصف تأثيرها القوي في نفس الرجل ، وما تمدّه به من طاقة روحية تدفعه إلى الأمام ، وتحسّن طباعه وأخلاقه . ولم يكن الشاعر مبالغا في وصف هذا التأثير حين قال[٢٧]:

أي ذواتَ الحجال، عشتن للبرّ ودُمتنّ قدوة للرّجالِ

لم يكونوا ليدركوا المجد لولا كُنّ أويسلكوا سبيل المعالي

بسمة تجعل الجبان شجاعا   وتعيد البخيل أكرمَ نالِ

و لم يكتف الشاعر بالحديث عن تفوق المرأة في ميدان الخدمة الاجتماعية وعن قوة تأثيرها في نفس الرجل ، فأخذ يصف شجاعتها في الذود عن قضايا وطنها واستعدادها للتضحية في مواطن الفداء . ويسعفه الواقع المصري بالمثال الحي ، كما أسعفه التاريخ القديم من قبل بموقف نساء (قرطاجنة) ، فيصف كيف تصدّت (صفية زغلول) بحشد كبير من النساء لجنود الاحتلال ، فتحركت نخوة الرجال وتفجّر بركان الغضب يرمي الإنجليز بحممه حيث كانوا على أرض مصر(٢٨):

صنعتُنّ ما يُعي الرجال صنيعُه   فـزدتُـنّ في الخيرات والبركاتِ

وفي السنة السوداء كنتن قدوةً   لنا حين سال الموت بالمهجاتِ

وقفتن في وجه الخميس مدججا   وكنتن بالإيمان معتصماتِ

وماهالكُنّ الرمح والسيف مُصّلتا   ولا المدفع الرشاش في الطرقاتِ

تعلّم منكن الرجال فأصبحوا   على غمَرات الموت أهلَ ثباتِ

(صفيّةٌ) قادتكن للمجد والعلا   كما كان(سعدٌ) قائد السّرواتِ

ويؤكد حافظ في القصيدة نفسها صحة قولهم : " وراء كل عظيم امرأة " بما يصف من مؤازرة (صفية زغلول) زوجها في نضاله ، ووقوفها إلى جانبه تهوّن عليه كل صعب من أمر الجهاد :

عرفنا لها في مجد (سعدٍ) نصيبها   من الحزم والإقدام في الأزماتِ

تهوّن للشيخ الجليلِ هجومهُ   على الهول بالتشجيع والبسماتِ

وتدفعهُ للموت والثغرُ باسمٌ   وفي صدرها نوْءٌ من الزفراتِ

وكأن الشاعر أراد أن يقول للذين يعارضون تحرير المرأة ، إن امرأة مثل السيدة (صفية) تملك من علوّ الهمة وقوة الإرادة ما لا يمتلكه كثير من الرجال ، لا ينبغي للرّجل أن يحدّ من حرّيتها ونشاطها ، فيحرم المجتمع ثمرة جهودها وخدماتها .

وحافظ إبراهيم الذي لم يصرح بتأييده دعوة قاسم أمين فيما ألقى على مسامع

الناس من شعر ، كان في (ليـالي سـطيح) أعلـى صوتـا في تـأييد هـذه الدعـوة ، لكنـه يسلك كعادته دروبا ملتوية كلما همّ برأي يعرّضه للمتاعب . فنراه يُجري آراءه مـرة على لسان (سطيح) ، ومرة على لسان (قاسم أمين) ، أما هو فمجرد نـاقل لما يسـمع من حديث الرجلين . يقول على لسان (سطيح) لـقاسم أمين ، يعزّيه على ما يلقى من عنت بسبب دعوته :

" صـاحب مذهـب جديـد ورأي سـديد . دعـا القـوم إلى رفـع الحجـاب ، وطـالبهم بالبحث في الأسباب . فألقوا معه نقاب الحياء وتنقّبوا من دونه بـالبذاء . أي فـلان إذا مضت على كتابك خمسون حِجّة وظهر لذى العينين إدلاؤك بالحُجة ، تكفّل مسـتقبل الزّمان بإقامة الدليل والبرهان . فلعل الذي سخّر لجماعة الرقيق والخصيان من أنقذهـم من يد الذل والهوان ، يسخر لتلك السجينة الشرقية والأسيرة المصرية من يصـدع قيـد أسرها ويعمل على إصلاح أمرها . أوصى نبينا بالضعيفين : الرقيـق والمـرأة ، فخالفنـا وصيته ولم نتبع سنته ...فقيّض الله لـلأول مـن أعدائنـا مـن دعـا إلى عتقـه ، ... وتـا لله ليأتينّ يوم تقوم فيه النساء الغربيّات تطالب برفع الحجاب عـن أخواتهـن الشـرقيات . وهناك يعرفون قدر كتابتك ، ويقدّرون مقدار خطئهم مـن مقـدار صوابـك . فـانتظر وإن طال الأمر ، ولا تبخع نفسك أسفا على أثر القوم ، فـإنهم أقـل العـالمين شـكرانا وأكثر خلق الله كفرانا "(٢٩)

واستمر حافظ ، يصف على لسان (سطيح) ، استهانة المصريين بقدر المـرأة وتحقـيرهم شأنها مهما أتت من جلائل الأعمال ، ثم انتقل إلى (قاسم أمين) فتمثله أمامه يرد على خصومه الذين ادّعوا أن سفور المرأة سـيؤدي إلى شـيوع الفواحـش ، ففنّـد دعواهـم، وقدّم الدليل على أن فجور المرأة محجّبة أيسر عليها منه وهي حرّة سافرة(٣٠).

وهكذا يتكشف لنا من نثر حافظ موقف محدّد من الدعـوة ، وإن احتـاط وتخفّـى مـرة خلف (سطيح) وأخرى خلف (قاسم أمين) ، تهرّبا مـن المواجهـة الصريحـة الـتي كـان دائما يخشاها ويحسب حسابها في كل أمور حياته .

هوامش الفصل الثالث

(١) ديوان حافظ إبراهيم ج١ ص ٣١٠

(٢) المرجع السابق ج١ ص ٢٩٢

(٣) المرجع نفسه ج١ ص ٣١١

(٤) المرجع نفسه ج١ ص ٢٨٧

(٥) المرجع نفسه ج١ ص ٣٠٨

(٦) المرجع نفسه ج١ ص ٢٦٤

(٧) المرجع نفسه ج١ ص ٣٠٦

(٨) المرجع نفسه ج١ ص ٣٠١

(٩) المرجع نفسه ج١ ص ٢٥٠

(١٠) المرجع نفسه ج١ ص ٢١٧

(١١) المرجع نفسه ج١ ص ٣١٦

(١٢) الشوقيات ج١ ص ٦٧

(١٣) المرجع السابق ج٣ ص١٢٥.

(١٤) المرجع نفسه ج١ ص ١٨٩

(١٥) انظر:جمال الدين الرمادي،من أعلام الأدب المعاصر (القاهرة – دار الفكر العربي – بدون تاريخ) ص ٢١٨

(١٦) ديوان حافظ إبراهيم ج١ ص ٢٩١

(١٧) المرجع السابق ج١ ص ٧٣

(١٨) المرجع نفسه ج١ ص ١٨٢

(١٩) المرجع نفسه ج١ ص ١٣٩

(٢٠) المرجع نفسه ج١ ص ٢٦٥

(٢١) المرجع نفسه ج١ ص ٢٧٢.كان (كرومر) معتمدا بريطانيا في مصر زمن الاحتلال

(٢٢) ليالي سطيح ص ١٩

(٢٣) المرجع السابق ص ١٢٤

(٢٤) المرجع نفسه ص ١١٦-١١٧

(٢٥) ديوان حافظ إبراهيم ج٢ ص ١٥٨

(٢٦) المرجع السابق ج١ ص ٢٨٢

(٢٧) المرجع نفسه ج١ ص ٣١٠

(٢٨) المرجع نفسه ج١ ص ١٣١

(٢٩) ليالي سطيح ص ١٠

(٣٠) المرجع السابق ص ٨

الفصل الرابع

شعره الوطني والقومي

يقول حافظ :[1]

فعلّموا كلّ حي عند مـولدهِ عليـك لله والأوطـانِ دَيْنـانِ
حتْمٌ قضاؤهما ،حتْمٌ جزاؤهما فارباْ بنفسك أن تُمنَى بخُسرانِ

لا تتجمع صفوف الشعب ويتلاحم أبناؤه، مثلما تتجمع في أوقات الشدة، ويتلاحمون في مواجهة النوازل التي تلم بهم، فإذا كل شخص يلوذ بالآخر ليقوّى به فيُقوّيـه، وإذا الشعب الذي كان بالأمس متعدد الفئات موزَّع الرغائب والاتجاهات، قد أصبح جبهة واحدة، متوافقة الشعور، تدرأ عن نفسـها مـا يتهددهـا مـن أخطـار. وقـد استخلص شوقي هذه الحقيقة الإنسانية والاجتماعية وأودعها قوله:[2]

* إن المصائب يجمعن المصابينا *

وفي تاريخ مصر الحديـث وحّـدت الحملـة الفرنسية قـوى الشـعب المصـري في ثورتين عظميين، أدرك بعدهما الفرنسيون ألّا بقـاء لهـم، ووحّـد الاحتـلال الإنجليزي فئات المصريين ونفوسهم في إحساس واحد،وغاية واحدة، هما بُغض المحتلّ الغـاصب، والعمل على الخلاص منه.

وفي كل ما تتعرض له الأمم من محن وأزمـات، تـبرز مـن بـين صفوفهـا سـواعد ترفع راية النضال، وتمسك بدفة الأمور، فتصبح رموزا لهذه الأمـم في كفاحهـا، تلتـف حولها الأفئدة، وتنتظم خلفها الصفوف انتظامها في دور العبادة.

وفي نضال الشعب المصري من أجل التحرر، برز رجـال حملـوا مـن أعبـاء هـذا النضـال أثقلها، فاستحقوا حب الشعب وثناء التاريخ. وكان (مصطفى كامل) و(محمد فريد) ثم (سعد زغلول) أهم هؤلاء الرجـال تأثيرا في هـذا الطـور مـن حيـاة الشـعب المصري. وحول كل زعيم منهـم تجمّـع شـعراء وخطبـاء، أحـاطوا بـه إحاطـة السـوار بـالمعصم، وراحـوا يحشـدون الجمـوع مـن خلفـه ويمجـدون نضالـه، بـأنقى العبـارات وأقواها، وأيسرها سبيلا إلى نفوس الناس. فإذا خطر الأديب في هـذا النضـال، لا يقـل في تقدير الناس ونظر المحتل عن خطر الزعيم، رمزِ الأمة، وحاملِ الرايـة. وكمـا لمعـت

أسماء هؤلاء الزعماء، لمع نجم شوقي وحافظ من بين الشعراء الذين ساهموا في دفع تيار الحركة الوطنية. كان الناس يترقبون شعرهما فيما يطرأ من الأحداث، وفيما يحل موعده من المناسبات الهامة في تاريخ مصر، وكأنهم على موعد مع هذين الرجلين، ينبغي عليهما ألّا يُخطئاه أو يتأخّرا عنه. والشاعر متى دخل دائرة الشهرة، لم تعد كلمته ومواقفه مِلكا خالصا له يتصرف فيه كيفما شاء، فكل شئ يصدر عنه يُحسَب له أو عليه. كان الشاعران يدركان دقة وضعهما من نفوس الناس، ويعلمان أن الشعب ينتظر منهما كثيرا من المشاركة، وسرعة في الاستجابة لكلّ نبأة ترنّ في سماء مصر، بل الوطن العربي والأمة الإسلامية الواسعة. وملكة الشعر ليست مطواعة في كل وقت، ولا تستجيب لكل حادث وطارئ، فتارة يسمح أبيّها ويلين عصيّها، وتارة تحرن وتشمس. والشعوب لاتدرك هذا الجانب الخفي من حياة أهل الفن، وإن علمه بعض الناس يتجاهلونه وقت الأزمات، ولا يرضونه علّةً تمنع الشعراء من النزول على رغبات الأمة. إذن على الشاعر أن يروض ملكته في كل الأوقات، وأن يستنطق لهاته بما يريد شعبه، وإلا اتُّهم في وطنيّته وصدق ولائه لأمته، وشُرعت في وجهه أقلام غير منصفة تتّهمه وتتجاهل ما سلف من جهاده وحُسن بلائه.

لم يكن باستطاعة شوقي وحافظ أهم شاعرين في تاريخ النضال المصري الحديث، أن يحصّنا نفسيهما ضد كثير من النقد الظالم، الذي يتجاهل أن الشاعر كسائر الأناسي، له حاجاته الشخصية والنفسية التي تؤثر في مسلكه، كما تؤثر في الآخرين حاجاتهم ومنازعهم. هذا النقد المتعسف الذي أراد لهما أن يرتفعا على غرائز الإنسان أو يتنكّرا لها، فيقتحما ما كان يحدق بهما أحيانا من أخطار تهددهما في النفس والأهل. ومَنْ يحقق في الاتهامات التي وُجّهت إلى الشاعرين، وراحت تنتقص من وطنيتهما، يجد وراءها هذه النظرة الجائرة التي لا تقدّر الجانب النفسي للشاعر ولا تدخل في حسابها ضعفه البشري، وأصحابها يعلمون أن الشعراء لا يمتلكون كما يمتلك الأنبياء والرسل، قوة علويّة تقوّي من يقينهم، وتثبّت أمام الهول والشدة نفوسهم.

سكت الشاعران أحيانا، ونطقا كثيرا. واستنكر الناس سكوتهما، كما عابوا

عليهما بعض ما نطقا به، لأنه جاء ضعيفا خافت النبرة، لا يكافئ شعور الأمة. ولعل ندم الشاعرين على النطق في هذه الحال، كان أضعاف إحساسهما بالألم حينما يضطران إلى الصمت.

وفيما جادت به قريحة شاعر النيل وأتاحت له ظروفه، نجد ألوانا مختلفة من شعره الوطني، تكشف عن مساهمة قوية في خدمة الأمة والأخذ بنصيب في نضالها. وفيما عرضناه من شعره الاجتماعي بعض هذه المشاركة الوطنية الجادة، كتصدّيه للفتنة الطائفية وسعيه إلى إنشاء الجامعة الأهلية. غير أن هناك ألوانا أخرى من شعره الوطني كان لزاما علينا أن نبيّنها في الصفحات التالية، ليتضح الحجم الحقيقي لمشاركته في نضال أمته. وقد عدلتُ عن مصطلح " الشعر السياسي "، الذي راق بعض الباحثين، لأن شعر حافظ الذي تناول به بعض القضايا السياسية، يدخل في إطار الوطنية من باب واسع. كما أن ما يُبديه في هذه القضايا من آراء، مطبوع بخيال الشاعر، ومعبر عن حماس المواطن الحر وغيرته ويخلو من فكر السياسي ومنطقه في نظر الأمور وحنكته. وتجزئة شعره إلى (وطني) و(سياسي)، تجزئة غير صحيحة تؤدي إلى تمزيق القصيدة الواحدة أحيانا إلى أشلاء هزيلة، إذْ يتداخل الجانبان كثيرا في القصيدة الواحدة تداخل السّدى و اللحمة. لهذا رحت أعالج الجانبين معا في عرض واحد، محافظة على قيمة هذا الشعر والروح التي تسوده.

ويمكننا استكمال باقي مظاهر وطنية الشاعر، بحديثنا عن الجانبين التاليين في شعره:

أولا: مواقفه مع زعماء الأمة.

ثانيا: مواقفه من الإنجليز.

وبعد هذا كله يكون بمقدورنا الإجابة عن السؤال التالي:

أكان حافظ ـ كما ذهب بعض الدارسين ـ داعية يأس وإحباط، يفتّ في عضد الأمة؟!

ثم نختم بالحديث عن شعوره القومي هذا الفصل ونكمل هذه الدائرة الهامة من حياته التي شغلت حيزّا كبيرا من نفسه ومساحة واسعة من إبداعه.

أولا: مواقفه مع زعماء الأمة

مصطفى كامل

في سنة ١٩٠٠م نزل حافظ إبراهيم القاهرة واتخذها دارا. وفي السنة نفسها أصدر الزعيم (مصطفى كامل) جريدة (اللواء) فصارت مجالا فسيحا لأقلام الوطنيين، ومنبرا ارتفعت فوقه أصوات مفكرين وأدباء، يحتفظ تاريخ مصر الوطني بأسماء كثير منهم. ويُذكر أن علاقة حافظ إبراهيم بالزعيم لم تنشأ إلا في حادث دنشواي الذي وقع يوم الأربعاء ١٣يونية سنة ١٩٠٦م، إذ أرسل الشاعر إلى (اللواء) قصيدته التي يقول في مستهلها للإنجليز:[٣]

أيها القائمون بالأمر فينا   هل نسيتم ولاءنا والودادا

فرحّبت (اللواء) بها، ونشرتها، وكان هذا بداية جهاده الوطني الحق على صفحات الجرائد وفي المحافل.[٤]

ولم يتخل الشاعر منذ ذلك الحين عن متابعة الزعيم وتأييده. فإذا وقف (مصطفى كامل) يلقي خطابا في ناشئة مصر، نهض حافظ يعقب عليه ويقول له: [٥]

سمعتُ حديثا كقطْر الندى   فجدد في النفس ما جدّدا

وأضحى لآمالنا.. منعشا   وأمسى لآلامنا مُرْقدا

واستمر حافظ ينشر شعره على صفحة (اللواء)، مصرّحا بعدائه للإنجليز مرّة ومعرّضا لهم به مرّة أخرى. وتقدّر (اللواء) للشاعر مواقفه، فتلقبه بـ(شاعر الوطنية الأول)، ثم تقرّبه منها أكثر فتلقّبه بـ(شاعر الحزب الوطني)، وهو الحزب الذي تولى من خلاله مصطفى كامل قيادة الحركة الوطنية. ولابد أن حافظا اغتبط باللقبين، فراح يرفع صوته على منابر الحزب أكثر من ذي قبل؛ فعرفه الناس وأحبوه. وماكان له أن يحظى بشعبيته الواسعة لو لم يتصل بزعيم الأمة وصوتها. وفي الحقيقة ساهم كلّ منهما في مجد الآخر، الشاعر بتسجيله مآثر الزعيم والتغني بها، والزعيم بتقديمه حافظا إلى الجماهير على أنه شاعر الحزب الوطني بل شاعر الوطنية الأول. فمكّن له ذلك في نفوس الناس وأعلى قدره. يقول أحد أصدقاء الشاعر : " إن عهد مصطفى كامل وأيام اللواء كان

وساما علّق على صدر حافظ، وشرّفه وقدّمه، ومازال يبعثه حيا كلما هبت رياح الوطنية في الأطوار المختلفة من تاريخ كفاح شعب مصر »[٦].

كان طبيعيا أن تتعلق نفس الشاعر بالزعيم، فهو أمل أمته وسبب شهرته، وأن يثني عليه بمثل قوله:[٧]

لك الله يا مصطفى من فتى   كثير الأيادي، كثير العدا
إذا ما حمدتك بين الرجالِ   فأنت الخليق بأن تُحمدا
سيُحصي عليك سجل الزمانِ   ثناءً يُخلّد ما خلّدا
ويهتف باسمك أبناؤنا   إذا آن للزرع أن يُحصدا

وهذا القول من قصيدة ألقيت في ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٠٦م، بعد خمسة أشهر ونصف الشهر من وقوع حادث دنشواي. وقد خلت هذه القصيدة تماما من أي إشارة إلى موقف الزعيم من هذا الحادث، أو إلى معاناة الشعب من سوء سياسة الإنجليز.

ويفتش الباحث في شعر حافظ، فيجد أن مايزيد عن عام في علاقته بالزعيم قد اختفت أخباره، وأن أول شعر له فيه بعد قصيدته السابقة، هو قصيدته التي رثاه بها عقب وفاته ونشرت في ١٢ فبراير سنة ١٩٠٨م، وإن كان حديث الشاعر عن آلام شعبه وآماله لم ينقطع طوال تلك الفترة، التي تكالبت فيها العلل على صدر الزعيم وأقعدته عن الكفاح.

في هذه المرثية وقف حافظ على قبر الزعيم يسفح دموع مصر، ويصف فداحة الخطب، ويُعلِم القبر الذي لا يعرف أقدار ساكنيه، قدر ضيفه الذي حل به:[٨]

أيا قبر، هذا الضيف آمال أمة   فكبّر وهلل والق ضيفك جاثيا
عزيز علينا،أن نرى فيك مصطفى   شهيد العلا،في زهرة العمر ذاويا

كانت مصيبة مصر في زعيمها شديدة، فهو الذي أحيا الشعور الوطني ودفع بتيار الحركة الوطنية في فترة حالكة السواد من تاريخ مصر، وقد بسط الإنجليز أياديهم على كل شئ فيها، وأيأسوا الناس من أي فرج. وفي القصيدة يعرّض الشاعر بالإنجليز الذين ارتاحت نفوسهم لسكوت الصوت الذي كان يقلقهم ويقض مضاجعهم:

هنيئا لهم فليأمنوا كلّ صائحٍ   فقد أُسكت الصوت الذي كان عاليا

كما نسمعه يجدد العهد للزعيم على استمرار يقظة الأمة وتآلف صفوفها في مواجهة المحتل. فشخصه مازال ماثلا لعيون المصريين، وصوته مازال يدوي في مسامعهم، يلهمهم ويستحثهم:

أجل أيها الداعي إلى الخير إننا   على العهد مادمنا فنم أنت هانيا

بناؤك محفوظٌ وطيفك ماثلٌ   وصوتك مسموعٌ وإن كان نائيا

وفي حفل (الأربعين)، ألقى الشاعر قصيدة طويلة، كرر فيها الحديث عن عِظم الرزء ووصف فيها حَرَج الظروف التي تمر بها الأمة وشدة حاجتها إلى زعيمها الراحل، كما وقف يهيب به أن ينهض لمواجهة غطرسة المحتل وتعدّيه على حرمة الدين والوطن، ثم يعبر عن حسرته لأنْ ذهب نداؤه أدراج الرياح: (٩)

بـا لله مالك لا تجيب مناديا   ماذا أصابك يا (أبا المغوارِ) ؟!

قمْ وامح ماخطّت يمين كرومرٍ   جهلاً بدين الواحد القهارِ

قد كنت تغضب للكنانة كلما   همّت وهم رجاؤها بعثارِ

فيعيد حافظ بهذا القول أمام أعيننا، شخص محمدٍ بن كعب الغَنوي،وقد جثا عند قبر أخيه يعدد مآثره ويتحسّر على غيابه، ويستنهضه لقضاء حاجات الناس كسالف عهده، فلا يسمع سوى رجع أنينه وشكايته: (١٠)

وداعٍ دعا : يا مَنْ يجيب إلى الندى   فلم يستجب عند النداء مجيبُ

فقلتُ ادع أخرى وارفع الصوت عاليا   لعل (أبا المغوارِ) منك قريبُ

يُجبك ،كما قد كان يفعل، أنهُ   بأمثالها رحبُ الذراع أريبُ

ولا يفوت الشاعر أن يذكّر الشعب بكفاح الزعيم ونضاله، كيف أنه سعى إلى البرلمان الإنجليزي واستطاع أن يكشف أمامه عن سوء سياسة (كرومر)، وأن يفضح أكاذيبه ويفندها، فكان ذلك سببا في عزل ذلك الطاغية عن منصبه في مصر. يقول للزعيم الراحل:

مازلتَ تختار المواقف وعْرةً   حتى وقفتَ لذلك الجبارِ

وهدمت سورا قد أجاد بناءهُ   فرعون ذو الأوتادِ والأنهارِ

ووصلت بين شكاتنا ومشايخٍ | في (البرلمان) أعـزّةٍ أخيـارِ
كشفوا الغطاءعن العيون وأبصروا | مـا في الكنانـة من أذًى وضرارِ
نبذوا كلام(اللرد)حين تبيّنوا | حَنَـق المغيـظِ ولهجـة الثرثـارِ

والقصيدة تعد عرضا موجزا لمواقف الزعيم وأثره في الحركة الوطنية. ثم يقف الشاعر بعد مرور عام على قبر الزعيم، يصف لـه حـال مصر طوال هـذا العام، ويقدم إليه (كشف حساب) عن نضال الشعب بعد رحيله، مجددا له العهد على مداومة الجهاد: (١١)

لبيك نحن الألى حرّكتَ أنفسهمْ | لما سكنتَ ولما غـالك العـدَمُ
جئنا نؤدي حسابا عن مواقفنـا | ونستمد، ونستعدي ونحتـكمُ

ويستغل حافظ المناسبة في فضح سياسة الإنجليز، دهـائهم ومخادعتهم، ويعلـن في نـبرة قوية عن استنكاره، وعن فشل كل مايجرّبه المحتل، من ألوان الحيل والبطش، فإن ذلـك لن يفت في عضد الأمة ولن ينال من إبائها. فكم محنة تعرضـت لهـا مصر، فاجتازتها وهي أصلب عودا وأقوى عزيمة:

ماذا يريدون؟ لا قرّت عيونهمُ | إن الكنـانة لايُطـوَى لها علَمُ
كم أمةٍرغبت فيها فما رسختْ | لها-على حولها-في أرضهـا قدمُ
ما كان ربك،رب البيت تاركها | وهْي التي بحبـال منـه تعتـصمُ

والملاحظ أن حافظا في هذه القصيدة، أعلى صوتا في حملته على الإنجليـز مـن قصائده السابقة، ومن قصيدته التي بكـى فيهـا أهـل (دنشـواي)، كمـا أنـه لايكـاد يخفـي مـن شعوره شيئا، . ولئن كان يكثر في شعره من ذم تواكل المصريين رغبة منه في دفعهم إلى حياة أفضل، فإنه في هذه القصيدة يمتدح للزعيم الراحل همة الشعب وكفاحـه، ويثـني على الغِراس الطيب الذي بثـه الزعيـم في أرجـاء مصر، فقـد ضـرب بجذوره في تربـة الوطنية، وقامت سوقه في صلابة تواجه عواصف القهر:

لبيـك إنّا على ما كنت تعهـدهُ | حتى نسودَ وحتى تشهدَ الأممُ

فيعلم النيلُ أنّا خـير مَن وردوا ويستطيل اختيالا ذلك الـهرمُ

هذا الغِراس الـذي واليتَ منبتهُ بخير مـاوالـتِ الأضواء والنَّسمُ

أمسى وأضحىوعين ا الله تحرسهُ حتى نمـا وحُلاه المجـد والشممُ

فانظر إليه وقد طـالت بواسـقـهُ تهنأْ به، ولِأنف الحاسد الرَّغَـمُ

ويلتفت الشاعر إلى الشباب، يطلب منهـم أن يعـوا جيـدا دروس الوطنيـة الـتي لقنهـم زعيمهم، وأن يستلهموا نضاله وصبره على الشدائد:

يأيها النشء سيروا في طريقتـهِ وثابروا،رَضِيَ الأعداء أو نقموا

فكُلكم(مصطفى)لو سار سيرتهُ وكُلكم (كاملٌ)لو جازه السّأمُ

ولا يكتفي حـافظ بهـذه القصـائد الثـلاث الـتي صاغهـا في رثـاء مصطفـى كـامل، أو بالأحرى، في تمجيد كفاح الشعب المصري. لم يكتف بذلك، فنجده يرسل إليه رسالة في عالمه الآخر بعد انقضاء إحدى عشرة سنة علـى وفاتـه، يحملهـا إليـه رفيـق كفاحـه (محمد فريد) الذي توفي في أواخـر سـنة ١٩١٩م. يطمئنـه الشـاعر فيهـا علـى سـلامة المسيرة التي بدأها، وعلى مُضِي الشعب في كفاحه حتى ينال حريته: [١٢]

يـا غـريب الـدار والقـبر ويـا سلوة(النيل) إذا ما الخطبُ جَدْ

قـل لصـبّ النيـل إن لاقيتـهُ في جـوار الدائم الفـردِ الصَّمدْ

إن (مصرا) لا تَني عن قصدهـا رغـم ما تـلقى وإن طـال الأمدْ

كان حافظ يعلم أنه يلهب جـذوة الوطنيـة بإحيائـه ذكـرى هـؤلاء الزعمـاء والإشـادة بمواقفهم. لكنّ الزعيم (محمد فريد) الـذي رافـق مصطفـى كـامل في رحلـة نضالـه ثـم تلقف منه الراية بعد وفاته، لانعثر علـى شـئ مـن أخبـار كفاحـه بديـوان حـافظ غـير القصيدة سالفة الذكر، التي رثاه بها حين مات غريبا بـ(برلـين). أي أن إحـدى عشـرة سنة من تاريخ الحركة الوطنية، منذ وفاة مصطفى كامل حتى وفاة محمد فريد، تختفـي من ديوان الشاعر.وفضلا عن ذلك نسمع حديثه عن محمد فريد، فنجده خافت النبرة، لايكاد يحرّك شعورا، أو يستحث في الصدور عزما مثلمـا يفعـل حديثـه عـن مصطفـى

كامل. ولعل في الإشارة إلى ظروف الشاعر آنذاك ما يعلل هذه الظاهرة. فقد عُيّن حافظ بدار الكتب سنة ١٩١١م، بعد أن طال بحثه عن وظيفة، وبعد أن كاد (ينتعل الدّما) على حد تعبيره. فربما كان حرصه على هذه الوظيفة-كما يذكر الدكتور طه حسين- عائقا عن الجهر بمواقفه وإعلاء صوته كما كان يفعل من قبل، فضلا عن اشتعال نيران الحرب العالمية الأولى ولجوء الإنجليز في أثنائها إلى أقسى درجات الشدة في مقاومة أي نزعة تحررية. (١٣)

سعد زغلول

حظي سعد زغلول بنصيب وافر من اهتمام حافظ وشعره.ولعل الرجلين قد تعارفا في حلقات العلم التي كان الأستاذ الإمام محمد عبده يعقدها في الأزهر وفي بيته، ويؤمها كثير من الأدباء والساسة وطلاب العلم. بدأ الشاعر يختلف إليها في مستهل حياته العسكرية، ولم يكن لسعد زغلول آنذاك، ما بلغه بعدُ من مكانة هامة في نفوس الناس وإدارة شئون البلاد. (١٤)

ولعل أول شعر قاله حافظ لسعد زغلول، تلك الأبيات التي وجهها إليه وهو ناظر لوزارة المعارف يرجو فيها صلاح التعليم على يديه، ويطلب منه التصدي لسياسة (دانلوب) المستشار الإنجليزي لهذه الوزارة، الذي يعمد إلى عدم الارتقاء بمستوى التعليم في مصر: (١٥)

أنــا لاألــوم الــمستشــا ... رَ إذا تــعلّل أو تــصدَّى

فــسبيلــهُ أن يــستبــدّ ... وشــأنــنــا أن نــستعـــدا

هـــي سُنَّــة المــحتــل فــي ... كلّ العصــور ومـا تـعــدَّى

بعد موت محمد فريد التفت الأفئدة حول سعد زغلول، فأصبح ضمير شعبه في مواجهة المحتل الغاصب. وما كان سعد يقف على منبريهتف من فوقه ياسم مصر، إلا وقد تحلّق حوله أدباء مصر، يشدّون على يديه، ثم يُطيّرون كلماته وأخبار نضاله على صفحات الجرائد إلى كل أنحاء البلاد، دانيها وقاصيها. ولابد أن يكون حافظ في

طليعة هؤلاء الأدباء،فعلاقته بالزعيم قديمة، ترجع إلى مجالس الإمام وغيرها من أندية أهل الفكر، وهي قبل أن تكون علاقة مواطن مصري بزعيمه وقائده، كانت علاقة صديق بصديقه. ولنسمع حافظا في قصيدته التي ألقاها في حفل تأبين الزعيم، يذكّره بتلك المجالس العامرة التي جمعتهما أيام الشباب، لنعلم ما كانت عليه علاقتهما من قوة: (١٦)

كم وردنا موارد الأنس فيها ورشفنا سلافها والرُّضابا
ومرحنا في ساحها ونسينا الـ أهل والأصدقاء والأحبابا
كم شكوتَ السهاد لي يوم كنا (بالبساتين) نستعيد الشبابا
ننهب اللهو غافلين وكنّا نحسب الدهر قد أناب وتابا

و(البساتين) موضع بمحافظة (الشرقية) كان الزعيم يؤمه مع أصفيائه طلبا للراحة وكان حافظ لا يتخلف عن مرافقته أنّى ذهب، ويعلم أن الزعيم يؤثره ويستعذب حديثه، وسعد نفسه يعلن ذلك ويؤكده. يُروَى أن حافظا ذهب ليسلم عليه بعد عودته من سفر، ووقف ينشده: (١٧)

إني أرى نورا يفيض وطلعةً قد زانها وضَحُ الجبين المشرقِ
هذا زعيم النيل حلّ عرينهُ بعد الغياب، فيا وفود تدفّقي
وتيمّني بقدومهِ وترفّقي عند الزحام فسلّمي وتفرّقي

فلما انتهى الشاعر من إنشاد البيت الثالث، بادره سعد مبتسما يقول له:" إلّا أنت يا حافظ ".

لهذا، لم يكن غريبا أن يتعلق الشاعر بالزعيم، يثني على جهوده، ويبشر الناس بحُسْن الطالع على يديه، ويدرأ عنه بقلبه ولسانه كل عادية تتهدّده. فإذا تعرّض لمحاولة اغتيال، وجدنا حافظا يُهرع إليه، يهنئه بنجاته، ويهتف له من أعماقه: (١٨)

أَحمدُ الله إذ سلمتَ لمصرٍ قد رماها في قلبها من رماكا
أَحمدُ الله إذ سلمتَ لمصرٍ ليس فيها ليوم جِدٍ سواكا

أَحمـدُ الله إذ سلـمـتَ لمصـرٍ ووقـاهـا بـلُطفـهِ من وقـاكا

...إلخ

وعجيبٌ أن يتناول النقاد هذه الأبيات العفوية (فنّيا) ولا يأبهون لظروف ولادتها ومـا تكنه من انفعال تلقائي صادق. يتحدث حسن كامل الصيرفي عن حافظ، ثـم يصـف هذه الأبيات فيقول:

" كانت كهبّة النائم إثر سهرٍ مضنٍ، فهو يفتـح عينيـه في تثـاقل وتـراخٍ، ويتحـدث في تثاؤب وتكاسل. وكذلك كانت أبياته عليها من أثر الجهد والإعيـاء مـا عليهـا، فهي هزيلة شاحبة متهالكة، ظل يردد فيها الشطر الأول من البيت ثلاث مرّات " (١٩)

وهذا الكلام مثال جيد لسطحية النقد وتهويمه. والأثر الموضوعي الوحيد فيه هو إشارته إلى التكرار في الأبيات، وإن كان حديثه عنه مستغربا منه، لأنه لا يجهل بلاغـة التكرار ودواعيه النفسية وغير النفسية عند المبدع. كما أنـه يعلـم أن حافظا لم يجلس لهذه الأبيات القلائل التي لا تزيد عن سبعة، شاعرًا، يُجيل معانيها في خـاطره، ويقلّـب عباراتها ليختار منها ما يروق له. وحافظ في هذا صَناع لا يشق له غبـار. وإنمـا هتـف حافظ بها صيحة فرح كأي مواطن مصري يشمله مثل هذا الموقف ويغلبه على أمـره، ويستنطقه بما لا ينطق في ظروفه العادية. وإن عفويّة هذه الأبيـات، المتمثلـة في بسـاطة عباراتها ومعانيها وقلّة عددها، لدليل على صدق صاحبها، وأنموذج طيب لمـن أراد أن يتمثل للقاعدة النقدية القائلة، بأن لكل مقام مقالا. فلما هدأت نفس الشـاعر ونفوس الناس، شفع هذه الأبيات العفوية القليلة، بقصيدة طويلـة ألقاهـا في الحقـل الـذي أقيـم بالإسكندرية بعد وقوع الحادث بأحد عشـر يومـا، تكريمـا لـلزعيم وابتهاجـا بنجاته. وفيها يمسك الشاعر بأدوات فنه، ويقلّب الحديث كما شاء في كل ما يتعلـق بـالموقف والقضية الوطنية، ولا يترك قولا حسنا ومناسبا إلا قاله. ويطول عرضنا إذا اقتطفنا مـن كل حديث كلمة، لهذا نكتفي بشئ يسير مما تناوله حافظ في هذه القصيدة الطويلة. ولعل أول ما نقتطفه، تلك الأبيات التي راح يسرّي بها عن نفس الزعيم، ويزيل ما قد

يكون قد علق بها من آثار الحادث: [٢٠]

في كل عصر للجُناةِ جريرةٌ ليست على مرّ الزمانِ تزولُ

جاروا على(الفاروق) أعدلِ من قضى

فينا وزكّى رأيه التنزيلُ

وعلى (عليّ) وهْوَ أطهرنا فماً ويَدًا وسيفُ نبينا المسلولُ

وتاريخ سعد حافل بمقارعة الإنجليز، فهو لم يهدأ منذ أن حمل أمانة الكفاح الوطني، ولاقى بسبب مواقفه عنتا كثيرا، فنفي إلى جزيرة (سيشل)، ثم منها إلى (جبل طارق). ومما يُذكَر له، أنه الزعيم المصري الذي وحّد طائفتي الأمة في صف متماسك لمواجهة المحتل سنة ١٩١٩م. كان سعد يوم وقوع الحادث له متوجها إلى الإسكندرية، ليغادرها مع وفد مصري إلى إنجلترا من أجل التفاوض حول استقلال مصر. وكان ذا حنكة سياسية، وكانت درايته بطبيعة المفاوض الإنجليزي عميقة. لكنّ الشاعر الصديق الذي خبر الإنجليز عن قرب، لا يرى حرجا في أن يقول لسعد ناصحا ومحذّرا:

فاحذر سياستهم وكن في يقْظة (سعديّة)، إن السياسة غولُ

إن مثّلوا فدَعِ الخيال فإنما عند الحقيقة يسقط التمثيلُ

الشبر في عُرف السياسة فرسخٌ واليومُ في فَلَك السياسة جيلُ

ولكل لفظ في المعاجم عندهم معنىً ، يقال بأنه معقولُ

ولهم أحابيل إذا ألقوا بها قنصوا النُّهى، فأسيرهم مخبولُ

جمعوا عقاقير الدهاء وركّبوا ما ركّبوه ، وعندك التحليلُ

ظل الشاعر في قصيدته يبث الزعيم حكمته وخبرته، وهو موقنٌ أن من يوصيه حذر حريص. وحديثه إليه حديث من يرجّي الخير لأمته، ويشفق عليها أن تنهض من عثرة لتُمنى بعثرة أخرى. وحديثه أيضا حديث الوطني الغيور، صاحب الأرض والحق، الذي لا يقبل لزعيمه، رمز نضاله، أن يرضى بالدنيّة في مطالبته بحقوق شعبه وحرية أمته. فصاحب الحق مرفوع الهامة، وهو-وإن طال الأمد- منصور بجُند الله وتأييده.

بكل هذه المعاني التي تتقلّب بين الإباء والإشفاق والتأميل، راح حافظ يستكمل حديثه إلى زعيم الأمة:

فاوض ولا تخفض جناحك ذِلّةً ... إن العدو سلاحه مفلولُ
فاوض وأنت على المجرّة جالسٌ ... لمقامك الإعظامُ والتبجيلُ
فاوض فإن أوجست شرا فاعتزم ... واقطع فحبلك بالهدى موصولُ
وارجع إلينا بالكرامة ، كاسيا ... وعليك من زَهَراتها إكليلُ

وكرامة النفس التي يحرص عليها الشاعر ويستبقيها، هي كرامة الزعيم وكرامة المصريين عامة، وهي ليست أقل قيمة من الحرية المغتصبة التي سافر سعد ورفاقه لاستردادها. وهكذا يتفرّع حديث الوطنية على لسان حافظ، ليرسم ملامح المصري الصّبور، الغيور على الأرض والنفس، المعتد بحقه وبنصرة الله له ولو طال الأمد. وهي ثوابت نفسية مازالت تضرب في أعماق الشخصية المصرية الأصيلة.

ولم تكن أحداث ثورة ١٩١٩م لتقع دون أن تهتز لها نفس حافظ، فنراه يشارك بكلمات قوية يحيّي فيها مظاهرة النساء الشهيرة، التي اندفعت إلى بيت الزعيم، هاتفة بحياته وباستقلال الوطن، لاتبالي النساء فيها ما ينتظرهن من خطر على أيدي الإنجليز، الذين اعترضوا بالسلاح سبيلهن، وشهروه في وجوههن. ويجيد الشاعر وصف هذه المواجهة في لقطات سريعة متلاحقة استوفت كافة ملامح ذلك الموقف الحرج. يقول: (٢١)

خرج الغواني يحتججْـ ... ـنَ ورحتُ أرقبُ جمعهنّهْ
وأخذن يجتزن الطريـ ... ـق ودار (سعدٍ) قصدُهنّهْ
يمشين في كنَف الوقا ... ر وقد أبنّ .. شعورهنّهْ
وإذا بجيشٍ مقبلٍ ... والخيلُ مطلقةُ الأعنّهْ
وإذا الجنودُ سيوفُها ... قد صُوِّبت لنحورهنّهْ
وإذا المدافع والبنا ... دقُ والصّوارمُ والأسنّهْ

والخيـــل والفرســـانُ قـــد ضربـت نـطاقـا حـولـهنّــهْ

والـــوردُ والـريحـــانُ في ذاك الـنهـارِ سـلاحُـــهنّــهْ

فتطـاحـن الجيشـانِ سـا عاتٍ تشيب لـها الأَجنّــهْ

فتضـعضـع النّســـــوان ، والنســوان ليـس لـهنّ مُـنّــهْ

ثـم انـهـزمـن مـشتّتـا تِ الشمل نحو قصـورِهنّـهْ

ثم يتهكّم على الإنجليز الذين عَدّوا تغلّبهم على أولئك النسوة انتصارا، وكأنهم انتصروا على (الألمان) في إحدى ساحات الحرب العظمى :

فليـهنـأ الجيـش الفخــو رُ بنصـرهِ وبـكسـرهنّــهْ

فــكأنمـا الألمـــان قـــد لبـســوا البراقـع بينـهنّــهْ

وأَتَـوْا (بهنْـدنـبرج) مخـ ـتفـيا بـمصرَ يقـودُهنّـهْ[٢٢]

فـلـذاك خـافـوا بـأسـهـنّ وأشـفـقـوا من كيـدهـنّــهْ

لم تكن ثورة ١٩١٩م مجرد مظاهرات وطنية اعتاد الإنجليز عليهـا، وإنما كانت فورة بركان ازدحم بالحمم باطنه، وبات يتحين الفرصة ليعلن غضبته. لهذا عمّت الثورة أرجاء مصر، ووقعت مصادمات دامية بين الطرفين، ولجأ الإنجليز إلى استخدام أقسى ما عندهم من وسائل القمع لإخماد الثورة أو الحدّ منها. فلا عجب من أن تُطبع هذه القصيدة على هيئة منشورات وتُوزع سرا في أنحاء البلاد، ولم تنشر باسم صاحبها في الصحف إلا بعد ذلك بعشر سنوات.[٢٣]

والبناء الموسيقي للقصيدة يساعد على نقل واقع الحدث وما يمور به من حركة واضطراب، كما ينقل انفعال الشاعر بهذا الحدث كما جاش بصدره، وذلك لوقوع حافظ على شكل موسيقى قصير الزمن سريع النبض، ثم لانتهاء هذا الشكل الموسيقي بقرارات صلبة تزيد إيقاعه قوة وشدّة.

وكانت خسارة حافظ لموت سعد زغلول مضاعفة، فقد فقد الصديق الذي يفسح له صدره ومجلسه، وفقد الزعيم الذي كان يحي في نفسه ونفوس مواطنيه الأمل،

ويشعل في صدورهم جذوة الجهاد. فلا غرابة في أن نرى حافظا الذي أوتي قدرة فنيّة كبيرة على تضخيم الأحداث، والمبالغة في تصوير وقعها-لا غرابة في أن نراه يستهل تأبينه الفقيد، بإقامة مناحةفي السماء تماثل مناحة أهل الأرض أو تزيد، تشاطر فيها الكواكب السيّارة أهل الأرض مصابهم وتحزن مثل حزنهم: (٢٤)

إيهِ يا ليلُ ! هل شهدتَ المصابا كيف ينصبّ في النفوس انصبابا ؟

َبلّغ المشرقين قبل انبلاج الصّـ ـبحِ أن الرئيس ولّى وغابا

وانعَ للنّيرات (سعدا)، فـ(سعدٌ)

كان أمضى في الأرض منها شِهابا

قدَّ ياليل من سوادك ثوبًا للدراري وللضحّى جلبابا

وانسجِ الحالكاتِ منك نقابًا واحْبُ شمس النهار ذاك النقابا

قل لها : غاب كوكب الأرض في الأر

ضِ فغيبي عن السماء احتجابا

والبسيني عليه ثوبَ حدادِ واجلسي للعزاء ، فالحزن طابا

بمثل هذا التفجّع من المصاب يستهل حافظ قصيدته ويكسو النجوم والكواكب أردية سوداء من حُلْكة الليل. وبمثل هذا التفجع أيضا، نراه في الأبيات التالية يهيج نفوس الحاضرين ويستدر شؤونهم. ولنتمثّله واقفا في المحفل يُجيل طرفه في وجوه الحاضرين ويسألهم سؤال الثاكل الذاهل:

أين (سعدٌ) ، فذاك أول حفلٍ غاب عن صدره وعاف الخطابا

لم يعوّد جنوده يوم خطبٍ أن يُنادَى ، فلا يردّ الجوابا

علّ أمرا قد عاقهُ ، علّ سُقْما قد عراهُ ، لقد أطال الغيابا

وهذا القول اعتدنا سماع مثله ممن أوجعتهم مصيبة الموت ومسّت عقولهم بأذى.

ولا يكتفي الشاعر بحديثه السابق الذي تجيش لسماعه النفوس. فنسمعه يواصل حديث المرتاب الذي يشق على نفسه تصديق ما وقع والتسليم به، داعيا الناس إلى

التثبت من صحة ذلك الخطب الفاجع:

أيْ جنودَ الرئيس، نادوا جهارا فإذا لم يُجب فشقّوا الثيابا

وهو هنا يذكّرنا بما كان من أمر (عمر بن الخطاب) رضي الله تعالى عنه حين سمع بوفاة النبي ﷺ. يُروى أن هزّة نفسية أصابته، جعلته لا يصدق ما سمعت أذناه، ويتوعّد من يقول به. وهذه القصيدة الطويلة التي بلغت تسعين بيتا، جمعت كل ما ينبغي قوله في هذا المقام، وصف فيها حافظ آلامه الذاتية لفراق الصديق، كما وصف آلام الشعب لغياب قائده الذي كان يتنظّر على يديه انفراج كربته. وفيها أيضا ثناء طيب على مناقب الزعيم وعلى جهوده في لمّ أشتات الأمة ومواجهة المحتل، كما نرى الشاعر حريصا على أن يطمئن سعْدا في مثواه على استمرار مسيرة الجهاد، مثلما طمأن مصطفى كامل من قبل. فأبناء مصر الذين تركهم وراءه من شيوخ وشباب:

قد مشى جمعهم إلى المقصد الأسـ ـمى، يغذّون للوصول الرّكابا

يبتنون العُلا، يشيدون مجدا يُسعدون البنين والأعقابا

وحافظ يعلم أنه يقصد بهذا القول الشعب لا الزعيم، يحمّس به المصريين لئلا تخبو شعلة الوطنية أو تَهِن عزائمهم لرحيل فرد، وإن كان زعيمَهم وقائدَ نضالهم.

ولم تكن هذه القصيدة تحسّرا وبكاء فحسب، وإنما حولها الشاعر إلى خطبة وطنية شديدة النبرة، وتحدى فيها الإنجليز الذين استراحوا لأن خلّى سعْد مكانه، وحسبوا ألّا تقوم للمصريين قائمة بعده. يقول مستخفا بجبروتهم وبأوهام نفوسهم:

قد ملكتم فم السبيل علينا وفتحتم لكل شعواءَ بابا

وأَتيتم بالحائماتِ تَرامى تحمل الموتَ جاثما والخرابا

وملأتم جوانبَ النيل وعْدا ووعيدا ورحمةً وعذابا

هل ظفرتم مِنّا بقلب أبيٍّ أورأيتم مِنا إليكم مَثابا ؟!

لا تقولوا خلا العرين ففيهِ ألف ليثٍ ، إذا العرينُ أهابا

فاجمعوا كيدكم وروعوا حماها إن عند العرين أُسْدا غضابا

وهكذا تتحول مراثي حافظ إلى منابر للدعوة الوطنية، يهتف من فوقها للكفاح بقلب أقوى، وبصوت أعلى مما نحسّه في كثير من شعره الذي صاغه في مواقف وأحداث وطنية هامة.

وبعد رحيل سعْد التفت حافظ إلى رموز الأمة الذين خرجوا من بين صفوفها لحمل الأمانة، لكنّ ما هتف به لهؤلاء كان نزرا، وكأن حافظا استعاض عن متابعة نضالهم بالتغني بأمجاد مصر ومفاخرها، يُكثر من الحديث عنها ويدعو الشعب في كل مناسبة إلى استعادتها.

ثانيا: موافقة من الإنجليز

ذكرنا من قبل أن حافظا تمكن من تحويل شعره في رثاء الزعماء إلى منابر للدعوة الوطنية، يثير من فوقها الهمم لمواصلة الجهاد. فإذا كان هذا شأنه في الرثاء، فماذا هو فاعلٌ في الأحداث الوطنية التي كانت تجِدّ من وقت لآخر، وهي مادة جاهزة لحديث النضال ؟!

كنت أتوقع أن يكون صوت الشاعر في هذه الأحداث أقوى، وأن يفصح لنا في عبارة قوية عن شعور وطني أشد حدّة، بسبب ما تحرّكه هذه الأحداث في الصدور من انفعالات تدفع بصاحبها إلى ما يكافئها من القول أو من الفعل. لكن القارئ يفاجأ في مواقف الشاعر بمستويات متباينة من الشعور، وبآراء غريبة في نظرته إلى المحتل، فيها كثير من المفارقة، وفيها تناقض واضح بين المقام والمقال. وهذه الظاهرة آذت نفوس كثيرين وخيبت ظنّهم وتوقعاتهم في (شاعر النيل)، كما عرّضته لكثير من النقد اللاذع.

والحقيقة التي سبق أن أشرت إليها، أن (ترمومتر) الشاعر لايستمد من واقع الأحداث فحسب، فيرتفع أو ينخفض وفقا لطبيعتها ودرجة حرارتها، وإنما يتأثر بعوامل كثيرة أخرى على رأسها إحساسه المتنامي بالخوف والضعف وما يتولد عن ذلك من شدة الحرص وفرط الحذر ومعاودة النفس في كل كلمة يمكن أن تعرّض حياته للخطر. لن

نجد في شعر حافظ الذي هتف به في هذه الأحداث خطابا قويا يغاضب فيه الإنجليز أو يستعدي عليهم، فإن هذا أمر لا يقدر عليه ولا يطاوعه فيه لسانه. لن نجد إلا حديث الوطنية المعتاد الذي يكثر من الإشادة بالماضي والمجد الغابر، ويطالب المصريين باسترجاعه، إلى غير ذلك مما لا يكترث له الإنجليز ولا يحاسبون عليه. ولعل حافظا يخالف في ذلك أمير الشعراء، الذي كان يقابل الأحداث الجسام -متى تعرّض لها- بما يناسبها من خطاب يُرضي حاجةً في صدور الناس. ولعلي أتمكن من المقابلة بين الشاعرين في شئ يسير من ذلك.

ولعل هذا التعميم الذي أرسيتُ من خلاله قاعدة ننطلق منها لتناول شعر حافظ، لعله في حاجة إلى تخصيص وتحديد تُذكر فيه بعض الشواهد، ليكون القارئ على يقين من صحة ما ذهبنا إليه.

حادث دنشواي

ما وقع في حادث (دنشواي)، أشد ما تعرّض له المصريون على يد الإنجليز من صنوف القهر الجسدي والنفسي، وأقوى شاهد على تصرّفهم المطلق في أحوال البلاد وأنفس العباد إبّان الاحتلال [٢٥]. لقد وضع الإنجليز هذا الحادث كعادتهم بداخل إطار كاذب من القانون، لإيهام المصريين والعالم بأنهم أمة متحضرة تتوخى العدل وتحترم كرامة الإنسان، فأقاموا محاكمة صورية لأهالي (دنشواي) اختاروا لها بعناية إلى جانبهم من يوافق هواهم من المصريين. وما هي إلا أيام قلائل حتى استنطقوا هذه المحكمة الصورية حكما بإعدام أربعة وجلد عدد آخر من أهالي هذه القرية المنكوبة. وإمعانا في التنكيل وإرهاب الشعب، أصرّ الطغاة على تنفيذ الأحكام وسط القرية على مرأى من الأهل، لا تثنيهم عن ذلك شفقة على أمّ أو زوج أو ابن. ضج الشعب المصري للخطب، وتدفقت جموع منه يوم التنفيذ على (دنشواي)، يظلّلها القتام وترتسم على وجوهها أمارات الهول.

ومن المصريين الذين باعوا وطنهم وذممهم بثمن بخس، ولوّثوا أياديهم بدماء

إخوانهم الأبرياء، (إبراهيم الهلباوي) الذي شغل في تلك المحاكمة الجائرة منصب (المدعي العمومي)، و(فتحي زغلول) شقيق سعد زغلول، الزعيم الوطني الذي قاد جموع الأمة بعد (محمد فريد)، واحتمل أذى الإنجليز برضا نفس ورباطة جأش.

لم يُنشر لشوقي في هذا الحادث إبّان وقوعه شعر بميسمه، يكشف للناس عن موقفه منه، ووقعه على نفسه. وأول قصيدة حملت اسمه وتحدث فيها صراحة عن هذه المأساة، ظهرت بعد عام بمناسبة الإفراج عمّن طالتهم عقوبة السجن من أهل دنشواي، وهي قصيدته التي يقول في مطلعها: (٢٦)

يا دنشواي على رُباكِ سلامُ ذهبتْ بأُنس رُبوعك الأيامُ

فهل سكت شوقي طوال هذا العام ؟

يقدّم الدكتور محمد صبري السوربوني في (الشوقيات المجهولة)، مقطوعات شديدة الوقع حمل فيها شوقي على الإنجليز ومن مالأهم من المصريين، وقد نشرتها الصحف إبّان الحادث دون إشارة إلى صاحبها.(٢٧) لكن حافظا، وقد اختار الجهر، يطالع الناس بعد وقوع الحادث بعشرين يوما ودماء الضحايا لم تجف بعد، بقصيدة أغضبت كثيرين لما أبداه فيها من الضعف والملاينة التي بلغت حد الإذعان لجبروت المحتل، وهي قصيدته التي يقول للإنجليز في مطلعها: (٢٨)

أيها القائمون بالأمر فينا هل نسيتم ولاءنا والودادا ؟!

فأيّ ولاء يذكّرهم به؟! أَوَلاءُ المقهور في أرضه المغلوب على أمره؟! وأي ودّ يحسّه الموتور نحو واتره أو يتبادله معه ؟! لم تكن هذه الفاتحة إلا إيذانا بحديث طويل فيه من التخاذل ومعاني الهوان ما كان الشاعر في حلّ من التورط فيه، ولو أنه آثر الصمت، لكان خيرا من قوله لهم:

لا تظنوا بنا العقوق ولكنْ أرشدونا إذا ضللنا الرشادا

أكرمونا بأرضنا حيث كنتم إنما يُكرِم الجواد الجوادا

إن عشرين حِجّةً بعد خمسٍ علّمتنا السكون مهما تمادى

أمـةُ النيـل أكبرتْ أن تـعـادي   من رماها،وأشفقت أن تُعادَى

ليـس فيـهـا إلّا كـلامٌ وإلّا   حسرةٌ بعد حسرةٍ . . تتهادَى

فما الطاعة التي يراها الشاعر واجبة لهؤلاء الغزاة الدخلاء، الذين نهبوا الزرع وامتصوا الضرع وأشاعوا الرعب؟! وأي رشاد وهداية تُرجَى على أيديهم؟!

إن حديث حافظ، إعلان عن انهزام إرادة الشعب المصري الـذي كـان يخوض آنـذاك أول نضال حقيقي ضد أولئك المحتلين خلف زعيمه مصطفى كامل. ومثل هـذا القـول في مثل هذه المواجهة التي تُختبر فيها إرادة الأمة، يفت في عضدها، ويشدها مـرة ثانيـة إلى (السكون) والاكتفاء بالكلام والتحسّر الذي اعتادته-كمـا يذكـر حـافظ- طـوال خمسة وعشرين عاما.

لم يرد في هذه القصيدة شئ يُحسب للشاعر إلا أمريـن: أمـا الأول، فهـو حديثـه عـن قسوة المحاكمة وجوْر الإنجليز، وإن كان ذلك في صـوت خفيـض بعـد قـول ضعيـف، يقول للإنجليز:

أَحسِنـوا الـقتـل إن ضننـتمْ بعفـوٍ   أنـفوسـا أصبتـمُ أم جـمـادا ؟!

ليت شعري! أتلك(محكمـة التـفـ   ـتيش) عادت أم عهدُ نيرونَ عادا ؟!

فقـد شبه محاكمـة أهـل (دنشـواي) بمحـاكم التفتيـش الـتي عُقـدت بأسـبانيا للعـرب المسلمين، وجرى لهم بسببها ما جرى من صنوف التعذيـب والإبـادة. ورأى أن جـوْر الإنجليز وقسوتهم لا يقلّان عما يصف به التاريخُ (نيرون)، الذي أحرق رومـا ووقـف يستمتع بالنظر إليها طُعْمةً للنار.

وأما الأمر الثاني، فهو حديثه الذي تهكّـم فيـه بـإبراهيم الهلبـاوي، ونفـث فيـه غضبـه الذي لم يستطع البوح به فيما خاطب به الإنجليز، يقول له مستخزيا فعلته:

أيـها الـمدّعي العمـوميُّ مـهـلًا   بـعض هـذا فـقد بلغتَ المرادا

قـد ضمنّـا لك القضـاءَ بمصـرٍ   وضـمنّـا لنجـلكَ الإسـعـادا

فإذا ما جلستَ للحكم فـاذكرْ   عهد(مصرٍ) فقد شفيتَ الفؤادا

لكنّ من الغريب أن يُتبع حافظ هذا القول الذي يُعدّ حسنته الوحيدة في القصيدة، غريب أن يُتبعه بقول فسْل ينم عن نفس مضطربة لاتدري أي قول تقول، أو نفسٍ تخالف في قولها ما تحس وتشعر، فيأتي حديثها ركيكا مستهجنا. فقد أردف الأبيات السابقة بحملة على مصر، لأنها أنجبت (الهلباوي) ذلك الابن العاق الخائن، الذي لم يراع لأمه ولإخوته حقا ولاحرمة:

لاجرى النيل في نواحيك يا مصـ ـرُ ولا جادكِ الحيا حيث جادا
أنتِ أنبتّ ذلك النبتَ يا مصـ ـرُ فأضحى عليك شوكًا قتادا
أنتِ أنبتّ ناعقا قام بالأمـ ـسِ فأدمى القلوب والأكبادا

فزاد من آلام مصر، هذه الأم الثكلى لدعائه عليها بالخراب والعقم، ولتجاهله مَن أنجبت خلال تاريخها الطويل من أبنائها المخلصين الشرفاء. فليس (الهلباوي) و(فتحي زغلول) كلّ من ولدت مصر، وليسا كلّ من سقى النيل.

بعد هذه القصيدة بثلاثة أشهر، كتب حافظ قصيدة يستقبل بها (كرومر) العائد من مصيفه، نفى فيها عن مصر تهمة التعصب الديني التي رماها بها هذا الرجل فيما كان يخطه من تقارير، وفيما كان يجري على لسانه من حديث، كما نفى عن أهل (دنشواي) الذنب الذي أخذوا ظلما بجريرته، ثم أجاد نقل ساحة تنفيذ الأحكام بما فيها من صور القتل والتعذيب وأمارات الحقد والتشفّي. هذا كل ما نافح به عن مصر، ساقه في صوت خافت النبرة، وما سواه فمن قبيل ما جاء بالقصيدة السابقة: معانٍ لا تشف إلا عن نفس مجهدة، تستجدي شيئا من حقها في الحياة.

ويزيد من سوْءات الشاعر، أنه بدا في هذه القصيدة كمن يرشد هذا الطاغية إلى طريقة التعامل التي تضمن له ولاء هذه الأمة، وتستبقيها في حوزته ساكنة وادعة، فنسمعه يقول له: (٢٩)

فاجعل شعارك رحمةً ومودةً إن القلوب مع المودة تُكْسَبُ
وإذا سُئِلتَ عن الكنانة قل لهم: هي أمة تلهو وشعبٌ يلعبُ

واستبقِ غفلتها ونم عنها تنمْ فالناس أمثال الحوادث قُلّبُ

وما قد نجده مستخفيا في تضاعيف هذه القصيدة من إشارات ضعيفة إلى كرامة الأمة وحقوقها، فقليل جدا. وقد نلمس فيها أيضا تعريضا هيّنا بسياسة المحتل، مثلما نجد في البيت الثاني من الأبيات السابقة، الذي يعرّض فيه حافظ بما كان (كرومر) يكتبه من قدح في الشعب المصري وطعن في كفاءته، ومثلما نجد في الأبيات التالية التي لا يصل حديثه فيها إلى حد التهكم والتقريع. هذا وذاك يعبّران عن احتجاج، لكنه احتجاج الضعيف الذي يخشى عواقب المجابهة. يقول لكرومر:

علّمتنا معنى الحياة فما لنا لا نشرئبُّ لها،ومالكَ تغضبُ ؟

أَنقِمتَ منا أن نُحسّ وإنما هذا الذي تدعو إليه وتندُبُ

أنت الذي يُعزَى إليه صلاحنا فيما تقررهُ لديك وتكتبُ

وهذا القول تعريض خفيف بما كان (كرومر) وغيره من ساسة الإنجليز يرددونه ويمتنوّن به، إذ يقولون إنهم رفعوا الظلم الذي عاش المصريون في ظل أسرة (محمد علي) يرزحون طويلا تحت وطأته.

ولقد ضاعف مصطفى كامل من جهوده في التنديد بسياسة (كرومر) عقب وقوع مأساة دنشواي، أعانته الصحف الفرنسية كما فتح له البرلمان الإنجليزي أبوابه، فعرض عليه صورا من معاناة الشعب المصري، استنكرها نوّاب هذا البرلمان وسعوا إلى عزل (كرومر) عن مصر.

وبمناسبة رحيل (كرومر)، وقف الساسة والأدباء يشيّعونه كلّ بحسْب ما يُكِنّ له، أو ما يقْدر على البوْح به. وكان أمير الشعراء وشاعر النيل على رأس الشعراء الذين سجّلوا مواقفهم في هذا الحدث. ويجمل بنا أن نقابل-كما سبق أن وعدنا- حديث كلّ منهما بحديث الآخر، فالمقابلة تظهر قدرة كلّ منهما على نشر ما بطوّيته و التصريح به.

يستهل حافظ قصيدته مخاطبا نفسه: [٣٠]

فتى الشعر! هذا موطن الصدق والهُدى

فلا تكذب التاريخ إن كُنتَ منشدا

لقد حان توديع (العميد)، وإنهُ

حقيقٌ بتشييع المُحبّين والعِدا

ولأن الشاعر أعلن في البداية التزامه الصدق فيما يقول، راح يذكر للرجل ما يعرف من أياديه ومآثره، مثل نشره الأمن في أنحاء البلاد، ومناصرته الضعفاء، ونهوضه بشئون الزراعة. وبعد ذلك أخذ يعدّد ما يعرف من مساوئ حكمه، وعلى رأسها مأساة دنشواي، ثم محاربته التعليم واللغة العربية، وحجبه الصحف، وتوليته أمور المصريين من ليس أهلا لذلك، وأخيرا طعنه المستمر في الدين الإسلامي واتهامه المسلمين بالتعصب.

ولا يفوت حافظا بعد أن أحصى ذلك كله- وقد عُرف بالحيطة والحذر وتقدير عواقب الأمور-لا يفوته أن ينسب كلّ ما أحصاه لـ(كرومر) أو عليه إلى الآخرين، سمعه على ألسنتهم فنقله ولم يزد عليه. أي أنه ليس بمادحٍ للإنجليز، أو قادح في سياستهم. وبمثل هذا القول يتخلص حافظ وينجو. ينجو من المصريين إذا غضبوا بسبب ما يعزوه إلى الإنجليز من أيادٍ عليهم، وينجو من الإنجليز إذا غضبوا بسبب ما يعدده من مساوئهم. يقول:

فهذا حديث الناس، والناسُ ألسنٌ ... إذا قال هذا صاح ذاك مفنّدا

ولو كنتُ من أهل السياسة بينهمْ ... لَسجّلتُ لي رأيا وبُلّغتُ مقصدا

ولكنني في معرض القول شاعرٌ ... أضاف إلى التاريخ قولا مخلّدا

وهذا النقل الأمين لآراء الآخرين، الذي يستر به الشاعر ماكان ينبغي أن يبديه من شعوره، بوصفه مواطنا مصريا مضطهدا في أرضه وبين أهله-هذا النقل ليس من عمل الشاعر الذي يريد أن يضيف إلى التاريخ- كما يزعم حافظ-قولا مخلّدا. فالقول المخلد ليس هو حصر الآراء ومقابلة الأبيض منها بالأسود، وليس هو التزام الموضوعية

والحيدة في مثل ذلك الموقف الهام من تاريخ الأمة، فلكل حادثة حديث، وحديث الشعراء في مثل تلك المناسبة خصوصٌ وتفرّد، ويستمد من طبيعة الحدث ومما تجيش به نفس الشاعر. وصدر حافظ مكتظ بمقت الإنجليز وكراهيتهم، لكنه أحكم الصمام لخوفه، وراح يلتوي بالقول تارة، ويجامل به أخرى مَنْ لا يستحق المجاملة. فـ(كرومر) الذي يجامل حافظ الإنجليز في شخصه، وقف في هذا الحفل الذي أُعدّ لتكريمه يعدد- كعادته- نقائص الشعب المصري، ويوجه الإهانات إلى الخديوي إسماعيل في وجه ذويه الذين حضروا لتوديعه، لا يراعي فيما يقول كرامة لمصر ولا لمن التف حوله من وجهائها يُسْمعه الثناء الحسن.

ولئن كان شعر حافظ الذي سمعناه يُطفئ حماس الشعب، بما يُشيعه من إحساس بالاستكانة والإذعان للأمر الواقع، فإن (شوقي) لم يطق السكوت على إهانات (كرومر) ولياذ الحاضرين إزاءها بالصمت، وسرعان ما حمل عليه بقصيدة قوية أذهبت غيظ الأمة. في هذه القصيدة لن يلمس القارئ ما اعتاده من تأنق الشاعر في لغته، ومن بيانه الذي يذهب به كل مذهب، فهي وليدة انفعال قوي بالموقف جعلها تبدو من أولها إلى آخرها، وكأنها قذائف متلاحقة يصوّبها شوقي إلى وجه ذلك الرجل الذي لا يتودد ولا يتحفظ: (٣١)

أيّامكم أم عهد إسماعيلا	أم أنت فرعونٌ يسوس النيلا ؟
أم حاكمٌ في أرض مصرَ بأمرهِ	لاسائلًا أبدًا ولا مسئولا ؟
لما رحلت عن البلاد تشهّدتْ	فكأنك الداءُ العياءُ رحيلا
أوسعتنا يوم الوداعِ إهانةً	أدبٌ لعمرك لايُصيبُ مثيلا

وأبيات القصيدة تتوالى مشبعة بانفعال الشاعر وباعتداد المصري بدينه ووطنه وحقه، وكلها هجوم على السياسة الإنجليزية التي لا تراعي إلّا ولا ذمّة، وتهكمٌ شديد بما كان (كرومر) يذكره في تقاريره السنوية من وجوه الإصلاح التي نهض بها في مصر. وراح شوقي في جرأة يذكّره بمساوئ حكمه العديدة، يحصي له الكثير منها، ويعرّض بمن

وقفوا يُثنون عليه، ويحصون أياديه:

قالوا: جلبتَ لنا الرفاهة والغنى | جحدوا الإلهَ وصنعهُ والنِّيلا
كم مِنّةٍ موهومةٍ ، أتبعتَها | مَنًّا على الفَطِنِ الخبيرِ ثقيلا ؟
في كل تقريرٍ تقول : خلقتُهمْ | أفهل ترى تقريرك التنزيلا ؟!

واستمر الشاعر يعدد مساوئ الإنجليز، لا يرى لهم على مصر يداً البتة. وهل لمحتل يغتصب الحق ويذل الرقاب ويأسر الناس في داخل أوطانهم، فضل عليهم أو مِنّة ؟!

وكأن شوقي أراد أن يلقّن المصريين الذين التفوا حول (كرومر)، يمتدحونه ويتباكون لرحيله، أراد أن يلقنهم درسا فيما ينبغي أن يكونوا عليه من الغيرة على عقيدتهم ووطنهم. فنراه في حديثه إلى (كرومر) ينافح عن عقيدته الإسلامية، ويؤكد انتماءه وولاءه التام لمصر:

لو كنتُ من حُمر الثياب عبدتكمْ | من دون(عيسى)محسنا ومُنيلا
أو كنتُ بعض الإنجليز قبلتكمْ | مَلِكاً أُقطِّعُ كفَّه تقبيلا
أو كنتُ قسّيسا يهيم مبشّرا | رتّلتُ آية مدحكمْ ترتيلا
إنّا تمنينا على الله المُنَى | و الله كان بنيْلهنّ كفيلا
من سب دين (محمد) فمحمّد | متمكّن عند الإله رسولا

مشيرا في البيت الأخير إلى ما كتبه (كرومر) سنة ١٩٠٦م في تقريره من طعْن في الدين الإسلامي، مدعيا أنه لا يصلح لهذا العصر.

والاختيار من هذه القصيدة أمر يشق على الباحث، فهي تمضي متشابكة في نسيج عاطفي قوي، وكل بيت فيها لا يقل دلالة على نفس صاحبها من الآخر. لكنّ طبيعة البحث تقضي بالاجتزاء والبتر. وما أثبتناه منها يكفي شاهدا على ما بين الشاعرين من فرق كبير، لا في صدق العاطفة والإخلاص للوطن فإنه لا يخامرنا شك قليل في وطنية حافظ، وإنما في القدرة على الإفصاح والتصريح، والاستعداد لتحمل ردود الفعل. وليس هذا الموقف بغريب على شوقي، فقد وقف قبله بثلاثة أعوام يندد في إحدى

المناسبات بـ(رياض) باشا رئيس الوزراء، لتملّقـه الإنجليـز[٣٢] . وقـد دفـع شـوقي ثمـن مواقفه الجريئة من الإنجليز ومن ساسة مصـر-الضعفـاء، فليـس نفيـه إلى أسـبانيا عقـب اندلاع الحرب العالمية الأولى، سوى تعبير عملي عما يُكنّه هؤلاء جميعـا لـه مـن ضِغـن ورغبة في الانتقام. وما جرى لشوقي كان تصديقا لمخاوف حافظ وتعميقا لمسـلكه في التردد وشدة الحرص، وكان سببا في استمراره على نهجه الذي اختطه وارتضاه سـبيلا مأمونا، لا يكاد يميل عنه.

ولحافظ قصيدتان يجب علينا أن نشير إليهما، وما قـد يكـون فيهمـا مـن ملامـح التغيّر الطفيف في لهجته. أما الأولى، فهي قصيدته التي اسـتقبل بهـا (غورسـت) الـذي ولِيَ شئون مصرخلفًا لكرومـر. وأمـا الثانيـة، فهـي قصيدتـه في (مكمـاهون)، المعتمـد البريطاني في مصر زمن الحرب العالمية الأولى.

في مخاطبته (غورست)، يبدو حافظ أكثر جـرأة ممـا عهدنـاه سـابقا، فهـو يطـرح رأيـه بصراحة في (كرومر) ويعرض كثيرا من مساوئه ومساوئ الإنجليز بعامة، في غير تخـفٍ وراء الآخرين. ونلمس هذه الصراحة أيضا في حديثه عن همـوم المصريين الـتي جلبهـا الاحتلال، وفي مطالبته بضرورة إصلاح أحوالهم وإعـادة بعـض حقوقهـم. ويبـدو مـن القصيـدة أن بنـات الشـعر الـتي هتـف بهـا الشـاعر في مستهلها يستمنحها الشـجاعة والفصاحة، قد استجابت لبعض ما طلب: [٣٣]

بناتِ الشعر! بالنفحاتِ جُودي ... فـهـذا يـومُ شاعـركِ المُـجيـدِ

وأَوْلـي ذلك الـفـاني بيـانـًـا ... يـتـيـهُ بـهِ على أهـلِ الخلـودِ

وحُلّي عُـقـدةً من أصـغريــهِ ... يَلِنْ لـهُتـافـهِ قـاسي الحـديـدِ

فالقصيدةتوضح أن بنات الشعر لم تحل من عُقد أصغريه، قلبه ولسانه، إلا عقدةً واحدة بقدر ما سأل،وبقيت فيهما عقد كثيرة من الخوف والعجز حالت دون إتيان الشاعرفي بيانه بما يُرضي أحرار الأمة الذين لايقبلون غير المطالبة بالخلاص التـام. يكفـي الشـاعر جرأة-وهو يقدّر ظروفه الخاصة ويعي ظروف مصر العامة-يكفيه أن يهاجم (دانلوب)

المستشار الإنجليزي المستبد بوزارة المعارف، وقد كان من أهم الأعمدة التي يستند إليها (كرومر) في تنفيذ سياسته. فنراه يعلن لـ(غورست) صراحة، أن المصريين ما عادوا يحتملون وجود هذا المستشار، ويطلب منه أن يستبدل به آخر أكثر حكمة وقصْدا. يعرض عليه ذلك في ثمانية أبيات، يختلط فيها الاستياء بالتهكّم، نذكر منها قوله:

هَبُوا (دانلوب) أرحبكم جنانا وأقدركم على نزْعِ الحُقُودِ

فإنّا لا نُطيقُ لهُ جِوارا وقد أَودى بنا أو كاد يُودي

مللْنا طولَ صُحبتهِ وملّتْ سوابقنا من المشي الوئيدِ

بحمد الله ملكُكُمُ كبيرٌ وأنتم أهلُ مرحمةٍ وجُودِ

خذوهُ فأمتعوا شعبا سوانا بهذا الفضلِ والعلمِ المقيدِ

وفي القصيدة مصالح وطنية أخرى يلح الشاعر في المطالبة بتحقيقها. لكننا نراه بعد هذه الصراحة يلجأ إلى تحقيق شيء من التوازن في قصيدته، يلطّف به ما يكون قد أبداه من جرأة في إعلان الرأي والمطالبة بحقوق الشعب. نراه حريصا على الإقرار للإنجليز بعجز مصر وبأنهم قوّة لا تُقاوَم وجاه لا يُطاول. ينفي بهذا عن نفسه أن يكون ندًا لهم، قادرا على مناجزتهم ودرء عاديتهم:

فما جئنا نطاولكمْ بجاهٍ يطولكُمُ ولا رُكنٍ شديدِ

ولا جئنا نعاجزكم بعلمٍ يبين به الغويّ من الرشيدِ

ولكنّا نطالبكم بحقٍ أضرّ بأهلهِ نقْضُ العهودِ

وهكذا يتلون صوت الشاعر في قصيدته فيعلو ويخفت، وتأخذ لغته مستويات مختلفة من الخطاب، فترق وتقسو. يفعل ذلك لئلا يختل توازنه وسط ظروفه المضطربة.

أما قصيدته في (مكماهون)، الذي ولي أمر مصر مع بداية الحرب العالمية الأولى، فمليئة بالتودد إلى الإنجليز والثناء على عدلهم ونبل مقاصدهم. يرمي حافظ بذلك إلى حث المعتمد الجديد على انتهاج سياسة أكثر عدلا ورحمة من سابقيه: (٣٤)

أنتم أطباء الشعو بِ وأنبلُ الأقوامِ غايةْ

أنّى حللْتم في البلا — د لكم من الإصلاح آيةْ

رسختْ بنايةُ مجدكم — فوق الرويّة والهدايةْ

وعدلتمُ فملكتمُ الدّ — نيا وفي العدل الكفايةْ

إنْ تنصروا المستضعفيـ — ـنَ، فنحن أضعفهم نكايةْ

والشاعر يبلغ في البيت الأخير غاية الضعف، فحديثه فيه حديث من أقر بهزيمته وألقى إلى خصمه زمام أمره، يصرّفه كيف يشاء، لا يسأله رد قضائه فيه، إنما يسأله اللطف فيما قضى به عليه وقدّر له.

قال حافظ قصيدته في ظروف الحرب التي زادت الإنجليز غلظة، وجعلتهم أشد خنقا للأصوات التي يخشون أن تثير ضدهم النفوس مما يؤثّر على موقفهم في تلك الحرب. ومن أجل تهيئة الأحوال في مصر لصالحهم، وضمانا لاستقرارها، أنزلوا الخديوي (عباس الثاني) من فوق العرش ومنعوه من دخول مصر، كما أبعدوا عن مصر مَن كانت لهم صلة قوية به وعلى رأسهم أمير الشعراء.

ومما يدل على حرج الظروف آنذاك، أن الشاعر نفسه قبل ذلك بأيام قلائل، وقف يهنئ السلطان (حسين كامل) بجلوسه على عرش مصر خلفا لعبّاس، فلم يكن منه سوى أن نصحه بموالاة الإنجليز والتودد إليهم، والاعتماد عليهم فيما يشق عليه من أمر الحكم: (٣٥)

فعش للنيل سلطانا أبيّا — له في ملكه عقدٌ وحلُّ

ووال القوم إنهمُ كرامٌ — ميامين النقيبة أين حلّوا

وليس كقومهم في الغرب قوم — من الأخلاق قد نهلوا وعلّوا

فإن صادقتهم صدقوك ودا — وليس لهم إذا فتّشت مثلُ

وإن شاورتهم والأمر جدٌّ — ظفرت لهم برأي لا يزلّ

فبادِدهم حبال الود وانهض — بنا فقيادنا للخير سهلُ

يقول للسلطان ذلك وهو الذي وقف يحذّره يوم كان رئيسا لمجلس الشورى وقبل أن

يجلس على أريكة الحكم بست سنوات، يحذره من خداع الإنجليز ونقضهم عهودهم: (٣٦)

فلا تثقوا بوعد القوم يوما ... فإن سحاب ساستهم جَهامُ

وخافوهم إذا لانوا فإني ... أرى السُّواس ليس لهم ذمامُ

فكم ضحِك العميد على لحانا ... وغرّ سراتنا منه ابتسامُ

وهذا التناقض سببه أن حافظا-كما ذكرنا من قبل-يتأثر في مواقفه وأقواله بظروفه الآنيّة، فيحاول التكيّف معها دفعا لأي أذى. ولم يكن السلطان الجديد في حاجة لنصيحة الشاعر، فقد معروفا قبل تولّيه السلطة بمهادنة الإنجليز وعدم مناوأتهم، إن لم يكن بالتودد إليهم. ولولا علاقته الحسنة بهم ما أجلسوه على العرش في ظروف الحرب الحرجة بدلا من عباس. ولابد أن يكون حسين كامل سببا في نفي شوقي إلى أسبانيا عقب تولّيه الحكم؛ لعلاقة شوقي الوطيدة بعباس الذي كان على جفاء مع عمه حسين كامل، ثم لأن شوقي رمى حسين كامل بالجُبْن في قصيدته التي ردّ فيها على (كرومر)، إذ كان حاضرا حفل توديعه وسمع ما وجهه من إهانات إلى مصر وإلى آبائه من أسرة محمد علي، دون أن يغضب أو يحاول دفع مالحقهم من أذى.

لكن الباحث يقدّر لحافظ شجاعته التي أبداها فيما نُشر من شعره بعد تركه العمل وقُبيْل وفاته، ونخص تلك المقطوعات القصار التي يندّد فيها بادّعاء الإنجليز الحِياد وعدم التدخّل في الشئون المصرية. نراه يفنّد في جرأة إدعاءاتهم، ويرميهم-وهو الذي أكثر من امتداح أخلاقهم-بالكذب والغدر وخيانة المواثيق، ويزيد على ذلك فيتوعدهم وينذرهم بزوال ملكهم، كما نسمعه يصرّح في غير موضع بألّا بديل عن توحيد صفوف الشعب لمقاومتهم والتخلص منهم. في هذه المقطوعات القصار، ينفث الشاعر ما اكتظ به صدره لسنوات طويلة من غيظ وكراهية، ولا يحذر ما كان يحذره من قبل ويتقيه، يقول: (٣٧)

قل للمحايدِ هل شهدتَ دماءنا ... تجري وهل بعد الدماء سلامٌ ؟

سُفِكت مودتنا لكم وبدا لنا أن الحياد على الخصام لثامُ
إن المراجل شرُّها لا يُتّقَى حتى ينفّس كربهنّ صمامُ
لم يبق فينا من يُمنّي نفسهُ بودادكم فودادكم أحلامُ
أَمِن السياسة والمروءة أننا نشقى بكم في أرضنا ونُضامُ ؟!
إنّا جمعنا للجهاد صفوفنا سنموت أو نحيا ونحن كرامُ

ولنقرأ حديثه التالي إلى المندوب السامي، يستنكر فيه استخفافه بهموم المصريين، وانشغاله عنها بما يطلبه من أسباب المتعة واللهو، كما يصف الإنجليز بالغدر، ويصرّح بأن المواجهة هي السبيل الوحيد لانتزاع الحق: (٣٨)

ألم ترَ في الطريق إلى (ركيادِ) تصيد البطَّ بؤس العالمينا ؟!
ألم تلمح دموع الناس تجري من البلوى، ألم تسمع أنينا ؟!
ألم تخبر بني (التاميز) عنّا وقد بعثوك مندوبا . . أمينا
بأنا قد لمسنا الغدر فيكمْ وأصبح ظننا فيكم يقينا ؟
كشفنا عن نواياكم فلستمْ -وقد بَرح الخفاء- محايدينا
سنُجمع أمرنا وترونْ مِنّا لدى الجُلّى كرامًا صابرينا
ونأخذ حقنا رغم العوادي تُطيف بنا ورغم القاسطينا

ويزداد الشاعر حميّةً للوطن والحق المغتصب، فيعلن بصوت عالٍ عن تحدّيه الإنجليز حتى الموت، مهما بلغت سطوتهم، واشتد قهرهم: (٣٩)

حوّلوا النيل، واحجبوا الضوء عنّا واطمسوا النجم، واحرمونا النّسيما
واملئوا البحر إن أردتم سفينا واملئوا الجو إن أردتم رُجوما
وأَقيموا للْعسْف في كل شبرٍ (كُنْسِتَبْلاً) بالسوط يَفري الأديما
إننا لن نحول عن عهد مصرٍ أو ترونْا في التُّرب عظما رميما
فاتقوا غضبة العواصف إني قد رأيتُ المصير أمسى وخيما

هذا هو الوجه الحقيقي لـ(شاعر النيل)، تطل ملامحه قُبيل وفاته. ولو مدّ الله في عمره،

لازدادت هذه الملامح في شعره قوة وبروزا. ولئلا نهضم الشاعر حقه تقول، إن هذه الملامح الأصيلة قد ظهر شئ منها في شعره الذي رثى به زعيمي الأمة مصطفى كامل وسعد زغلول، وظهرت بوضوح في قصيدته التي أطرى بها شجاعة المرأة المصرية وجهادها في ثورة ١٩١٩م.

ولئن حالت ظروف حافظ أحيانا دون الجهر بكراهيته الإنجليز والتصريح بحقيقة شعوره نحو سياستهم الغاشمة أو اضطرته أحيانا إلى تملقهم بالثناء الحسن، فإنه كان يلجأ آنذاك إلى سدّ هذا الخلل في موقفه بأحد أمرين: فأما الأول، فهوالتوجّه إلى المصريين وبخاصة الشباب، يدعوهم إلى استعادة مجدهم القديم عن طريق التسلح بالعلم ونبذ اليأس والفرقة ...إلخ وقد ترك في ذلك حديثا كثيرا وجيدا، كقوله للشباب: (٤٠)

أهلًا بنابتةِ البلاد ومرحبا ... جددتم العهد الذي قد أخلقا

لاتيأسوا أن تستردوا مجدكمّ ... فلَرُبّ مغلوبٍ هَوى ثم ارتقى

مَدّتْ له الآمال من أفلاكها ... خيطَ الرجاء إلى العُلا فتسلّقا

فتجشّموا للمجد كل عظيمةٍ ... إني رأيتُ المجد صعبَ المرتَقَى

من رام وصْل الشمس حاك خيوطَها ... سببًا إلى آمالهِ وتعلّقا

عارٌ على ابن النيل سبّاقِ الورى ... مهما تقلّب دهرهُ، أن يُسبقا

وأما الثاني، فهو نشْر ما طوى الزمن من كتاب مصر القديم، الحافل بالأمجاد والمفاخر، يبسط صفحاته أمام الأحفاد لتكون حافزا ودافعا، ولحافظ في ذلك حديث غير قليل، لعل من أجوده لفظا وبيانا، قصيدته " مصر تتحدث عن نفسها "، التي صاغها في موقف سياسي دقيق ومؤثر في تاريخ الحركة الوطنية، يتطلب من الشعب مؤازرة زعمائه، الذين كانوا يخوضون آنذاك صراعا شديدا من أجل الاستقلال، يكابدون فيه صلف الإنجليز والتواء مسالكهم. في هذه القصيدة، راح حافظ على لسان مصر، أو وقفت (مصر) تذكر ما حباها الله به من النّعم، وتثني على بنيها، وتؤكد أهليّتهم

للنهوض بكل جليل من الأعمال، ثم شرعت تذكر من مفاخر السلف ما يعتز به الخلف: العلم والحكمة والفن، والجهاد الذي لا يعرف اليأس ... إلخ وبعد هذا كله، كان منطقيا، أن تقف مصر " الأم "منكرةً ما يدّعيه المحتلّ الدخيل من عجز أبنائها عن احتمال الأعباء والنهوض بتكاليف الحياة، ومؤكدةً حقها في حياة حرّة ناعمة: (٤١)

أتُراني وقد طويتُ حياتي ... في مِراسٍ، لم أبلغ اليوم رُشدي ؟

أي شعبٍ أحق مني بعيشٍ ... وارف الظل أخضرِ اللون رغْدِ ؟

أمِن العدل أنهم يَرِدُون الْـ ... ـماء صفْوا وأن يُكدَّر وِرْدي ؟

أمِن العدل أنهم يُطلقون الْـ ... أُسد منهم وأن تُقيّد أُسدي ؟

نصف قرن إلا قليلا أُعاني ... ما يُعاني هوانَهُ كلُّ عبْدِ

ولا تجد هذه الأم أمامها من وسيلة، إلا أن تجدد ثقتها في نصر الله، وفي حُسن بلاء أبنائها، وأن تلتفت إليهم ممتدحةً سعيهم، ومستنجزة ما وعدوا من بذل الروح:

نظر الله لي فأرشد أبنا ... ئي فشدّوا إلى العلا أيَّ شدِّ

إنما الحق قوةٌ من قُوى الديّـ ... ـانِ أمضى من كل أبيضَ هِندي

قد وعدتُ العُلى بكلّ أبيّ ... من رجالي فأنجزوا اليوم وعدي

أَمهروها بالروح فهي عروسٌ ... تشْنأُ المهرَ من عُروض ونقدِ

إن الباحث المنصف وهو يكتب سير الرجال، لا يبني آراءه فيهم من خلال آثارهم ومواقفهم فحسب، وإنما يبحث عما وراء هذه الآثار والمواقف من عوامل تؤثر في سلوك الإنسان وتشكل مواقفه. وأهم هذه العوامل ما ركّبه الله في نفوس البشر من حاجات ورغائب، تجعل هذه النفوس تستجيب لظروف البيئة وأحوال المجتمع أكثر من استجابتها لما هو حق أو واجب، فنراها تحاول التكيّف معها وتعديل أوضاعها وفقا لما حولها حُبا في البقاء ورغبةً في إشباع هذه الحاجات. والشاعر، أي شاعرٍ-كما ذكرنا من قبل- بشرٌ، تحوي نفسه كلّ ما رُكّب في نفوس الآخرين من صنوف الميل والغريزة، ما كان منها عاملا على قوة النفس وما كان منها عاملا على

ضعفها وانكسار حدّتها، وهو ليس مصروفا بقوة علوية عن رغائب البشر الدنيا ونزعات نفوسهم كما هو شأن الأنبياء والرّسل. لهذا كان من الطبيعي أن يصمت شوقي وحافظ وغيرهما من الشعراء والكتاب ودعاة الإصلاح، متى كان الجهر والنطق مجلبةً لشرّ يتهددهم في أنفسهم أو ذويهم بصورة من الصور. وقد كان (روفائيل مسيحة) مصيبا حين علل موقف حافظ من قضايا أمته في ضوء هذا العامل النفسي الهام وحيث يقول: " وحقيقة الأمر أن وجدانه كان ميدانا لصراع عنيف بين الحرية في القول والجهر بما قد يغضب منه السلطان ويهز عرش وظيفته ويقذف به إلى لجة الحياة التي لا يقوى على مكافحتها، وبين كتمان هذه النزعات التي قد تغضب منه السلطان. ونعني بالسلطان ذوي النفوذ والسطوة، وقد كانوا في مصر كثيرين من المصريين والإنجليز. نقول إن الوظيفة لم تطفئ جذوة السياسة في نفس شاعرنا إطفاء، بل و لم تفسدها أو تدفعها إلى شيء من الانحراف. وكل ما فعلته أنها جعلته إلى الاعتدال أدنى، جعلته يتجنب العاصفة ويحتال في كفاحه من أجل آرائه السياسية والتعبير عنها " (٤٢)

ويذكر أن مذهب حافظ في الاعتدال والتوسط والحيطة، لم يكن طابعاشخصيا له وحده يلبي عن طريقه رغبات نفسه، وإنما كانت مهادنة الاحتلال مبدأ سياسيا أخذ به بعض ساسة المصريين في معاملة الإنجليز، يرونه الأنسب والأجدى في بعض مراحل النضال الوطني، وبخاصة في ظل سياسة الوفاق التي قامت بين الإنجليز والقصر الحاكم وأدت إلى إضعاف تيار الحركة الوطنية (٤٣) . هذا فضلا عما كان الإنجليز يقومون به منذ عهد (كرومر) من مصادرةٍ للصحف، وترصّدٍ للأدباء الأحرار، يأخذونهم بالشدة ويزجّون بهم في السجون. وينتهي الكاتب إلى أن حافظا قد نجح في هذه الظروف القاسية، ونهض بواجبه الفني والقومي إلى حد بعيد (٤٤) .

وحافظ نفسه يجهر بمخاوفه من أن يلقى مصير الأدباء والساسة الذين امتدت إليهم كف الإنجليز بالبطش، ويصف ما تكابده نفسه من حرج موقفه وتردده بين

الجهر والصمت، فيقول:(*)

إذا نطقتُ فقاع السجن متّكأٌ   وإن سكتُّ فإن النفس لم تَطِبِ

لكننا ننعى عليه ثناءه على الإنجليز لمناسبة أو لغير مناسبة، ومقابلته قوتهم ونفاذ أمرهم بانهزام مصر وضعف حيلتها وإذعان شعبها، فليس ذلك في تقديرنا مما يدخل في باب " التّقيّة " أو المهادنة، ولا بد أن يترك أثرا سيئا في نفوس الأحرار، ويغلق نوافذ الأمل التي كان الشاعر نفسه يفتّحها أمام " نابتة البلاد " أو " رجال الغد المأمول " كما يحلو له أن يسمي ناشئة الأمة. وقد عاب كثيرون على حافظ ذلك، وعلّله بعضهم تعليلا آخر. يقول أحمد محفوظ: " كيف يهنّئ حافظ ويمدح مَلك هؤلاء المحتلين بلاده وملك هؤلاء الذين أذلوه في السودان وطردوه من الخدمة. وأية منفعة كانت تعود عليه من هذا السلوك المزري. ولكن من عرف حافظا وسذاجته، يقدّر أن أحد اللائذين بالوكالة البريطانية دفعه إلى هذا فانساق، لأنه كان سهل القياد، وهذه طبيعة فيه "(٤٥)

ولا أتفق وروفائيل مسيحة حين يعلل ذلك بقوله:

" الحقيقة أن ما قاله شاعرنا في هذا المجال لم يعْدُ تسجيل إعجابه العام بمقوّمات عظمة بريطانيا كدولة عظيمة تسعى إلى المجد في جد وحزم منذ القدم. وليس بغريب أن يعجب إنسان بما يرى من آثار هذا المجد وهذا الجبروت. وليس بغريب أن يعجب بالأركان الأساسية التي يقوم عليها النظام السياسي لهذه الدولة العريقة في الديمقراطية. ولسنا نرى أن افتيات هذه الدولة بالذات على سيادة مصر واحتلالها إياها كان مما يحدّ من إعجاب شاعر قومي كحافظ إبراهيم أو يصده عنه، فالإنسان وإن كان يحنق على عدوه قد يقدر فيه قوّته . . . ويلوح أن شاعرنا كانت تسيطر عليه في هذا الموقف العاطفة الإنسانية العامة التي تحس بوحدة الحضارة الإنسانية، وتتهذّب معها العاطفة القومية بحيث قد لاترى بأسا من الإشادة بشعب أو بدولة أجنبية وبمكانتها في الأسرة البشرية. وإذا لم يكن بغريب أن يشيد إنجليزي أو فرنسي بحضارة الفراعنة وأن يقر

بفضلهم على المدنية الإنسانية، فأظن أنه ليس بغريب أن يعجب شاعر مصري بروح الإنجليز الدستورية وبنظامهم البرلماني وبآدابهم وما إليها. » (٤٦)

فليس علم الإنجليز وأساطيلهم وديمقراطيتهم، مما ينبغي أن يشدو به المصري أو الهندي، أو غيرهما من أبناء الشعوب الذين ذاقوا وبال هذه الأشياء وكانت سببا في قهرهم واستلاب حريتهم وإرادتهم. وحافظ نفسه هو القائل على لسان مصر: (٤٧)

وارفعوا دولتي على العلم والأخـ ـلاق فالعلم وحده ليس يُجدي

وهو نفسه الذي سبق أن ذمّ علم الغرب ومدنيته، لأنهما كانا السيب فيما ساقته الحرب العظمى إلى البشر من ويلات، ورفع يديه إلى السماء مستعيذا يا لله تعالى من تلك الحضارة الغربية المدمرة: (٤٨)

لاهُمَّ ! إن الغرب أصبح شعلةً	من هولها أم الصواعق تفرقُ
العلم يُذكي نارها ، وتثيرها	مدنيةٌ خرقاءُ لا تترفّقُ
ولقد حسبتُ العلم فينا نعمةً	تأسو الضعيف ورحمةً تتدفقُ
فإذا بنعمته بلاءٌ مرهقٌ	وإذا برحمته قضاءٌ مطبقُ
إن كان عهدُ العلم هذا شأنهُ	فينا فعهد الجاهلية أرفقُ

إذن فمقارنة ثناء الإنجليزي أو الفرنسي على الحضارة الفرعونية بثناء المصري على الحضارة الإنجليزية أو الفرنسية، قياس غير صحيح للفرق الشديد بين الحضارتين. فلم تكن الحضارة المصرية القديمة في طوْر من أطوارها، حضارة استرقاق لشعوب الأرض واستغلال لثرواتها. ومازالت شعوب العالم المستضعفة حتى يومنا هذا تتجرّع مرارة هذه الحضارة الغربية، التي قصرَتْ ما تفهم من قيم الحق والخير والعدل على شعوبها، وراحت تَلقَى غيرهم بأخلاق أخرى وقيم مغايرة. ثم إن حافظ إبراهيم لم يكن يسير في مدحه الإنجليز وفق رؤية إنسانية محددة أو منهج أخلاقي واضح، وإنما كان-كما رأينا-يمتدحهم في موضع ويذمهم في آخر، ويتقلب في حديثه إليهم بحسب ما تقضي الظروف من حوله، فإذا به ينقض اليوم ما قاله عنهم بالأمس.

بقي أن نشير في حديثنا عن وطنية حافظ إلى أمر طريف، وهو أن حافظا تمنّى في عدة مواضع من شعره، أن يُطل شهر (تموز) على مصر بحدث يكون لها فرجا من كُربتها. ففي هذا الشهر نالت أمم كثيرة حرّياتها وحقوقها. يقول: (٤٩)

(تمّوزُ) ! أنت أبو الشهور جلالة ... (تمّوزُ) ! أنت مُنى الأسير العاني

هلّا جعلت لنا نصيبا، علّنا ... نجري مع الأحياء في مَيدانِ

أيعود منك الآملون بما رجَوْا ... ونعود نحن بذلك الحرمانِ ؟!

(تمّوزُ) ! إن بنا إليك لحاجةً ... فمتى الأوانُ ؟ وأنت خير أوانِ

وما هو أكثر طرافة في هذا الأمر، أن الشاعر وقف يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٠٩م، يهنئ العثمانيين بصدور دستورهم في مثل ذلك اليوم، ثم أخذ يدعو لهذا الشهر الذي كان فاتحة خير لكثير من شعوب الأرض، يقول: (٥٠)

لك الله يا (تموزُ) ، إنك بلسمٌ ... لجرحى الأسى، والدهر تعدو نوائبهْ

فكم رُعْت جبارا وأرهقت ظالما ... وأنصفت مظلوما توالت مصائبهْ

فديناك من شهر أغرّ محجّلٍ ... أوائله ميمونةٌ وعواقبهْ

تقابله الأعياد في الأرض كلما ... تجلّى هلالُ الشّهر، أو لاح حاجبهْ

ثم توفي حافظ وهو لايدري أن الله سيحقق أمنيته في مثل هذا اليوم من هذا الشهر الذي وقف يُطريه ويُفدّيه، وذلك بقيام ثورة ٢٣يوليو سنة ١٩٥٢م، التي استلت شوكة الاحتلال من حلوق المصريين.

شعوره القومي

أما شعور حافظ العربي فشديد الوضوح في شعره، وقد أبان فيما أبدع عن إحساس صادق وعاطفة جياشة تجاه أمته العربية، كما أكد أشد تأكيد انتماءه العربي والإسلامي. وما أكثر المناسبات التي وقف فيها يشيد بإخوانه العرب ويتغنى بأمجادهم، مثلما يتغنّى بأمجاد مصر ويعدّد مآثرها. ومن ذائع شعره القومي قصيدته التي يقول في

مستهلها: [٥١]

لمصرَ، أم لربوعِ الشام تنتسبُ ؟ هنا العلا، وهناك المجدُ والحسبُ
ركنان للشرق لازالت ربوعهما قلب الهلال، عليها خافق يجبُ
أم اللّغات غداة الفخر أمهما وإن سألتَ عن الآباء فالعربُ

كان على قناعة بأن الأصل الكريم الذي يلتقي فيه العرب واللسان القويم الذي يفصحون به، كفيلان بأن يجعلا منهم أمة واحدة تضم أقطارها عُرى المحبة، ويتسمّع فيها كل قطر أخبار شقيقه فيهب إليه قبل أن يهيب به:

إذا ألّت بوادي النيل نازلةٌ باتت لها راسياتُ الشام تضطربُ
وإن دعا في ثرى الأهرام ذو ألمٍ أجابه في ذرا لبنانَ منتحبُ
فما الكنانة إلا الشام، عاج على ربوعها من بنيها سادةٌ نُجُبُ

ولنتأمل البيت الثالث، لنرى كيف سما به شعوره القومي إلى مرتبة عالية، توحدت عندها الأقطار العربية في قطر واحد، فصارت مصر هي الشام، وصار أبناء الشام المقيمون في مصر، كأنهم يتنقّلون في وطنهم وبين ذويهم. وفي لبنان يقف حافظ بين إخوانه فلا يحس إحساس المغترب الذي بعدت به الشقّة عن داره وأهله: [٥٢]

لي موطنٌ في ربوع النيل أُعظمهُ ولي هنا في حماكم موطنٌ ثانِ
إني رأيتُ على أهرامها حُلَلًا من الجلال، أراها فوق لبنانِ
حسبتُ نفسي نزيلا بينكم فإذا أهلي وصحبي، وأحبابي وجيراني

وفي موضع سابق من هذا البحث، ذكرنا شيئا من شعر حافظ الذي وصف فيه طموح أهل الشام ومضاء عزمهم، وانتشارهم في كل أقطار الأرض سعيا وراء الرزق. يمتدح ذلك لهم ويراه ميزة في نفوسهم: [٥٣]

ما عابهم أنهم في الأرض قد نُثِروا فالشهب منثورة مذ كانت الشُّهبُ

ويزيد على ذلك فيعزو إليهم الفضل في نشر اللغة العربية في كل الأصقاع التي رحلوا إليها، ولولاهم ما بلغت اللغة العربية ما نراه اليوم من انتشارها الواسع:

سعوا إلى الكسب محمودا وما فتئتْ أم اللغات بذاك السعي تكْتَسبُ

فأين كان الشآميّون ، كان لها عيشٌ جديد وفضلٌ ليس يحتجبُ

وتدفعه غيرته القومية إلى مطالبة الشعوب العربية بنبذ الخلاف، وإلى تحذيرها من الفرقة الذين يسعون جادين لتمزيق وحدتها: [٥٤]

إن دام ما نحن فيه من مدابرةٍ وفتنة بين أجناس وأديان

رأيتُ رأي(المعرّي)حين أرهقهُ ما حلّ بالناس من بغيٍ وعدوان

لا تطهرُ الأرض من رجسٍ ومن درنٍ

حتى يعاودها (نوحٌ) بطوفان

يقصد بالبيت الأخير قول أبي العلاء المعري: [٥٥]

والأرض للطوفانِ مشتاقةٌ لعلها من درنٍ تُغسلُ

فإن طوفانا يطهّر الأرض العربية من أدرانها ليعيش من بقي في وئام، خير من أن العرب في فُرقة وتدابر يُطمعان فيهم الخصم ويجلبان عليهم الذل.

وما فتئ الشاعر يحذر من هذا الأمر الخطير الذي نجني نحن ثماره المرة الآن. ما كان حافظ حريصا على وحدة الصف داخل مصر لمواجهة الاحتلال وما فتئ، كان حريصا على وحدة الصف العربي وتماسكه لمواجهة أعداء الأمة لكنّ رائعة حافظ إبراهيم في بيان عاطفته القومية، هي قصيدته التي قالها تحية القطرين(خليل مطران) بمناسبة الإنعام عليه بأحد الأوسمة الرفيعة، لما في هذه من حُسن تأتي الشاعر لهذا الموضوع، ولاتخاذه أسلوبا جذّابا في عرض المفاخر العربية. وتجنبا للتكرار نستبقي الحديث عن هذه القصيدة إلى الفصل التالي و نتحدث عن العنصر القصصي في شعر حافظ.

هذه هي عاطفة حافظ القومية وحرصه الصادق على وحدة الوطن وهذه العاطفة كانت تزداد في شعره توهّجا إذا ألم بقطر عربي ما يروع أهله. الإيطاليون ليبيا سنة١٩١٢م يريدون انتزاعها من يد الأتراك وارتدوا مدحورين،

صوت الشاعر فخورا بما تحقق من نصر، يعتده نصرا للعرب وللإسلام، وشرع يسخر من أولئك الغزاة الذين طلبوا النجاة بالنفس وخلفوا وراءهم كثيرا من العتاد والعدّة:(٥٦)

حاتِمَ الطُّليان ! قد قلّدتنا ... مِنّةً نذكرها عاما فعاما
أنت أهديت إلينا عُدّةً ... ولباسا وشرابا وطعاما
وسلاحا كان في أيديكمُ ... ذا كلال، فغدا يفري العظاما
أكثروا النزهة في أحيائنا ... ورُبانا ، إنها تشفي السّقاما
وأقيموا كلّ عام موسما ... يُشبع الأيتام منّا والأيامى

لم تكن هزيمة الإيطاليين خفيفة الوطأة على نفوسهم. و لم يجدوا أمامهم وسيلة للانتقام سوى أن يتجهوا إلى سواحل الشام لضرب بيروت من البحر. وعلى أثر ذلك وضع حافظ منظومة تمثيلية، لا يهمّنا في هذا المقام بناؤها الفني، وإنما يهمّنا ما صوّره فيها من الإحساس الوطني وما كان وراء نظمها من شعوره القومي. (٥٧)

وبعد فإن الحديث عن وطنية حافظ ليس أمرا هيّنا لسببين. أما الأول، فهو كثرة ما شغله هذا الجانب في شعره من حديث. وأما الثاني، فهو كثرة ما في مواقفه وآرائه من مفارقة وتناقض. وهذان الأمران يتطلبان من الباحث جهدا غير عاديّ في الاستقراء والملاحظة والمقابلة بين الآراء، ثم البحث عن علل ما يلحظ من ظواهر. وقد حرصت على تقديم صورة دقيقة مستوفاة الملامح لهذا الرجل، توضّح ما كان بداخل نفسه من دروب متقاطعة أو ملتوية، محلّلا معلّلا، ما أمكن التحليل والتعليل. وأما شعوره القومي فواضح في ديوانه ولا يتطلب عناء من القارئ للوقوف عليه.

* * *

هوامش الفصل الرابع:

(١) ديوان حافظ إبراهيم ج١،ص١٣٩

(٢) الشوقيات ج٢ ص١٠٣

(٣) ديوان حافظ إبراهيم ج٢،ص٢٠

(٤) حياة حافظ إبراهيم ص٦٨وص٧١-٧٤

(٥) ديوان حافظ إبراهيم ج١،ص٢٦١

(٦) حياة حافظ إبراهيم ص٧٢-٧٣

(٧) ديوان حافظ إبراهيم ج١،ص٢٦١

(٨) المرجع السابق ج٢،ص١٤٩

(٩) المرجع نفسه ج٢،ص١٥٢

(١٠) أبو زيد القرشي، جمهرة أشعار العرب، ضبط على فاعور (بيروت-دار الكتب العلمية-بدون تاريخ) ص٣٢٣.

(١١) ديوان حافظ إبراهيم ج٢،ص١٦٢

(١٢) المرجع السابق ج٢،ص١٩٨

(١٣) انظر "حافظ وشوقي" ص١٩٤وص٢٠٩-٢١٠

(١٤) حياة حافظ إبراهيم ص١٠٥

(١٥) ديوان حافظ إبراهيم ج١،ص٢٦٥

(١٦) المرجع السابق ج٢،ص٢٢٥

(١٧) المرجع نفسه ج١،ص١١٨

(١٨) المرجع نفسه ج١،ص١٠٩

(١٩) حافظ وشوقي (للصيرفي) ص٥٧

(٢٠) ديوان حافظ إبراهيم ج١،ص١١٣

(٢١) المرجع السابق ج٢،ص٨٧

(٢٢) " هندنبرج " قائد ألماني شهير من قواد الحرب العالمية الأولى

(٢٣) ديوان حافظ إبراهيم ج٢،ص٨٧

(٢٤) المرجع السابق ج٢،ص٢١٨

(٢٥) عبد الرحمن الرافعي. مصطفى كامل، (القاهرة - مكتبة النهضة المصرية - سنة ١٩٥٠م) ص٣٢٠ - ٣٣٠.

(٢٦) الشوقيات ج١ ص٢٤٤.

(٢٧) د.محمد صبري السوربوني ، الشوقيات المجهولة (القاهرة - دار الكتب سنة ١٩٦٢) ص٥٢ - ٨٧،٨٣،٧٥،٥٨.

(٢٨) ديوان حافظ إبراهيم ج٢،ص٢٠

(٢٩) المرجع السابق ج٢،ص٢٥

(٣٠) المرجع نفسه ج٢،ص٢٦

(٣١) الشوقيات ج١،ص١٧٣

(٣٢) المرجع السابق ج١،ص٢٠٨

(٣٣) ديوان حافظ إبراهيم ج٢،ص٣١

(٣٤) المرجع السابق ج٢،ص٨٢

(٣٥) المرجع نفسه ج١،ص٦٧

(٣٦) المرجع نفسه ج٢،ص٥٦

(٣٧) المرجع نفسه ج٢،ص١٠٥

(٣٨) المرجع نفسه ج٢،ص١٠٦

(٣٩) المرجع نفسه ج٢،ص١٠٨

(٤٠) المرجع نفسه ج٢،ص٦٠ وانظر أيضا قصيدة " تحية العام الهجري الجديد " ج٢،ص٣٧

(٤١) المرجع نفسه ج٢،ص٩٢

(٤٢) روفائيل مسيحة ،حافظ إبراهيم:الشاعر السياسي(القاهرة–مطبعة الاعتماد سنة ١٩٤٧م) ص٤٢

(٤٣) المرجع السابق ٤٣

(٤٤) المرجع نفسه ص٤٥

(*)ديوان حافظ إبراهيم ج٢، ص١١٨

(٤٥) حياة حافظ إبراهيم ص١٩٢

(٤٦) حافظ إبراهيم: الشاعر السياسي ص٧٣–٧٤

(٤٧) ديوان حافظ إبراهيم ج١،ص٤٨

(٤٨) المرجع السابق ج٢،ص٩٣

(٤٩) المرجع نفسه ج٢،ص٨٦

(٥٠) المرجع نفسه ج٢،ص٥٢

(٥١) المرجع نفسه ج١،ص٢٦٨

(٥٢) المرجع نفسه ج١،ص١٣٤

(٥٣) المرجع نفسه ج١،ص٢٧٠

(٥٤) المرجع نفسه ج١،ص١٣٩

(٥٥) أبو العلاء المعري، اللزوميات ج٣ ص٢٢٣.

(٥٦) ديوان حافظ إبراهيم ج٢،ص٦٧

(٥٧) المرجع نفسه ج٢،ص٦٩

الفصل الخامس

ملامح فنية بارزة فى شعر حافظ إبراهيم

تفتحت ملكة حافظ فى وقت بلغ فيه شعر البارودى درجة عالية من الإتقان، وصلت بينه وبين المرموقين من شعراء العصر العباسي، فضلا عما كان البارودى يتمتع به من منزلة طيبة فى نفوس المصريين لرباطة جأشه وثباته على مبدئه فى أحداث الثورة العرابية. فليس غريبا أن يتخذه حافظ وغيره من الشعراء الشباب، مثالا، يستلهمونه، ويسعون إلى بلوغ منزلته. يمتدحه حافظ فيقول له:[1]

أمير القوافى، إن لى مُستهامة	بمدح ومَنْ لى فيك أن أبلغ المدى
أعرنى لمدحيك اليراع الذى به	تخط وأقرضنى القريض المسدَّدا
ومُركل معنًى فارسيّ بطاعتى	وكل نفور منه أن يتودّدا
وهبنى من أنوار علمك لمعة	على ضوئها أسرى وأقفو من اهتدى
وأربو على ذاك الفخور بقوله:	(إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا)

ويبين لنا البيت الأخير، أن حافظا الذى كان يتمنى فى صنعته شيئاً من حظ البارودى، خطر بباله ما هو أسمى، فحدثته نفسه عن يوم يتفوق فيه على أبى الطيب. ولعل القافية هى التى هيّأت له هذه الأمنية، التى قنع كثير من الشعراء خلال العصور السابقة بما هو أدنى منها درجات كثيرة، والتى يُعَد التطلع إلى مثلها وهما. ولم لا يتمنى حافظ ذلك والبارودى قدوته ومثاله المحتذى، كان كثير الإعجاب بشعر المتنبى والتطلع إلى مكانته، غير أن حياة البارودى الفارس والقائد، المليئة بالأحداث والمواقف مع تكوينه النفسى، كانا يؤهلانه لأن يحقق شيئاً كثيزا مما يصبو إليه، بعكس حياة حافظ ومنهجه فما عرفناه عن حياته وشخصه ما كان ليتيح له أكثر من أن يكون تلميذا متفوقا بداخل مدرسة البارودى. وهكذا ظل يقفو خطواته وغيره من أعلام الشعر القدامى، ينهل من مواردهم، ويتمرّس بمعارضتهم، ويتعرّض فى أثناء ذلك لسهام النقد من قِبل دعاة التجديد، الذين علت أصواتهم تغض من التقليد وتدعو إلى

الإبداع وفق قيم ومعايير لا عهد للبارودى ولكثير من المحافظين بها، وهى قيم مستمدة مما طالعه أولئك المجدّدون فى الأدب الغربى إبداعا ونقدا.

حاول حافظ إبراهيم أن يدفع عن نفسه قالة السوء التى كانت تقض مضجعه، فراح يردد ما يقول دعاة التجديد عن غير بصارة، أو تهيّؤ نفسى وفنى لهذا الإبداع الجديد، فنسمعه يخاطب الشعر متحسّرا على حاله: [٢]

ضِعتَ بين النهّى وبين الخيالِ   يا حكيم النفوسِ يابن المعالى
ضِعتَ فى الشرق بين قومٍ هُجودٍ   لم يُفيقوا وأُمّةٍ مِكسالِ
قد أذالوك بين أُنْس وكأسٍ   وغرامٍ وظبيةٍ أو غزالِ
ونسيبٍ ومِدْحةٍ وهجاءٍ   ورثاء وفتنة وضلالِ
حمّلوك العناء من حبّ (ليلى)   و(سُليمى) ووقفة الأطلالِ
وبكاء على عزيز تولّى   ورسومٍ راحت بهنّ الليالى
وإذا ما سَموْا بقدرك يوما   أسكنوك الرّحالَ فوق الجمالِ

وبعد أن يذكر حافظ الداء يحدد الدواء، فإذا هو ما يصف دعاة التجديد الذين رأوا فى الأدب الأوربى الغناء كل الغناء.

آن يا شعر أن نفكّ قيودا   قيدتنا بها دُعاة المُحالِ
فارفعوا هذه الكمائم عنّا   ودعونا نشم ريح الشّمالِ

لكن حافظا بما عرفنا من طباعه ومن عدم حرصه على ترقية ثقافته وإلقاح ملكته، لم يكن قادرا على نزع الكمائم عن روحه الشاعرة. صحيح أن ديوانه يخلو من وقفة مطمئنة على الأطلال، كما يخلو من النسيب والغزل لأسباب أوضحناها، لكنه يمتلئ بالمدائح والمراثى وشعر المناسبات وغير ذلك مما حض على تركه، ولايكاد القارئ يقف على شئ من ملامح نفسه الحقيقية إلا فى شكواه ودعابته. ولولا أن رزق حافظ القدرة على تحسس طاقات الألفاظ واستخراجها فى تراكيب محكمة،

لركد هواء شعره ولفترت همة القارئ في متابعة مطوّلاته، التي تخلو مواطن كثيرة فيها من خيال طريف أو تصوير مبهر.

لقد كانت ريح الشمال ممثلة آنذاك فـي الأدب الرومانسـي الوافـد مـن أوربـا، وشتان بين ماترك حافظ وبين الإبداع الرومانسي روحا ولغة. والغريب من أمر حافظ أنه حين أتيحت له فرصة تنسّم هذه الريح الشمالية في مهبها، ضيع الفرصة، واكتفـى يوم زار فرنسا ومكث فيها شهرين بالتردد على أشهر المطاعم وعلب الليل، ولم تهـف نفسه إلى زيارة معالمها التاريخية ومراكزها الثقافية والفنية. حتى إيطاليا التى رست فيها سفينته فى أثناء سفره، لم يفكر فى التزول إليها ورؤية شئ من فنونهـا التـى أكثر مـن وصفها على الغيب[٣] . وهذا يدفعنا إلى المقارنة بينه وبـين شـوقى الـذى تـزود خـلال إقامته بفرنسا ورحلاته فى أوربا بما ظهرت آثاره جلية فى فنه.

. حافظ واحد من الشعراء المحافظين، الذين تحدثوا عن ضرورة التجديـد وبشـروا به، لكنهم لم ينجزوا شيئا. كان مطران وشوقى أجـدر المحـافظين بممارسـة الجديـد لمـا نهلا من أدب الغرب وثقافته، لكن جديد مطران كان محدودا لايتجاوز صوغ بعـض تجاربه الذاتية المحدودة، وما أبدع من قصص شعرية ذات طابع رومانسى، وبقى مفهوم شـوقى الجديـد عـن الشـعر، حبيسـا فـى مقدمـة ديوانـــه الأول الــذى أصــدره فــى سنة١٨٩٨م. فقد عرف الشـعر كمـا يعرفـه الرومانسـيون الفرنسيون، وأثنـى عليهـم وذكر أنه أفنى نفسه فى قراءة أعمالهم، ومع ذلك لم يقف موقفهم من الكون الفسـيح واكتفى بلمس الطبيعة من ظاهرها بالوصف المتقن الـذى يخلـو مـن تـأمل الرومانسـى وعمق رؤيته وجدتها. ولولا مسرحه وتاريخياته وما حاكى به (لافونتـين) مـن قصـص الحيوان، لكان إبداعه محصورا فى الإطار الذى حبس فيه حافظ ملكته.

وفى شعر حافظ علامات وملامح فنية بارزة، يهمنا الإشارة إليها والتنويـه بهـا لما تكشف عنه وسائل صنعته. وقد اكتفيت بما أراه أهم هذه العلامات والملامح.

أولا: الاستفادة من التراث الأدبي والتاريخ.

كان حافظ - كما يذكر معاصروه - من الرواة الحفظة، الذين أوتوا ذاكرة لاقطة واعية. وأثر هذه الذاكرة واضح فى كثير من شعره، إذ كانت كالبئر التى يمتح منها الألفاظ والعبارات والصور ويسلكها بمهارة فيما ينظم فتبدو كأنها من نتاج ملكته وثمار قريحته. ولانقف الآن من هذه الظاهرة موقفا نقديا كما وقف (المازنى) فى حياة الشاعر، يحصى عليه ما أخذه من الشعر القديم، بُغية النيل من شاعريته، وإنما نكتفى بالإشارة إليها بوصفها ملمحا فنيا هاماً، صاحب الشاعر طوال رحلته الفنية، فضلا عما تكشف عنه من مصادر ثقافته وأسلوبه فى ممارسة صنعته، ومن كلفه بالشعر القديم. وفيما يلى نكتفى بعرض بعض أمثلتها فى شعره.(٤)

يلاحظ قارئ الشعر العربى القديم، المداوم على مطالعته، حين يقرأ شعر حافظ ونثره أن أبا العلاء المعرى أكثر الشعراء القدامى تأثيراً فى صنعته، فألفاظه ومعانيه وخياله، كل ذلك ينتثر فى شعر حافظ ولا يقتصر وجوده على الموضع الواحد، كما هو شأن حافظ فى تأثره بالآخرين. وقد تحدثنا فى موضع سابق عن اهتمام حافظ بأبى العلاء، وعن ثنائه على (لزومياته) إلى حد أن وصفها بـ (ربيع الأرواح).

وقد اتخذ تأثّر حافظ بـ (المعرى) أشكالا مختلفة، فنراه يعارض مرثيته الشهيرة فى رثاء الفقيه الحنفى التى مطلعها:(٥)

غيرُ مُجْدٍ فى ملّتى واعتقادى ... نوْحُ بـــاكٍ ولاترنم شـــادِ

ينسج على منوالها مرثيته فى سليمان أباظة:(٦)

أيهذا الثرى إلام التمـــــادى ... بعد هذا أأنت غرثانُ صادى؟

والمعارضة تجر بطبيعتها إلى ملاحظة النموذج والتأثر بـه أو النقـل عنه، وهكـذا راح حافظ يستمد بعض قوافى مرثيته من أبى العـلاء. ولم يكتـف بـاللفظ فـنراه يحلـق بخيال المعرى ويصدر عن تأمله فى مثل قوله يخاطب التراب:

لسـتُ أدعـوكَ بالـتراب ولكـن ... بقـدودِ المـلاحِ والأجيـادِ
بخدود الحسـانِ بالأعينِ النُّجـ ... ـلِ بتلك القلـوبِ والأكبـادِ

فما يعرضه حافظ علينا فى البيتين ليس خلاصة تأمله، وإنما هو تفريـع وتفصيـل لرؤية أبى العلاء التى عبر عنها باختصار فى الشطر الثانى من قوله:[٧]

خفف الوطْء ما أظن أديم الأر ... ضِ إلا من هذه الأجسـادِ

وفى مواضع أخرى من ديوانه، يتبنى أفكار أبى العلاء أو يشير إليها، كقوله للعرب:[٨]

إن دام مـا نحن فيه مـن مدابـرةٍ ... وفتنـةٍ بـين أجنـاسٍ وأديـانِ
رأيتُ رأى (المعـرّى) حين أرهقـهُ ... ماحلّ بالناسِ من بغيٍ وعـدوانِ
لاتطهُر الأرضُ من رجسٍ ومن درنٍ ... حتى يعاودها (نوحٌ) بطوفـانِ

يشير بذلك إلى قولِ أبى العلاء:[٩]

والأرضُ للطوفانِ مشتـاقةٌ ... لعلّهـا مـن درنٍ تُغسَـلُ

ولايكتفى حافظ بالألفاظ يستمدها وبالخيـال يستعيره، وبالأفكـار يعتنقهـا أو يشير إليها، فنراه وهو يرثى (تولستوى)، يتطرق إلى جوانب من سـيرة شـيخ (المعـرّة)، زهده، حكمته، ضيقه بالناس وتجنّبهم عليه.[١٠]

و(أبو تمام) من الشعراء القدامى الذين التفت حافظ إليهم وتأثر بهم. يكفـى أن نجد لقصيدة أبى تمام الشهيرة فى مدح المعتصم، تأثيرا واضحا فى أربعة أعمال لحـافظ، يبدأ بالصوغ فى وزنها وقافيتها، ويتدرج إلى نقـل بعـض ألفاظهـا وعباراتهـا. يصـف الشاعر فى حديثه عن وطنية الشيخ (على يوسف) جرأة قلمه فى الحق فيقول:[١١]

لــه صَريــرٌ إذا جــد الــنزال بـــهِ   يُنسى الكُماة صليل البيضِ والقُضُبِ

فلو رآه (ابن أوسٍ) ما قرأتَ لــهُ:   (السيـف أصـــدق أنباءً من الكُتُبِ)

وفى القصيدة أبيات أسكن حافظ قوافيهــا مــن ألفــاظ أبــى تمــام مــا وجــده لهــا أنسب، كقوله يصف صحيفة (المؤيّد) التى كان الشيخ على يوسف يصدرها:

ألم تكن لبنى (مصرٍ) وقد دُهِمُوا   من ساسة الغربِ مثل (المعقلِ الأشبِ)

وكقوله يصف جهودها فى الرد على (هانوتو):

أَىَّ الصحائف فى القطرين قد وَسِعتْ   ردّ (الإمام) مزيلِ (الشكِ والريبِ)

وفى قصائد أخرى صاغها حافظ فى وزن وقافية مِدحة (أبى تمـام)، يحـط علـى قوافى هذه المدحة ينتقى منها قرارات لبعض أبياته، فنسمعه فى إحداها يقول:(١٢)

لاتلجئوا فى العلا إلاّ إلى هممٍ   وثابةٍ لاتبالى (همّـــةَ النّـــوبِ)

كما نسمعه فى أخرى يقول لسلطان (مراكش) الذى استقدم (سـلطانة) أشـهر مغنيات مصر لتشارك فى بعض احتفالاته:(١٣)

فاحذر على التخت أن يسرى الخرابُ لهُ   فتختُ سلطانةٍ (أعـــدى من الجربِ)

وفى شعر حافظ تأثر واضح بشعراء آخرين مثل لبيد وبشار والفرزدق وغيرهم، ينحصر بداخل الإطار الفنى الذى أوضحناه لتأثره بالمعرى وأبى تمام، وهو إطـار ضيـق لايكاد يتجاوز نقل اللفظ، أو الرؤية إلى التصرف الحر فيما نقل وأُخذ. ولانكــاد نعـثر على تصرف حسن لحافظ فى موروثه الشعرى، فى غير الأبيات التالية التى عاتب بهـا صديقا على تقصيره فى مودته، وحيث يقول:(١٤)

أبيتُ أسألُ نفسى: كيف قــاطعنى   هــذا الصديـق؟ ومـالى عنـه مُصْطَـبرُ

فمــا مطوقــةٌ – قــد نالهــا شــرَكٌ   عنـد الغــروبِ إليــهِ ســاقها القــدَرُ

باتت تجاهد همّا وهْيَ آيسةٌ | من النجاةِ وجُنحُ الليلِ معتكِرُ
وبات زغلولها في وكرها فزِعًا | مروَّعا لرجوعِ الأمِ ينتظرُ
يحفزُّ الخوفُ أحشاه وتزعجنهُ | إذا سرت نسمةٌ أو وسوس الشجرُ
منى بأسوأ حالاً حين قاطعنى | هذا الصديق فهلاّ كان يدّكِرُ

فالأبيات صدى قوى لتأثر حافظ بالوصف الجيد، الذى صوّر فيه المجنون هلعه ساعة علم برحيل ليلى، فقال:[١٥]

كأن القلبَ ليلةَ قيل يُغدّى | بليلى العامريةِ أَوْ يُراحُ
قطاةٌ عزّها شَرَكٌ فباتت | تعالجهُ وقد علق الجناحُ
لها فرخانِ قد تُركا بوكرٍ | وعشّهما تصفّقه الرياحُ

لكن فى أبيات حافظ تصرفا حسناً فى بعض ملامح صورة المجنون، إذ أبت شاعريته إلاّ إثراء تفاصيل الوصف القديم بعناصر تسهم فى تضخيم بعض الجوانب النفسية فى الصورة القديمة، فتقوى بالتالى الإيحاء العام لها، وإن كانت صورة المجنون على قصرها واكتنازها واختصار أطرافها، ترضى القارئ الذوّاقة الذى تكفيه الإشارة واللمحة، لأنه يحس مالهما من دلالات وإيحاءات وماوراءهما من وصف طويل مختصر.

وأما ثقافة حافظ التاريخية، فضحلة لو أردنا أن ندلّل عليها من خلال ماترك من شعر. لم يُبدع فى التاريخ المصرى القديم سوى قصيدة "مصر تتحدث عن نفسها"، التى يشيد فيها بماضى مصر ويتغنى بأمجادها التى تشيع بين الناس على غرار مايجرى عادة فى المحافل. ولم يقف بنا متأملا صفحة من صفحات هذا التاريخ الطويل على نحو ماصنع شوقى فى "كبار الحوادث فى وادى النيل"، لتتضح لنا دقة استيعابه وخصوصيّة تناوله.

ولم يبدع حافظ فى التاريخ الإسلامى سوى (العمرية)، التى تناول فيها ملامح من حياة أمير المؤمنين (عمر بن الخطاب). ولاتظهر فى شعره آثار تدل على أنه استطاع أن يوظّف التاريخ توظيفا فنيا على نحو مافعل شوقى، الذى كان يعود إلى التاريخ بين حين وآخر، يستمد من أعلامه وأحداثه ومواقف رجاله، مايلقّح به أفكاره ويزوّد به صوره. لانكاد نعثر فى شعر حافظ على غير أشارات قليلة لاستفادته من التاريخ، أهمها إشارته إلى موقف نساء (قرطاجنة) فى حربها مع الرومان، إذ راح يحفز به همم المصريين إلى التضحية والبذل من أجل إنفاذ مشروع الجامعة وكذلك إشارته فى القصيدة نفسها إلى قصة القائد الفرنسى (برثران).[١٦]

لقد كان شوقى يجل التاريخ ويحتفى به، ويرى أن الشعر ابن أبوين: "التاريخ والطبيعة"[١٧] ، فأعلى من شأنه ودخل إلى محرابه، وأكب على صفحاته يتملاّها ويستعينها فى صياغته. أليس هو القائل:[١٨]

غالِ بالتاريخ واجعل صُحْفهُ   من كتاب الله فى الإجلال قابا

والقائل أيضا:[١٩]

وأنا المحتفى بتاريخ مصرٍ   من يصُن مجد قومهِ صان عرضا

أما حافظ فكانت ثقافته التاريخية الضحلة مظهرا آخر من مظاهر حياته المضطربة وطبيعته الشخصية والنفسية، التى كان قوامها الفوضى وعدم الالتزام بمنهج واضح محدد فى الحياة يعتمد الانضباط والتوازن فى كل شئ. وكان من آثار هذا المنهج أن أدار حافظ ظهره لأوعية العلم لايكاد يلوى على واحد منها وهى تحيط به فى دار الكتب، وأن أطلق ساقيه إلى حيث يجتمع الظرفاء لايكاد يتخلف عنهم لقراءة أو اطلاع.

ثانياً: تأثره بالقرآن الكريم

فى شعر حافظ شواهد كثيرة على تأثره بالقرآن الكريم، فمن توظيف لقصصه وتمثل بما جاء فيها، إلى استعانة بتعبيراته وألفاظه، يضع ما يأخذه بلطف فى نسيجه الشعرى فلايكاد يبين. والإفادة من القرآن الكريم قديمة فى الأدب العربى نثره وشعره، وهى عند حافظ ملمح بارز من ملامح صنعته الشعرية، يدل على حُسن تأتيه ومهارته فى الاقتباس.

فمن توظيفه الجيد لقصص القرآن الكريم قوله يهنئ (رفعت بك)، لترقيته وكيلاً لمصلحة السجون:[٢٠]

أُهنّيك أم أشكو فراقك قائلا	أيا ليتنى كنتُ السجين المصفَّدا
فلو كنت فى عهد (ابنِ يعقوبَ) لم يقُلْ	لصاحبه: اذكرنى ولاتنْسنى غدا

يقصد أن السجناء يتمنون بقاءهم فى السجن بجوار هذا الرجل لحسن أخلاقه، ولو أنه كان القائم على سجن يوسف عليه السلام، لآثر البقاء فى السجن إلى جواره ولم يقل لصاحبه الذى نجا (اذكرنى عند ربك) كما حكى الله تعالى ذلك فى سورة يوسف. وهو توظيف جيد أغنى الشاعر عن كناية أخرى يخترعها ليدلل بها على لطف أخلاق هذا الرجل.

ومن قصة موسى عليه السلام مع فرعون، يقبس بعض العبارات ويضعها فى مواضعها المناسبة من شعره، حيث يتشوفها المعنى ويسكن إليها السياق، فنسمعه يذود عن شوقى لعدم إنشاده الشعر ولاستعانته بآخرين، فيقول:[٢١]

يعيبون (شوقى) أن يُرَى غير منشدٍ	وماذاك عن عىٍّ به أو ترفُّعِ
وماكان عابا أن يجئ بمنشدٍ	لآياتهِ أو أن يجئ بمُسمِعِ
فهذا (كليم الله) قد جاء قبلهُ	بـ(هارون) مايأمرهُ بالوحى يصدعِ

وحافظ يستمد حجته وبرهانه مما حكاه الله تعالى من أمر موسى ساعة كلفه بحمل الرسالة إلى فرعون، قال تعالى (اذهب إلى فرعون إنه طغى قال رب أشرح لى صدرى ويسّر لى أمرى واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولى واجعل لى وزيرا من أهلى هارون أخى اشدد به أزرى وأشركه فى أمرى).[٢٢] ويقول للإنجليز الذين ظنوا أن ساحة النضال الوطنى قد خلت بموت سعد زغلول:[٢٣]

لاتقولوا خلا العرينُ ففيهِ ... ألفُ ليثٍ إذا العرين أهابا
(فاجمعوا كيدكم) وروعوا حماها ... إن عند العرين أُسْدًا غِضابا

فيستمد بعض عبارة البيت الثانى من قوله تعالى فى سورة طه، يحكى موقف سحرة فرعون من موسى عليه السلام (فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى. قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى)[٢٤]

ونراه يتأثر بعبارة أخرى فى السورة نفسها، يستفيد بها فى وصف بلاغة البارودى وتأثير شعره فى سامعيه، يقول له:[٢٥]

وجئتَ بأبياتٍ من الشعر فُصِّلتْ ... إذا ما تلَوْها (أُلْقِى الناس سُجَّدا)

فعبارة الشطر الثانى مستمدة من قوله تعالى يصف حال السحرة بعد بُطلان سحرهم أمام موسى عليه السلام (فأُلقِىَ السحرة سجَّدا قالوا آمنا برب هارون وموسى)

وفى القصيدة نفسها، يستمد الشاعر تعبيرا قرآنيا آخر لكنه من سورة (يوسف)، يستخدمه فى موقف مماثل لما استخدم فيه بالنص القرآنى، حيث يصف للبارودى تودد محبوبته ومحاولتها إغواءه مع نزوع نفسه إليها:

فمالت لتغرينى ومالأَها الهوى ... فحدثتُ نفسى والضمير ترددا

(أهم كما همّت)، فأذكـــر أنني فتاك فيدعونى هُداك إلى الهدى

فالموقف الذى يصفه مماثل لموقف امرأة العزيز مع يوسـف عليـه السـلام، الـذى وصفه الله تعالى بقوله (وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبـواب وقـالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لايُفلح الظالمون ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربـه كذلـك لنصـرف عنـه السوء والفحشـاء إنـه مـن عبادنـا المخلصين).[٢٦]

وإلى غير القصص القرآنى يلتفت حافظ كثيرا، فيستعين بما ورد فى القـرآن مـن أخبار وعبارات وصور، يستخدم كل ذلك بمهارة فيما يلائم من شعره، فيسـتفيد مـن خبر الجن الذى جاء على لسانهم فى قوله تعالى (وأنّا لمسـنا السـماء فوجدناهـا ملئـت حرسا شديدا وشهبا وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شـهابا رصدا)[٢٧] ، وذلك بأن وظّفه فى عدة مواضع مختلفة من شعره، منها قوله لـ(فتحـى) أحد الطيارين العثمانيين معجبا بشجاعته فى احتراق الفضاء:[٢٨]

فتحـــى بربـــك مارأيـــــــــــتَ بذلـــك الفلـــك المـدَارْ؟
أَبلغـــــتَ تســـــبيح المـــــــلائـكِ أو دنـــوتَ مـــن السّـــرارْ؟
أم خفــــــتَ تلك الراصـــــــداتِ هناك من شهْـــبٍ ونـــــارْ؟

وقوله أيضا فى القصيدة نفسها يصف سرعة الطائرة وقوة اندفاعها فى الفضاء، فهى:

مثل الشهـــــــابِ انقض فى آثــار عفريـــــتٍ وطـــــارْ

ومنها قوله فى قصيدة أخرى يرثى هذا الطيار بعد سقوط طائرته قرب دمشق:[٢٩]

فتحـــى! وهـــل لى إن سألـــتَ عـن المصيبـة مـن مُحـيرِ؟
ويـــلاه! هـــل جُـــزتَ الحـــبود وأنـــت مخـــترقُ الســتورِ؟
فرمـــاك حـــراسُ السمـــاءِ وتلك قاصمـــةُ الظهـــورِ؟

فهو يعلل سقوط الطائرة فى ضوء الآيتين الكريمتين، وفى ضوئهما أيضا راح يصف قذائف الأسطول العثمانى بقوله:[٣٠]

ما نجوم الرجم من أبراجها	إثرَ عفريتٍ من الجن ترامَى
من مراميها بأنكى موقعًا	لا ولا أقوى مِراسًا وغُراما

ومن لطيف استعانته بالقرآن الكريم، قوله بعد صدور الدستور العثمانى يحث على محاسبة كل من أجرم فى حق الشعب:[٣١]

ولّى زمان المعتدين كما انطوت	حيل الشيوخ وإمرةُ الخِصيانِ
وُضع الكتاب وسِيق جمعهم إلى	يوم الحسابِ وموقف الإذعانِ

فقد أسعفته ذاكرته وهدته قريحته إلى الاستفادة من قوله تعالى يصف يوم الحساب (ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه..... الآية)[٣٢]

وفى القصيدة نفسها، يشير إلى ماكان يضمره والى الحجاز والشريف من عصيان السلطان العثمانى والانتقاض عليه، ثم يلتفت إليهما مستخفا:

تا للهِ لو جنّدتما رمل النقا	ونزلتما بمواطن العقبانِ
وغرستما أرض الحجاز أسنةً	وأَسَلْتما بحراً من النيرانِ
لدَها كُما ورماكما وذراكما	ماحى الحصون وماسح البلدانِ
إن تأتيا طَوعا وإلا فأْتيا	كرْها بلا حولٍ ولا سلطانِ

فهو يستفيد فى المكان المناسب بقوله تعالى فى سورة فُصّلت (ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين)[٣٣]

لقد وجد حافظ القرآن الكريم نبعا ثرارا فأكثر من وروده والإفادة منه. ولاشك فى أن استدعاء عباراته وصوره وأخباره لما يلائمها فى السياق الشعرى، دليل على البديهة الحاضرة والذاكرة المواتية، وهما معا من أهم أسباب نجاح الشاعر فى صنعته.

أما استفادته بالسنة النبوية، فلا نكاد نعثر فى شعره على غير موضعين لها، **الأول:** مواساته الإمام محمد عبده فيما تعرض له من محاولة لتشويه سمعته، ذلك أن أعداءه نشروا بإحدى الصحف صورته وقد أحاطوها بفاحش القول، فنهض الشاعر يخفف ما بنفس الإمام من ألم:(٣٤)

لاتَجزَعنّ فلستَ أول ماجدٍ	كذبتْ عليه صحائفُ الفجّارِ
رسموا بذاتك للنواظر جَنّةً	محفوفةً بمكارهِ الأشعارِ

وكان حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: "حفت الجنة بالمكاره...الخ" أحسن تعليل ومواساة يستل بها الشاعر مابصدر الرجل من أحزان. وأما **الثانى:** فقوله يصف فساد الصحف فى عصره:(٣٥)

وماذا فى صحائفكم	سوى التمويهِ والكذبِ؟
حصائدُ ألسنٍ جرّتْ	إلى الويلاتِ... والحرَبِ

فقد ورد فى حديث معاذ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (وهل يكب الناس على وجوههم فى النار إلا حصائد ألسنتهم).

ثالثاً: الاستدعاء فى شعر حافظ

فى شعر حافظ ظاهرة أسلوبية قد لاينتبه المتلقى إليها، لأنها وقعت على فترات زمنية متباعدة من إبداعه، ولأنها وردت فى قصائد متباعدة من ديوانه. خلاصتها أن الشاعر قد يوفّق إلى صورة فنية تروقه، أو إلى تعبير ينزل من نفسه منزلا حسنا، فيظل يكرر هذه الصورة وهذا التعبير ويستدعيهما من ذاكرته طوال مشواره الفنى، كلما كان المقام ملائما لهما.

من أمثلة هذه الظاهرة فى شعره، تعبيره دوما عن مكابدة الشاكى أو الباكى بأن زفرات صدره تبلغ من الحرارة درجة تؤجج (فحمة الليل). استعمل حافظ هذا التعبير لأول مرة حين كان بالسودان فى مطلع حياته الأدبية، وظل يكرره لمدة تزيد عن عشرين عاما لايتحول عنه إلى غيره، وكأنه فقد القدرة على ابتكار صورة جديدة. أرسل وهو بالسودان يعاتب صديقه محمد البابلى:[٣٦]

كيف تنسى ياببابلىّ غريبا؟   بات بين الظنون والأوهام؟
وحزينا إذا تنفّس عادتْ   (فحمةُ الليل) جمرةً من ضِرام؟

أعجب حافظ بهذه الصورة التى بلغت حدا بعيدا من المبالغة فراح يكررها ويستدعيها، فنسمعه وهو يحث على رعاية الأيتام يصف بؤس إحدى الفتيات بقوله:[٣٧]

شبحًا أرى أم ذاك طيفُ خيالِ   لا، بل فتاة بالعراء حيالى
أَمستْ بمدرجةِ الخطوبِ فمالها   راعٍ هناك ومالها من والِ
حَسْرى تكاد تُعيد (فحمة ليلها)   نارًا بأنّات ذكيْن طوالِ

ونسمعه يقول فى تأبين إسماعيل صبرى:[٣٨]

وكم لك شكوى هوًى أو أسًى   لها نفثاتٌ تذيبُ الحجرْ
هتفتَ بها مرّة فى الهجيرِ   فكاد يدب إليك الشجَرْ
وكم كنتَ تُشعل (فحم الدجى)   بأنفاس صبّ طويلِ السهرْ

وتتضح شدة مبالغة حافظ فى الاحتفاظ بتعبيره السابق وتكراره، حين نضم إلى أقواله السابقة، قوله يصف ضراوة حريق ميت غمر:[٣٩]

أين طوفانُ صاحب الفُلك يروى   هذه النار فهى تشكو الأوارا
أشعلت (فحمة الدياجى) فباتت   تملأ الأرض والسماء شرارا

فهو لايفرّق فى الدرجة بين حرارة أنفاس الشجىّ وأناته وهى حرارة مجازية، وبين نيران الحريق الحقيقية، فكلتاهما قادرة على أن تحل محل الأخرى فى تلك الصورة التى تعلّق بها وراح يكررها.

ومن التعبيرات التى اعتاد حافظ على تكرارها، ما نجده فى شعره الذى يصف فيه قوة العثمانيين ومضاء عزيمتهم. يقول:(٤٠)

فى كل حاضرةٍ لهم	غزوٌ ففتحٌ فانتصارْ
ضربوا الزمان بسوط عزّ	تهم فَلانَ لهم، فدارْ

فهو يكرر عبارة البيت الثانى فى قوله عن أسطولهم:(٤١)

حىّ يامشرق أسطولَ الأُلى	ضربوا الدهر بسوطٍ فاستقاما

ومن تعبيراته المكرورة مانجده فى شعره الذى يرثى به رجال القضاء، فهو يقول لقاسم أمين:(٤٢)

لهفى عليك قضيتَ مُرتجلًا	لم تشْكُ، لم تستوصِ، لم تقُلِ
غلّ القضاءُ يد القضاءِ فذا	يبكى عليكَ، وذاك فى جذلِ

ويقول فى رثاء على أبو الفتوح مكررا ما انتهى إليه فى القول السابق:(٤٣)

قد مات نابغةُ القضا	ءِ وغاب بدر المحفلِ
وعدا القضاءُ على القضا	ءِ فصابهُ فى المقتلِ

وهكذا يظل التعبير الذى يروقه نصب عينيه، ومحفورا فى ذاكرته يسترده متى يشاء، وعلى الأصح متى تجدد الحديث فى المضمون نفسه، وكأن المضمون يستدعى عبارته وصورته من ذاكرة الشاعر.

وهذه الظاهرة الأسلوبية تشيع عند شوقى أكثر منها عند حافظ، فنرى أمير الشعراء يستدعى من ذاكرته العبارة والصورة مرات كثيرة بلغت فى بعض الحالات

اثنتى عشرة مرة ، وكأنه فقد القدرة على الابتكار وعلى تجديد ألوان نسيجه الشعرى.[٤٤]

رابعاً: بروز العنصر القصصى فى شعره

بروز العنصر القصصى من الملامح الهامة فى شعر حافظ، وهو يثبت أن الشاعر لم يكن ضحل الخيال على النحو الذى يصف النقاد. وهذا العنصر فى صنعته لم يُوله الدارسون عناية خاصة، بل لم يلتفتوا إليه أصلا وهم يتحدثون عن خصائص فنه.

لقد برع حافظ فى اختراع إطار قصصى لكثير من قصائده ، مكّنه من طرح أفكاره فى أمور شتى بصورة غير مباشرة، وكان هذا الإطار القصصى بفضل تحريكه خيال السامع والقارئ أقدر على جذب اهتمامهما من الأسلوب المباشر فى طرح الفكر والتعبير عن المعنى، ومن أسلوب البث الذاتى، والأسلوب الخطابى الملئ بالحث والوعظ.

ومن المجالات الهامة التى توسّل حافظ فيها بالأسلوب القصصى، لطرق القلوب وتهيئة النفوس، مجال التكافل الاجتماعى، فنراه فى مستهل قصائده يجيد التمهيد لطرح دعوته، بحكاية يرويها تهز نفوس السامعين وتستدر عطفهم، فإذا بالشحيح تسمح نفسه وتمتد بالعطاء يده.

فى حفل أقامته (جمعية رعاية الأطفال)، نهض حافظ وشرع يروى للحاضرين إحدى حكاياته عارضا أول مشاهدها:[٤٥]

شبحًا أرى أم ذاك طيفُ خيالِ؟ ... لا، بل فتاة بالعَراءِ حِيالى
أمستْ بمدرجةِ الخطوب فمالها ... راعٍ هناك وما لها من والِ
حسْرى، تكاد تُعيد فحمة ليلها ... نارا بأناتٍ ذكيْن طِوالِ
ماخطْبُها، عجبا، وما خطبى بها ... مالى أشاطرها الوجيعةَ مالى؟

وبعد عرضه هذا المشهد المؤلم لهذه المرأة البائسة، وتهيئة نفوس السامعين للحنو عليها، يستكمل الشاعر حكايته جاعلا نفسه طرفا فيها:

دانيتُها ولصوتها فى مسمعى ... وقعُ النبال عطفنَ إثرَ نبالِ
وسألتها: مَنْ أنتِ؟ قالت: حاملٌ ... لم تدر طعم الغمض منذ ليالِ
قد مات والدها وماتت أمها ... ومضى الحِمام بعمّها والخالِ
وإلى هنا حبس الحياءُ لسانها ... وجرى البكاء بدمعها الهطّالِ
فعلمتُ ما تخفى الفتاة وإنما ... يحنو على أمثالها أمثالى

ويعمد حافظ إلى تحريك عواطف السامعين بدرجة أقوى للأخذ بيد هذه المرأة، فنجده حريصا على وصفها بـ (الجمال)، يهدف بذلك إلى أمرين:

(الأول) شدة جذب النفوس وتحريك نخوتها، إذ إن النفوس تنجذب بفطرتها إلى كل جميل حسن الخلْق، ثم إنها ليعز عليها أن ترى هذا الجميل الحسن مبتذلا ممتهنا، وليس تعاطفها مع القبيح فى هذه الحالة كتعاطفها مع الجميل سواء بسواء. وقد أصاب حافظ حيث يقول تعليقا على ماذكر من جمال هذه المرأة الممتهن تحت وطأة الفقر والمرض:

لاشئ أفعل فى النفوس كقامةٍ ... هيفاءَ روّعها الأسى بهُزالِ
أو غادةٍ كانت تُريكَ إذا بدَتْ ... شمس النهارِ فأصبحتْ كالآلِ

وأما (الثانى) فهو أن هذه المرأة لو تُركت على حالتها من العوز، عرضة لأن يصل إليها خبثاء الطوّية مستغلين بؤسها وحاجتها، فهى صيد سهل مستهدف. يصف الشاعر للسامعين فى حكايته جمال المرأة المثقل بالهموم فيقول:

ووقفتُ أنظرها، كأنى عابدٌ ... فى هيكلٍ يرنو إلى تمثالِ
ورأيتُ آياتِ الجمالِ تكفّلتْ ... بزو الهن فوادحُ الأثقالِ

ويمضى حافظ مستكملا قصته مع هذه المرأة، كيف أخذ بيدها وانتشلها مما كانت غارقة فيه من هموم النفس وأوصاب الحياة، وكيف أوصلها إلى البر الآمن الذى تحظى عنده بالحب والرعاية، إلى (دار رعاية الأطفال):

قلت انهضى، قالت: أينهضُ ميّتٌ	من قبرهِ ويسير شَنٌّ بالى
فحملتُ هيكل عظمها وكأننى	حُمِّلتُ حين حملتُ عُودَ خِلال
وطفقتُ أنتهبُ الخطا متيمما	بالليل (دار رعاية الأطفالِ)
أمشى وأحمل بائسين: فطارقٌ	بابَ الحياة، ومؤذنٌ بزوالِ
أبكيهما وكأنما أنا ثالثٌ	لهما من الإشفاق والإعوالِ

وبوصول حافظ إلى (دار رعاية الأطفال) تنتهى حكايته، ويصبح ميسورا عليه أن يحدث الحاضرين عما تقدمه هذه الدار من أعمال إنسانية جليلة، تستوجب مساعدتها، فيطيل الحديث، ثم يختم قصيدته بأبيات قلائل يقول لهم فيها:

إنى أرى فقراءكم فى حاجةٍ	لو تعلمون، لقائلٍ فعّالِ
فتسابقوا الخيراتِ فهى أمامَكم	ميدانُ سبْقٍ للجواد النالِ
والمحسنون لهم على إحسانهم	يوم الإثابة عشرةُ الأمثالِ

ولو لم يتوجه حافظ إلى الناس بهذه الدعوة لكانت مفهومة من خلال قصته التى سردها. ولو أنه لم يصطنع هذه الحكاية وقصر قصيدته على الدعوة إلى البر والحث على العطاء، لكانت عملا مملاً مكرورا، لأن الموضوع ضيّق وليس فيه متسع لخيال الشعراء.

وفى حفل أقامته (الجمعية الخيرية الإسلامية)، يقف الشاعر منشدا، فلايذكر على لسانه فى مستهل حديثه شيئا من خدماتها، وإنما يلجأ إلى الحكاية، أسلوبه المفضل يجسد من خلالها أمام أعين السامعين رسالة هذه الجمعية ونبل مقاصدها. وقد

هداه خياله إلى أن يُوقف صنيعة من صنائع هذه الجمعية يحكى للناس كيف تناولته وهو طفل بائس فكفلته وتعهّدته حتى اكتمل بنيانا وعقلا:[٤٦]

قضّيتُ عهد حداثتي	ما بين ذلّ واغترابْ
لم يُغن عنّي بين مشـ	ـرقها ومغربها اضطرابْ
صَفِرت يدى فخوى لها	رأسي وجوفي والوطابْ
وأنا ابن عشْرٍ ليس في	طوقي مكافحةُ الصّعابْ
لم يبقَ من أهلي سوى	ذِكْرٌ تناساه الصحابْ
أمشي يرنّحني الأسى	والبؤسُ ترنيح الشرابْ
فلكم ظلَلْتُ على طوًى	يومي وبتّ على تبابْ
والجوع فرّاسٌ لـه	ظفرٌ يصولُ بهِ ونابْ
فكأنّه في مهجتي	نصلٌ تغلغل للنصابْ
وعليّ طِمرٌ لو هفتْ	ريح الشمال به لذابْ
فخروقه ومصائبي	في العد يخطئها الحسابْ

وظلت حال الصبى كما يروى على ماهى عليه من جوع وتشرد، إلى أن تلقفته (الجمعية الخيرية الإسلامية)، فجعلت منه مواطنا صالحا. ولاشك فى أن هذا حُسن تأتٍ من الشاعر لإقناع الناس بأهمية هذه المؤسسات الخيرية. وهو أسلوب أفضل من أسلوب الخطابة والوعظ الذى اعتاده الأدباء فى طرق هذا الموضوع، فالإطار القصصى أخف وقعا والرسالة التى تُبث فيه أيسر إلى النفوس مسربا وأشد فعلا. وفى موضع ثالث يريد حافظ حث الناس على إعانة ملاجئ الأطفال، فينسج قصة طريفة تُعد واحدة من شطحات خياله، يبين من خلالها عُقبى هذا العمل الصالح ومايظفر به المحسنون من رعاية الله وحفظه. يبدأ حافظ قصيدته بوصف القطار، ثم يأخذ فى وصف حادث وقع أمام عينيه، ذلك أن راكبا هوى من قطار سريع بينما هو يعبر أحد الجسور، فتردّى فى لجة النهر وصار موته محققا، فالرمية شديدة، والهوّة سحيقة،

والليل داج، والنهر طام...الخ. لكن رجلا شجاعا ممن شهدوا الحادث، سرعان ما ألقى بنفسه وانتشل هذا الغارق، بين ذهول الناس وإعجابهم. ولندع الشاعر يكمل حكاية هذا الرجل بعد سقوطه فى غمرة الماء لنعلم ماخفى من أمره:(٤٧)

وإذا سابحٌ قد انقض فى الما ... ءِ انقضاضَ العُقاب فوق الحَمامِ
غاص فى لجةِ الحتوف بعزمٍ ... لم يُعوّد مواقفَ.. الإحجامِ
غاب فيها وعاد يحمل جسْما ... سلّهُ من يد الهلاك اللّزامِ
كافح الموج، صارع الهول، أبلى ... كبلاء المهنّد الصّمصامِ
وانثنى راجعا إلى شاطئ النهـ ... ـر رجوعَ الكَمىِّ غِبَّ اغتنامِ
وقف الناس ذاهلين وصاحوا ... تلك إحدى عجائب الأيامِ
أنَجاةٌ من القطار، من الجسـ ... ـر، من النهر، جلّ رب الأنامِ؟؟

وليست نجاة هذا الراكب واحدة من عجائب الأيام فقط، وإنما هى معجزة راح القاص بما يعلم من أسرار يبين سبب حدوثها، ويرد على تساؤل الناس ودهشتهم لوقوعها. وفى الأبيات التالية التى يكشف فيها عن سر هذه المعجزة تبرز غايته التى قصدها وراح يمهّد نفوس الناس بهذه القصة الطريفة لها. يقول:

وإذا صيحةٌ علتْ من فتاةٍ ... برزت من صفوف ذاك الزّحامِ
وقفتْ موقف الخطيب ونادت ... تلك عُقبى رعاية الأيتامِ
بسطت تحته أكُفّا تلقّتـ ... ـه وحاطته رغم أنف الحِمامِ
دعوة البائس المعذّبِ سورٌ ... يدفع الشر عن حِياضِ الكرامِ
إن هذا الكريم قد صان عرضى ... وحمانى من عاديات السَّقامِ
عال طفلى وعالنى وحبانى ... بكِساءٍ وبَدرة وطعامِ
...... الخ

ويوم وقف حافظ يحض المصريين على التبرع لإنشاء الجامعة، أراد أن يعرّفهم أن حب الأوطان لايقتصر على النوايا الطيبة والشعور الصادق والقول الحسن، فأسعفه خياله للتعبير عن هذا المضمون بقصة الكلب الوفى مع صاحبه الشحيح. فالكلب يتضور جوعا ويشرف على الهلاك، وصاحبه إلى جواره، تذرف عليه عينه ولا تسمح له نفسه برغيف مما تقبض يمينه:(٤٨)

سمعتُ أن أمرأً قد كان يألفهُ	كلبٌ فعاشا على الإخلاص واصطحبا
فمر يوما به والجوع ينهبهُ	نهبا فلم يُبق إلا الجلدَ والعصَبا
فظل يبكى عليهِ حين أبصرَهُ	يزول ضعفا ويقضى نحبهُ سغَبا
يبكى عليهِ وفى يمناهُ أرغفةٌ	لوشامها جائعٌ من فرسخٍ وثبا
فقال قوم وقد رقّوا لذى ألمٍ	يبكى، وذى ألم يستقبل العطَبا
ماخطبُ ذا الكلبِ؟ قال: الجوعُ يخطفهُ	منى وينشبُ فيه الناب مغتصبا
قالوا وقد أبصروا الرغفانَ زاهيةً:	هذا الدواءُ فهل عالجتهُ فأَبى؟!
أجابهم ودواعى الشح قد ضربتْ	بين الصديقين من فرط القِلى حُجُبا:
لذلك الحد لم تبلغ مودتنا	أما كفى أن يرانى اليوم منتحبا؟
هذى دموعى على الخدين جاريةٌ	حزْنا وهذا فؤادى يرتعى لهبا

وبعد أن صور الشاعر فى حكايته هذه الخُلّة الزائفة، توجّه إلى المصريين قائلا:

أقسمت با لله إن كانت مودتنا	كصاحب الكلب ساء الأمر مُنقلَبا
أُعيذكم أن تكونوا مثله فنرى	منكم بكاءً ولاتُلفى لكم دأَبا
إن تُقرضوا الله فى أوطانكم فلكم	أجرُ المجاهد، طُوبى للذى اكتتبا

لقد تميز حافظ بهذا النهج القصصى. كان يراه وسيلة فعاله فى شحذ النفوس وحفز الهمم، فراح يطورها ويكررها. ولم يقتصر لجوؤه إلى هذا الأسلوب على شعره الاجتماعى الذى يدعو فيه إلى التكافل والتراحم، وإنما تعدى ذلك إلى شعره القومى،

فنراه وقد أراد التغنى بأمجاد مصر وسوريا يتجنب الطرح المباشر، ويحدثنا عن روضة معطار أرسلت أريجها فقصدها يروّح عن نفسه، فكانت هذه الروضة مسرحا لحكاية راح يبث من خلالها هذا المضمون:[٤٩]

زرتُها موْهنا وفى طيّ نفسى ... ذِلةُ الصّب وانكسارُ اليتامى

وتنقّلتُ فى خمائلها الخضـ ... ـر يمينا ويسْرة وأماما

فإذا زهرتان فى ذلك الرو ... ض تميسان تحت ريح الخُزامَى

جاءتا تخطران والنجمُ ساهٍ ... وعيونُ الأزهارِ تبغى المناما

جازتا موضعى فهب نسيمُ ... هاج منى الأسى وأذكى الهُياما

فترسّمتُ منهما أثر الخطـ ... ـو وخافتّ فى المسير احتشاما

وتسمّعتُ علّنى أطفىء الشو ... قَ وأروى من الفؤادِ الأوَاما

فإذا لهجتان من لهجات الشر ... قِ قد شاقتا فؤادى فهاما

تلك سورية تفيض بيانًا ... تلك مصرية تسيل انسجاما

ومن خلال الحوار الذى تَسمّعه الشاعر، ذكر الكثير من مفاخر القطرين والأواصر التى تجمع بينهما، ولم يكن ميسورا له التنويه بها واحدة تلو الأخرى دون إملال. ولنسمعه يكمل حكايته التى رسم مشاهدها وأدار حوارها:

مالتا نحو دوحةٍ ترسل الأغـ ... ـصانَ واختارتا لديها مُقاما

ثم ألقت قناعها بنتُ مصرٍ ... وأماطت بنت الشآم اللثاما

فتوهّمت أنْ قد انفلق البد ... روقد كنتُ أنكر الأوهاما

فتواريتُ ثم علّقت أنفا ... سِىَ ما اسطعتُ وارتديتُ الظلاما

ظنتا ذلك المكان خلاءً ... لا رقيبا يُخشى ولا نمّاما

فجرى فيه ما جرى من حديثٍ ... كان بردا على الحشا وسلاما

حـين قالت لأختهـا بنتُ مصرٍ: إنكـم أمـة أبتْ أن تُضاما

صدق الشاعر الذى قال فيكم كلمـاتٍ نبهّن منـا النّياما:

ركبوا البحر، جاوزوا القطب، فاقوا موقع النّـيّرين ، خاضوا الظلاما

يمتطون الخطوب فـى طلب العيـ ـش ويَبرون للنضال السِّهاما

فانـبرت ظبيـة الشـآم وقـالت: بعضَ هذا، فقد رفعتِ الشآما

أنتم الأسبقون فـى كـل مرمى قد بلغتم من كل شئٍ مَراما

إنمـا الشـام والكنانـةُ صِنـوا نِ رغم الخطوب عاشا لزاما

أمكُـمْ أُمنـا وقـد أرضعتنـا من هواها ونحن نأبى الفطاما[٥٠]

قـد نزلنـا جواركـم فحمدنـا منكم الودّ والنّدى والذّماما

وحللنـا فـى أرضكـم فأصبنـا مـنزلا مخصبا وأهلا كراما

وشربنا مـن نيلكـم فنسـينا مـاء لبنان سلسلا والغماما

وقبسـنا مـن نوركـم فكتبنـا وأَجَدْنـا نِثارنا والنّظاما

وتلونـا آياتِ (شوقـى وصبـرى) فرأينا ما يبهرُ الأفهاما[٥١]

.... الخ.

فأشـارت فتـاة مصـر وقـالت: قـدْك، لم تتركى لمصرَ كلاما

أنتـم النـاس قـدرةً ومضـاءً ونهوضا إلى العلا واعتزاما

أطلعـت أرضكـم علـى كـل أفـقٍ أنجمـا إثـر أنجـم تترامى

تركـب الهـول لاتفـادى، وتمشـى فوق هام الصعاب لاتتحامى

قـد سمعنـا (خليلكـم) فسـمعنا شاعرا أقعد النّهى وأقاما[٥٢]

وطمعنـا فى شـأوه فقعـدنا وكسرنا من عجزنا الأقلاما

وهكذا شاعت روح الإيثار فى الحوار، إذ راحت كل فتاة تثنى على الأخرى وتقدّم أهلها. ثم يعلق حافظ على هذا الحوار الذى تسقّطه بقوله:

صـدق الغادتـان يـاليت قوميـــ ـنـا كمـا قالتـا هـوىً والتئامـا

نحن فى حاجـــة إلى كـل ماينـْ ـمى قُوانـا ويربــط الأرحـاما

وبهذه الوسيلة الفنية تمكن الشاعر من طرق موضوعه والولوج بيسر فيه متجنبا لهجة المنابر الزاعقة، فضلا عن تحريكه نفوس المتلقين وخيالهم فى آن واحد.

ولايفوتنا ونحن نتحدث عن اتخاذ حافظ إطارا قصصيا لكثير من موضوعاته، أن نشير إلى تلك المقدمة القصصية الغزلية التى صدّر بها مدحته فى البارودى، وإن كانت نتاج خيال هازل ينم عن ظرفه وطبيعته المرحة التى تجنح به إلى الدعابة.(٥٣)

لقد كان حافظ حريصا على طرح كثير من أفكاره بغير لسـانه، وكـان الإطـار القصصى كما رأينا معينا له فى ذلك. لكنه لم يكتـف بهـذا النهـج القصصـى، فرأينـاه يلجأ إلى أسلوب آخر أو إلى حيلـة أخـرى، فـإذا أراد الحديـث مثـلا عـن أمجـاد مصـر التليدة، لم يقف هو أمامنا ليسردها ويتغنّى بهـا، وإنمـا أوقـف مصـر نفسـها لتتحـدث بلسانها ولتعدد مآثرها، وظل هو مختفيا مثـل (الملقّـن) فـى دور المسـرح، يُملـى علـى الممثلين مايقولون ويذيعون على الناس، دون أن يراه المشاهدون أو يسـمعوه(٥٤) وهـذا مافعله أيضا حين أراد الحديث عن مأساة اللغة العربية وماتتعرض له من كيد أعدائهـا، إذ جسّـدها وأنطقهـا بمأسـاتها وجعلهـا تسـتصرخ قومهـا للأخـذ بيدهـا ودرء الخطـر عنها.(٥٥) وفى رثاء (عبد الحميد رمزى) الذى توفى وهو طالب بالمدرسـة الثانويـة، لم يقف حافظ باكيا، وإنما أوقف أبا الفقيد يُسمع الحاضرين للعزاء أناته ويسـفح أمـامهم دموعه، فبلغ الشاعر بذلك حدا بعيدا فى التأثير على الناس وتحريك الأوتار الحزينة فى قلوبهم، ذلك أن تجاوبهم مع الأب الثاكل أشد من تجاوبهم مـع الشـاعر الراثـى، وإذا كان الثكالى يؤثّرون فى الناس صامتين، فإنهم يكونون أشدَّ تأثيرا فيهم إذا مـا كشـفوا أغطية قلوبهم الموجوعة ونفوسهم الملتاعة. ولنسمع بعض ما بكـى بـه هـذا الأب ابنـه وقد جثا عند قبره:(٥٦)

ولدى! قد طال سُهدى ونحيبى — جئتُ أدعوكَ فهل أنت مجيبى

جئتُ أروى بدموعى مضجعا — فيه أودعتُ من الدنيا نصيبى

لاتخف من وحشة القبر ولا — تبتئس، إنى موافٍ عن قريبِ

أنا لاأترك شبلى وحده — فى جديب موحشٍ غير رحيبِ

أوَ حين ابتزّ دهرى قوّتى — وذوى عُودى ووافانى مشيبى

واكتسى غصنُك من أوراقه — تحت شمس العز والجاه الخصيبِ

ورجونا فيك مالم يرجُهُ — مُنْجِبُ الأشبالِ فى الشبل النجيبِ

ينتويك الموت فى شرْخ الصِّبا — والشباب الغض فى البُردِ القشيبِ؟!

لم يدَعْ آسيك جهدا، إنما — غاب علم الله عن علم الطبيبِ

لقد أعاد حافظ على أسماعنا فى هذه الأبيات آهات (ابن الرومى) يوم وقف يبكى أبنه (محمد). وماكان باستطاعته أن يذكر على لسانه هو بعض المعانى أو يبث بعض العواطف التى أوردها على لسان الأب، لخصوصيتها، فهى ليست مما يقال عادة على لسان الراثى بل مما ينوح به الثاكل، ويكون ورودها على لسانه أوقع فى النفوس وأشد إيلاما.

لقد ظُلم حافظ بأن اتُّهم كثيرا بقصور خياله، فكل ماذكرناه دليل قوى على أنه كان يرى كثيرا من الموضوعات والأفكار بعينى خياله على هيئة مشاهد وصور، أى كانت صور المعانى والأفكار أسبق إلى عينيه. ولاشك فى أن استعانته بالعنصر القصصى واستنطاقه الآخرين فى شعره بدلا منه، ليتحدثوا عن أنفسهم وقضاياهم، عمل من صنع الخيال يُحسب له. كان بعض ما أخذ عليه صائبا، وكان كثير منه ينم عن غلواء أصحابه أو رغبتهم الشديدة فى النيل من صنعته. وموقف (المازنى) من حافظ مشهور، ويكفى أن نقرأ كتابه (شعر حافظ) لنقف على طبيعة هذا النقد الجارح الذى تجاوز حدود الصنعة الشعرية ولم يلتزم بالموضوعية.(٥٧) ونقدم المثالين

التاليين من نقده، لنرى مدى تعسّفه وتحامله. وصف حافظ آلام نفسه لجفاء بعض أصحابه فقال:(٥٨)

فما مطوّقةٌ قد نالها شَرَكٌ ... عند الغروبِ إليهِ ساقها القدَرُ

باتت تجاهد همّا وهى آيسةٌ ... من النجاة وجُنح الليلِ معتكرُ

وبات زغلولها فى وكرهِ فزعًا ... مروَّعًا لرجوع الأم ينتظرُ

منّى بأسوأ حالاً حينَ قاطعنى ... هذا الصديقُ، فهلاّ كان يدّكِرُ

فعلق المازنى على الوصف بقوله: "إن قوله فى البيت الأول (عند الغروب) لامعنى له، فهل كان فى بعض أيامه بومة أو غرابا فعلمته التجربة أن الوقوع فى الشرك عند الغروب أصعب منه فى العصر أو فى الظّهر أو فى منتصف الليل"(٥٩)

ولا أدرى كيف خان المازنى ذوقه الأدبى وحسّه النقدى، فلم يتبين قيمة توقيت الحادث بـ (الغروب)، وهو مدخل الظلام الموحش القابض للنفس، الذى يضاعف هم المهموم وكرب المكروب. ولا أظن أن حديث امرئ القيس والنابغة عن مضاعفة الليل آلام النفس كان خافيا عليه.(٦٠)

فإذا أضفنا إلى ماسبق أن الغروب وقت رواح الساعين وراء أرزاقهم إلى دورهم وأهليهم، أى وقت رواح القطاة إلى فرخها الذى تركته وحيدا فى وكره، يترقب عودتها قبل أن يدهمه الليل بأهواله ومخاوفه، لو حسبنا ذلك كله وقدّرناه، لأدركنا أن حافظا قد وفق بإضافته هذا التوقيت على وصف المجنون، فبه استطاع تعميق إحساس المطوقة بالخطر، لاعليها فحسب، وإنما على فرخها أيضا، وهذه هى المكابدة الحقة. وفى هذا الصدد أشير إلى دراسة أجريتها حول ظاهرة اهتمام الشعراء الرومانسيين بالليل، أوضحت فيها الجوانب النفسية المختلفة المتعلقة بالغروب خاصة والليل بعامة.(٦١)

ومن مظاهر النقد المتعسف أيضا، تهكم المازنى بحافظ لقوله يصف حاجة مصر إلى جامعة تخرّج المهندسين والأطباء وعلماء الفلك،... الخ:[٦٢]

مَن المداوى إذا مـا عِلـةٌ عرضَـتْ؟ مَن المدافعُ عن عِرضٍ وعـن نَشَـبِ؟
ومَـنْ يُطِلّ على الأفلاك يرصدُهـا بين المناطق عن بعد وعن كثَـبِ؟

إذ علّق علـى ذلـك بقولـه: "ليـس فـى العـالم طفـل لايعلـم أن علمـاء الأفـلاك لايرصدونها إلا عن بعد، فهل رأى جنابه أحدا صعد فى طيـارة ورصـد الأفـلاك عـن قرب. إن الوقت الذى تطير فيه الناس بين الكواكب لم يأت بعد".[٦٣]

وقـد صـدق حـدس حـافظ وتحقـق خيالـه، ولـو أن المـازنى حـىّ يـرزق لـرأى المركبات الفضائية تخترق ستور الفضاء الخـارجي وتحـوّم حـول الأجـرام والكواكـب، وتدنو منها إلى مسافات لم تكن تخطر ببال البشـر. أفـلا يُحسـب ماقالـه حـافظ لـه لا عليه، ثم أفلا يُعد من قبيل الخيال العلمى الصحيح؟!

لم يكن خيال حافظ خابيا على النحو الذى يوصف، إذ نراه ينشط كثيرا ويقدم صورا جيدة تنم عن صحوته. ولقد أثنى نقاد كثيرون على وصفه رحلته البحريـة التـى مّر فيها بإيطاليا فى طريقـه إلى فرنسـا، لمـا أتـاه فـى هـذا الوصـف مـن تصويـر دقيـق لاضطراب البحر وهبوب الريح، وتأرجح السفينة،...الخ.

فقد فضل (حسن كامل الصيرفى) وصف حافظ على وصف شوقى رحلتـه إلى مؤتمر المستشرقين،[٦٤] كما أثنى عليـه الدكتـور (عبـد الحميـد سند الجنـدى)، وعلّـل تفوّقه فى هذا الوصف بقوله: "يتجلى أثر هذه الرحلة فى نفس حافظ، مايدل على أنه كان فى مكنته أن يأتى بالوصف الرائع لو أتيح له ما أتيح لشوقى من مشـاهد متنوعـة اختزنها خياله فى رحلاته الكثيرة"[٦٥] ويتابع ثناءه فيقول:

"ولعل السبب فى جودة هذه القصيدة أن حافظا قد راعه ما شاهده فى أول رحلة له إلى أوربا، ولعلها كانت الأولى والأخيرة"[٦٦]

ولو علم الدكتور عبد الحميد سند أن حافظا صاغ هذه القصيدة من محض خياله قبل أن يقوم بالرحلة، وقبل أن يجرب ركوب البحر ويختزن مشاهده، لو علم ذلك، لكان إعجابه بالشاعر أكبر. يقول (أحمد محفوظ) فى كتابه "حياة حافظ إبراهيم" وهو أحد المراجع التى اعتمد عليها الدكتور سند فى مؤلفه عن حافظ: "وقبل أن نقضى بك إلى وصف السفينة نحدثك حديثا عجبا عن هذه القصيدة. نظم حافظ قصيدته قبل أن يبارح القاهرة معتزما الرحلة إلى باريس... وهذه أول رحلة للشاعر إلى أوربا، فكان مسرورا سعيدا بهذا السفر، ورأى أن ينظم قصيدة يعبر فيها عن خلجات نفسه. فعلم أن الباخرة سترسو به فى إيطاليا، فهداه شيطانه إلى وصف إيطاليا التى عزم على ألآ ينزلها"[٦٧] كما يقول عن هذه القصيدة أيضا: "رأى حافظ أن يسجل رحلته فى قصيدة فسجلها قبل أن يرتحل... والحافظ بعد ذلك وصف كثير، فقد وصف فى قصيدة السفينة هذه شوارع إيطاليا التى لم يرها"[٦٨]

إذن فبراعة حافظ فى وصفه لم تكن كما يذكر الصيرفى والجندى، لمشاهداته، إذ اتكأ تماما على خياله ومع ذلك تمكن من تقديم وصف جيد. وهذا بلا شك من دلائل قدرته الخيالية العالية، التى كانت تواتيه حينا بعد حين.



هوامش الفصل الخامس:

[1] ديوان حافظ إبراهيم ج١ص١٠

[2] المرجع السابق ج١ص٢٣٧

[3] حياة حافظ إبراهيم ص٢٠٧-٢٠٨

[4] انظر: شعر حافظ ص١٨ومابعدها.

[5] أبو العلاء المعرى (أحمد بن عبد الله بن سليمان) شروح سقط الزند، تحقيق عبد السلام هارون (بالاشتراك)، القسم الثالث (القاهرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة١٩٨٧م)،ص٩٧١.

[6] ديوان حافظ إبراهيم ج٢ص١٣٣.

[7] شروح سقط الزند، القسم الثالث ص٩٧١.

[8] ديوان حافظ إبراهيم ج١ص١٣٩.

[9] أبو العلاء المعرى، اللزوميات ج٣ص٢٢٣.

[10] ديوان حافظ إبراهيم ج٢ص١٦٤.

[11] المرجع السابق ج٢ ص١٧٣.

[12] المرجع نفسه ج١ص٢٦٧.

[13] المرجع نفسه ج١٢ص٦

[14] المرجع نفسه ج١ص١٩٥.

[15] مجنون ليلى (قيس بن الملوّح): الديوان، جمع أبى بكر الوالبى (القاهرة - المطبعة الشرفية سنة١٣٠٠ هـ) ص٤٥.

[16] ديوان حافظ إبراهيم ج١ص٢٧٢.

[17] الشوقيات ج١ص٢٥٠ مقدمة قصيدة "رومة".

[18] المرجع السابق ج٢ص٧١.

[19] المرجع السابق ج٢ ص١١٨.

[20] ديوان حافظ إبراهيم ج١ص٣٣.

[21] المرجع السابق ص ج١ ص١٢١.

[22] سورة طه، الآية: ٢٤-٣٢.

[23] ديوان حافظ إبراهيم ج٢ص٢٢٣.

[24] سورة طه، الآية: ٦٢-٦٤.

[25] ديوان حافظ إبراهيم ج١ ص١٠.

[26] سورة يوسف، الآية: ٢٣-٢٤.

[27] سورة الجن، الآية: ٨-٩.

(٢٨) ديوان حافظ إبراهيم ج٢ ص٧٨.

(٢٩) المرجع السابق ج٢ ص١٧٩.

(٣٠) المرجع نفسه ج٢ص٦٤، وانظر "حسرة على فائت" ج٢ص١١٩.

(٣١) المرجع نفسه ج١ص٤٦.

(٣٢) سورة الكهف الآية ٤٩.

(٣٣) سورة فُصلّت، الآية: ١١.

(٣٤) ديوان حافظ إبراهيم ج١ص٢٧.

(٣٥) المرجع السابق ج٢ ص١١١.

(٣٦) المرجع نفسه ج١ص٢٠٢.

(٣٧) المرجع نفسه ج١ ص٢٧٥.

(٣٨) المرجع نفسه ج٢ ص٢١٠.

(٣٩) المرجع نفسه ج١ ص٢٥٠.

(٤٠) المرجع نفسه ج٢ ص٨٠.

(٤١) المرجع نفسه ج٢ ص٦٣.

(٤٢) المرجع نفسه ج٢ ص٥٨.

(٤٣) المرجع نفسه ج٢ ص١٧٦.

(٤٤) انظر: السعيد محمود عبد الله "الصنعة الفنية في شعر شوقي"، رسالة ماجستير، مودعة بمكتبة كلية الآداب جامعة الإسكندرية ص٣١٧-٣٣٠.

(٤٥) ديوان حافظ إبراهيم ج١ ص٣٠٢.

(٤٦) المرجع السابق ج١ ص٣٠٢.

(٤٧) المرجع السابق ج١ ص٢٨٥.

(٤٨) المرجع السابق ج١ ص٢٧٤.

(٤٩) المرجع السابق ج١ ص٥٨.

(٥٠) يقصد اللغة العربية الفصحى.

(٥١) هما: أمير الشعراء أحمد شوقي والشاعر إسماعيل صبري.

(٥٢) هو الشاعر خليل مطران.

(٥٣) ديوان حافظ إبراهيم ج١ ص٧.

(٥٤) المرجع السابق ج٢ ص٨٩.

(٥٥) المرجع نفسه ج٢ ص٢٥٣.

(٥٦) المرجع نفسه ج٢ ص٢٠٠.

(٥٧) انظر شعر حافظ ص: ٨-١٢، ٢٧،٣٣، ٤٥، ٥٨-٥٩.

(٥٨) ديوان حافظ إبراهيم ج١ ص١٩٥.

(٥٩) شعر حافظ ص٤٠.

(٦٠) يقول امرؤ القيس في معلّقته:

وليل كموج البحر أرخى سدوله ... عليّ بألـــوان الهمـــــوم ليبتلي

.....الخ

ويقول النابغة:

كليني لهمّ يا أميمــة ناصـــب ... وليـــــل أقاسيه بطيء الكواكب

وصدر أراح الليل عازب همّه ... تضاعف فيه الحزن من كل جانب

(٦١) د: السعيد محمود عبد الله، الليل في الشعر العربي الحديث، مجلة كلية الآداب جامعة المنوفية عدد أبريل سنة١٩٩١م.

(٦٢) ديوان حافظ إبراهيم ج١ ص٢٦٦.

(٦٣) شعر حافظ ص٣٩.

(٦٤) حافظ وشوقي ص١١-١٤.

(٦٥) حافظ إبراهيم ص١١٩.

(٦٦) المرجع السابق ص١٢١.

(٦٧) حياة حافظ إبراهيم ص٢٠٧.

(٦٨) المرجع السابق ص٢٠٨.

أهم المصادر والمراجع

(١) إبراهيم عبد القادر المازنى، شعر حافظ (القاهرة - مطبعة البوسفور سنة ١٩١٥).

(٢) أحمد شوقى، الشوقيات، (القاهرة - المكتبة التجارية سنة ١٩٧٠).

(٣) أحمد محفوظ، حياة حافظ إبراهيم (القاهرة - مؤسسة نصار للنشر - بدون تاريخ).

(٤) جمال الدين الرمادى، من أعلام الأدب المعاصر (القاهرة - دار الفكر العربى - بدون تاريخ).

(٥) حافظ إبراهيم:

(١) البؤساء، (القاهرة - مطبعة الهلال سنة ١٩٥١م).

(٢) ديوان حافظ إبراهيم، شرح وتحقيق أحمد أمين (بالاشتراك) (القاهرة - دار الكتب المصرية سنة ١٩٣٧م).

(٣) ليالى سطيح، (القاهرة - مطبعة محمد مطر - بدون تاريخ).

(٦) حسن كامل الصيرفى، حافظ وشوقى (القاهرة - مطبعة المقتطف والمقطم سنة ١٩٤٩م).

(٧) روفائيل مسيحة، حافظ إبراهيم الشاعر السياسى (القاهرة - مطبعة الاعتماد - ١٩٤٧م).

(٨) د. طه حسين، حافظ وشوقى (القاهرة - مكتبة الخانجى سنة ١٩٦٠م).

(٩) عباس محمود العقاد شعراء مصر وبيئاتهم... (القاهرة - مكتبة نهضة مصر سنة ١٩٦٥م).

(١٠) د. عبد الحميد الجندى، حافظ إبراهيم ط٤ (القاهرة – دار المعارف – بدون تاريخ).

(١١) عبد الرحمن الرافعى، مصطفى كامل (القاهرة، مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٥٠م).

(١٢) أبو العلاء المعرى (أحمد بن عبد الله بن سليمان):

(١) شروح سقط الزند، تحقيق عبد السلام هارون (بالاشتراك) (القاهرة – الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٧م).

(٢) اللزوميات (بيروت – مكتبة صادر سنة ١٩٥٢م).

(١٣) د. محمد صبرى السوربونى، الشوقيات المجهولة (القاهرة – دار الكتب سنة ٦٢، سنة ١٩٦٣).

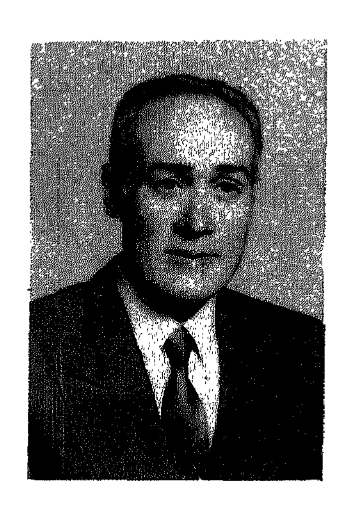
الفهرس

رقم الإيداع بدار الكتب
٩٩/١٨١٨٨

طباعة مركز الدلتا ☎ وفاكس: ٥٩٥١٩٢٣ (٠٣)

رقم الإيداع بدار الكتب
٩٩/١٨١٨٨

طباعة مركز الدلتا ☎ وفاكس: ٥٩٥١٩٢٣ (٠٣)



صدر للمؤلف

١- التجديد فى موسيقى الشعر العربى المعاصر.
٢- المرأة فى وجدان الشاعر العربى
٣- الطبيب الشاعر عزت شندى موسى
٤- الشراع الممزق "ديوان شعر
٥- الليل فى الشعر العربى الرومانسى.
٦- جدوى الوزن والقافية فى الصياغة الشعرية.
٧- قضايا الإنسان فى الرواية المصرية المعاصرة.
٨- الصنعة الفنية فى شعر شوقى.
٩- المغالاة فى الشعر العربى المعاصر.

دار الفارابى للنشر والتوزيع بالاسكندريه